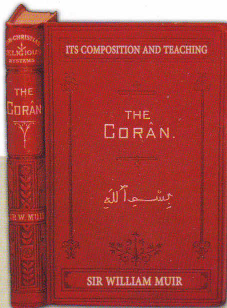
سلسلة كلاسيكيات الإسلام

ويليام موير

القُرْآن

نظمه وتعاليمه وشهادته للكُتب المُقَدَّسة



ترجمه عن الإنكليزية:
مالك مسلماني



المركز الأكاديمي للأبحاث

القُرْآن

نظمه وتعاليمه وشهادته للكُتب المُقَدَّسة

تاليف:
ويليام موير

ترجمه عن الإنكليزية:
مالك مسلماني

القرآن

نظمه وتعاليمه وشهادته للكتب المقدسة

The Corân

Its Composition and Teaching; and The Testimony it Bears To The Holy Scriptures

تأليف: ويليام موير

ترجمة: مالك مسلماني

إخراج الكتاب وتصميم غلافه: القسم الفني، التقويم اللغوي: يارا صالح

الناشر: المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت: الطبعة الأولى 2024

العراق/ تورنتو - كندا

The Academic Center for Research

TORONTO -CANADA

موثق بدار الكتب والوثائق الكندية.

Library and Archives Canada

ISBN : 978-1-990131-50-9

naseer.alkaabi@uokufa.edu.iq

+964 780 226 2494 facebook.com/acadcntr www.acadcr.com info@acadcr.com

تمهيد

إنَّ مناسبةَ هذا البحث الحاجة لطبعة جديدة من «شَّهادة القُرْآنِ للكتب اليَهُوْدِيّة والمَسِيحِيَّة» المطبوع في آكرا سنة 1855. وبعد أنْ نَفِدت الطبعة الثّانية من هذه الدِّراسة التي صدرت سنة 1860 في اللّه آباد. فقد طُلِب من المؤلّف أنْ ينشرَ طبعة ثالثة، وبالتّالي، أثناء إعداد الطّبعة الجديدة أنْ يستهلّها بوصف القُرْآن نفسه، والمنظومة المؤسَّسة عليه.

إنَّ ما تمَّ القيام به إلى الآن سوف يتكشَّف، كما يُؤمل، عن بعض النّفع بشأن منهج مقاربة القُرْآن.

وعليَّ أنْ أعبِّرَ عن مديونيَّتي للدكتور فايل على مقدِّمته الرّائعة لِلْقُرْآنِ؛(1) والتي اقتبست منها بدون قيدٍ؛ رغم أنّي وجدتُ لزاماً مخالفة بعض وجهات نظره بصدد القُرْآن وجوانب الإسلام.

إَنَّ كتابَ «شهادة القُرْآنِ»، المُشار إليه أعلاه، تُرجم ونُشر بلغاتٍ شرقيَّة عديدة؛ ويُعاد طبعه هنا، ولكنْ مع بعض التصحيحات والتعديلات، وهو يشكِّلُ الجزء الثاني من الكِتّاب.

ويليام موير

لندن، السابع عشر من أيّار (مايو)، 1878.

---

(1) *Einleitung in den Koran*. Von Dr. Gustave Weil. Zweite verbesserte Auflage. Bielefeld und Leipzig, 1878.

الجزءُ الأوّل

الفصلُ الأوّل

القُرْآنُ يُشرح بسِيرةِ مُحَمَّدٍ

إنَّ القُرْآنَ أساسُ الإسلام، وإنَّ مرجعيَّته مطلقة في جميع قضايا نظام الحُكْم، والأخلاق، والعلم، مثلما هو كذلك في مسائل الدين. إنَّ عبارةَ «قالَ اللّهُ» قاعدةُ الحياة اليوميَّة؛ وحيثما يصمتُ الوحيُ فإنَّ السنَّة تقول كلمتها؛ وعلى أساس مأثورات أحاديث ومثال مُحَمَّد، كما على أساس تفسير وقياس نصِّ القُرْآن، تتأسَّس مختلف المدارس المُحَمَّديَّة. لِلْقُرْآنِ السيادة العليا، وكثير من تعاليمه بسيطة، وتتَّفقُ جميعُ الشيَع المتناحرة بأنَّ هذا الأمر ليس موضع جدلٍ. لذلك، إنَّ أولئك الذين يرغبون باكتساب معرفةٍ بالإسلام، أو يطمحون للتأثير على الفكر المُحَمَّديّ، عليهم أن يجعلوا من أنفسهم متآلفين مع الأصول التقليديَّة والمدرسيّة للمذهب الذي ينتمون إليه، لكن يبقى عليهم مسؤوليَّة أعظم ملقاة على عاتقهم، ألا وهي دراسة القُرْآنِ نفسه. إنَّ توقير المسلم لِلْقُرْآنِ لهو عظيم. في الخِلافة المُبكّرة كانت قدرة تلاوته غيباً تمنح الهيبة والرفعة، وما زال الشرف يُلازم هذا المَكسب. إنّ معرفة القُرْآن مصدر قوّة لكلِّ أولئك الذين عليهم تبادل الفكر مع المُحَمَّديّين، وتعظِّم من قدرهم، وترفع منزلتهم في العيون؛ بيد أنَّ الجهل بمحتوياته لا بدَّ أنْ يُضعف حامل الإيمَان لقلب المسلم. إنَّ مَنْ يتوجَّب عليه التعامل مع العالم المُحَمَّديّ، أو يريد فهمَ مبادئ آليَّات عمله، يجب عليه، وقبل أيِّ واجب

آخر، أن يُلمَّ بالقُرْآن.

لكنَّ القُرْآنَ إذا ما دُرِسَ بنفسه، فَإِنَّه على الأرجح الأقلُّ وضوحاً بين كلِّ الكُتب المُقَدَّسة. إنّ الكِتَاب المُقَدَّسِ، رغمَّ أنَّ الأحداث المتعلِّقة بأجزاء من نظمه، لا بل إنَّ بعض الأسماء وتواريخ بعض الكُتَّابِ غامضة في أحيان، فإنَّ المادة فيه مرتَّبة للغاية، ونادراً ما تَترك المعنى محلَّ شكٍّ - بغضِّ النّظر إنْ كانت أجزاءً قصصيَّة أو وعظيَّة - أمَّا القُرْآن، فإنّ الأمر على العكس، فرغم أنَّ الخطوطَ العامَّة لحياة المُؤلِّفِ معروفة بشكلٍ جيِّد، إلاَّ أنّه ككلٍّ محلُّ تشوُّش، وغالباً ما يكون المغزى عسيراً على الفهم. إنَّ الأجزاء تتلو الأخرى بدون أيِّ تسلسل تأريخيٍّ، وإنَّ السّور نفسها غالباً ما جُمعت من قطع متفرِّقة بدون أيِّ اعتبارٍ لا للزمن ولا للموضوع. ولهذا، فمن أجل بلوغ فكرة واضحة بشأن غاية هذا النظم المفكَّك، ومعنى أقسامه المتعدِّدة، فإنَّ الأمرَ ممكن فحسب، بالارتباط مع دراسة حياة المُؤلِّفِ. ولتحقيق هذه النظرة، أقترح رسم مجمل شديد الإيجاز لخطوط سيرة مُحَمَّدٍ العامَّة، وألزم نفسي إيراد الآيات الضّرورية لكي أشرحَ القُرْآنِ.

وُلد مُحَمَّد في مَكَّةَ سنة 570 م. وهي مدينة واقعة على طريق قوافل شهير من اليمن إلى سوريا. كانت من غابر الأزمان مشهورةً بكعبتها، وبالأماكن المجاورة لها التي ترتبط بطقوس الحجّ، وهي حسب التّقاليد المحليَّة مكرَّسة لذكرى إبْرَاهِيم وإسماعيل. كانت قبيلة قُرَيْش لأجيال عديدة القبيلة الرئيسة، التي تشرف على المسائل الهامَّة المرتبطة بالحرم والحَجِّ، كما كانت مهيمنةً على مجلس المدينة. أمَّا مُحَمَّدٌ فإنّه نشأ في بني هاشم، وهم بطن كريم المحْتِد، على الرَّغم من أنّه كان آنذاك في طور الانحلال بعض الشيء. وكان جدُّه الأكبر متزوِّجاً من امرأة يَثْرِبيَّة، وبهذا فإنّ مُحَمَّداً ارتبطَ بإحدى الأسر البارزة في يَثْرِبَ، وهي أسرة من بني الخَزْرج. أمَّا أبوه فكان فقيراً، ومات في

رحلة تجاريَّة إلى سوريا قُبيل ولادته بقليل. وحسب عادات مَكَّة، فإنَّ أمَّه آمنة سلَّمته إلى مُرضعة من قبيلة بدويَّة؛ حيث بقي الصَّبيُّ لمدة أربع أو خمس سنوات، تعلَّم فيها خصال الاستقلال، وفصاحة لسان العرق البدويّ. ولكنَّ مرضعته انخلع قلبها رعباً جرَّاء نوبات الصَّرع التي انتابت وديعتها لأكثر من مرَّة، وفي الختام اقتنعت بضرورة التخلِّي عن ربيبها. وبعد مرور عام على ذلك، اصطحبت آمنة الولد لزيارة أقاربها في يَثْرِبَ، بيد أنَّها في طريق أوبتها خطفتها يدُ الموتِ؛ فجعل القدرُ مُحَمَّداً يتيماً وله من العمر ستُّ سنوات. وقد أخذه عمّه أبو طالب، والذي سيبقى إلى آخر أيَّام حياته وفيّاً للأمانة. وبعد ذلك، فإنَّ الصبيَّ مُحَمَّداً رافقَ عمَّه في رحلة تجاريَّة إلى سوريا. ولبعض الوقت، فإنّ مُحَمَّداً عاشَ بدون أحداث تُذكر. كانَ أبو طالب فقيراً، فوجد من الصعوبة أنْ يتكفَّل بنفقة ابن أخيه إضافةً لعائلته الخاصَّة، فدبَّر له مهمَّة لصالح أرملة غنيَّة (خَديجة) للإشراف على قافلة تجاريَّة إلى سوريا. فأبهج صدر خديجة بخدمة وكليها، وحملت له مشاعر حانية، ومع أنَّها كانت تقارب الأربعين من العمر، بينما كان هو ابن خمس وعشرين سنة فحسب، فإنَّها صارت زوجته؛ وأنجبت له ولدَيْن وأربع بنات. وماتَ كلا الولدين، إذْ عاش الأكبر سنتَين، وسُميّ قاسماً، ولهذا فإنَّ مُحَمَّداً كُنِّي بأبي القاسم.

في سنة مُحَمَّد الخامسة والثلاثين، فإنَّ الكعبة التي تهدَّمت نتيجةً لطوفان، بُنيت مجدداً؛ وعندما جاء وقت وضع الحجرِ الأسود مكانه، اتَّفقت مختلف الأطراف القبليَّة على أنَّ أوَّلَ داخِلٍ يضعه؛ فوقعت قرعة الحظِّ على مُحَمَّد (الذي كان، بسبب فضيلته وأمانته، يسميّه أهل بلده «الأمين») من أجل تأدية المهمَّة. وبعد ذلك بقليل، فإنَّ مُحَمَّداً خفَّف عن عمِّه أبي طالب عبء عليٍّ، أحد أبنائه، والذي كان له من العمر خمس أو ست سنوات. فربطت بين ابنيْ العمِّ عُرى إخاءٍ؛ وبعد حوالي عشرين سنة، سيتزوَّج عليٌّ فاطمة، ابنة مُحَمَّد الصغرى. وكذلك تشكَّلت بين مُحَمَّد وزيد صداقة وشيجة، وزيد هذا كانَ

مسترقّاً يعود لِخَدِيجة، والذي أُسرَ من قبيلة مَسِيحِيَّة. أطلق مُحَمَّد سراحه، وتبنَّاه، وصار يُعرف منذ ذلك الحين باسم «زيد بن مُحَمَّد».

كانت المَسِيحِيَّة منتشرة على نطاق واسع بين القبائل السوريَّة والحدوديَّة، وحتَّى أنَّه كان ثمَّة بعض المستوطنات المَسِيحِيَّة في قلب الجَزِيْرة العَرَبِيَّة. ولهذا لم يكن الإنجِيل مجهولاً تماماً في مَكَّة، مع أنَّ ذلك كان في شكل منقوص، ومُغربل. وتتحدَّث التقاليد عن «باحثين» أربع عن «الدِّين الحقّ»، الذي كان يُترّقب ظهوره في ذلك الوقت، وأحدهم كان الشيخ ورقة، ابن عمّ خَدِيجة، الذي قيل إنَّه كان يكتب بعضاً من الإنجِيل. والآخر، زيد بن عمْرو، الذي زُعِم بأنَّه عرف في مُحَمَّد النَّبِيّ الآتي. في هذا النوع من المأثور المدهش، والتوقُّعات الاستباقيَّة بشكل واضح، يمكن أن ندرك حقيقة أنَّه في بعض الجماعات، فإنَّ روح البحث حفَّزت عقل العرب. بغضِّ النظر إنْ كانت قد أُثيرت بمثل هذه التأثيرات، أو نشأت عفويَّاً، إلَّا أنَّه من المؤكَّد أنَّ حياةً جديدة نشطت في روحِ مُحَمَّدٍ لمَّا بلغ الأربعين من عمره. كان قد أمضى خمس عشرة سنة هادئاً وغير مكترثٍ في كنفِ أسرته، بدون أيِّ شيء يميِّزه (ربَّما باستثناء الوقار الشخصيِّ والفضيلة) عن الرجال الآخرين.

سنيه **40 - 43**: والآن بدأ يتوحَّد ويغوص في التأمُّل، فكان لذلك يعتزل لأيَّام في زمن معيَّن بغارِ حِرَاءٍ، الذي يبعد ميلاً أو اثنين عن مدينته، متفكِّراً بالقدر الغامض للإنسان، ولماذا فشل الوحي المتكرِّر في تبديد الظلام الكثيف الذي كان يكفِّن الجَزِيْرة العَرَبِيَّة؛ كان يغرق في خيالات نشويَّة؛ وأخيراً آمن بأنَّه مدعوٌّ لأن يكون مُبشِّراً بالحقِّ ومُصلحاً لشعبه. وعند هذه اللحظة رسم خياله له أنَّه شاهد ملاكاً، يلقي عليه الأمر (المتضمَّن في السّورة السّادسة والتّسعين):

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ؛

خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ.
اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ.
الذي عَلَّمَ بِالقَلَمِ:
عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.[1]

وحسب الأخبار التي وصلت إلينا، فإنَّ الرؤية تبعها انقطاعٌ متطاول للوحي (الفترة)؛ ممَّا أغرقَ مُحَمَّداً في كآبة عميقة، وهمَّ بإلقاء نفسه من ارتفاع شديد التحدُّر؛ بيد أنَّه مُنع من قِبلِ نفس الرسول السماويّ. وبعد ذلك بقليلٍ، بينما كان متدثِّراً بثيابه، ومتمدِّداً على بساطه، فإنَّ الملاك خاطبه بهذه الكَلِمِ:-

(السورة الرابعة والسبعون):
يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ!
قُمْ فَأَنذِرْ!
وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ؛
وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ؛
وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ.
وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ؛
وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ.[2]

لقد فُوِّض هنا بأنْ يبشِّر. وعُيِّن رسولَ اللّهِ وحواريه، ومنذ ذلك الحين فإنَّ الآيات بدأت تتابع متواترةً الواحدة تلو الأخرى.

(1) سُوْرَةُ العَلَقِ: 96/ 1ـ5.
(2) سُوْرَةُ المُدَّثِرِ: 74/ 1ـ7.

هذا فيما يخصُّ المأثور بصدد بدايات الوحي في روع مُحَمَّد. إنَّ بعضاً من السّور القصار مصاغة بلغة وجديَّة، لعلَّها أُلهمت في الحقبة الهادئة الأبكر. ويتوجَّب على القارئ أنْ يضع نصب عينيه أنَّ القُرْآن يعترف بأنّه وحي منبثقٌ مباشرةً من القادر. وأنَّ محتوياته ليست في أيِّ موضع شخصيةً؛ أيْ أنَّها لا تمثِّل مطامح فؤاد صاحب الوحي، أو تعاليم النَّبِيّ نفسه الملهمة من اللّهِ. حرفيّاً، إنَّ الوحي جاءَ من السَّماءَ. إنَّ صيغة «قُلْ، وقَالَ اللّهُ»، إمّا تسبق كلَّ جملةٍ مفردة، أو يجب أنْ تُفهمَ على هذا النحو. وبهذا فإنَّ القُرْآن بالنسبة للمسلم، هو المعنى الإلهي الحقّ؛ وهذا ما كان يعنيه مُحَمَّدٌ بأنّه تلقّاه.

إنَّ بعضاً من القطع القُرْآنية المفرطة في عاطفيّتها هي على الأرجح من نظم مُحَمَّدٍ لنفسه قبل أنْ يؤمن بفكرة الوحي الموضوعيِّ المطلق؛ بيد أنَّ المؤمن القويم سيرفض هذه الفرضيَّة بوصفها كفراً. وبرأيه، فإنَّ القُرْآن من البداية إلى النّهاية يصدر عن القدير مباشرةً.

ولبعض الوقت، وقبل تولِّي مهمَّته النَّبَوِيّة، فإنَّ مُحَمَّداً كان يشاطر عبء روحه مع أكثر من صديق أقربهم إليه مودةً. كانت خَدِيجة مستودع أشواقه الروحيَّة الأول؛ في البدء وعندما كان الهمّ يتأكّله خشية أن يكون مصاباً بمسٍّ شيطانيٍّ، فإنَّها هي التي أراحته، ودفعت بالشيخ ورقة لكي يعيد إليه طمأنينته بالإِيمَان بالرسالة الإلهيَّة. وبالتدريج، بدأت عصبة صغيرة من الأتباع المخلصين تلتفُّ حوله. كانَ عليٌّ وزيدٌ من الأوائل، كما أنَّ أبا بكرٍ، الصّفيَّ المخلص، والذي جذبَ أربعة آخرين (بمن فيهم عُثمان [بن عفّان، م.]) وبعضَ الأرقَّاء المحرَّرين إلى الحلقة الصغيرة من المؤمنين.

وإذْ بدأت تعاليم مُحَمَّدٍ تتطور، ويصبح تأكيده على وحدانيّة اللّهِ ورفض الوثنيّة أكثر صلابةً، فإنَّ رجالَ مَكَّة شرعوا يعارضونه بشكل قويّ. وسخِروا من فكرة البعث، واستهزؤوا بالآيات على أنَّها أقوال شاعر مجنون، وصاروا

يضطهدون المؤمنين. وكان مُحَمَّد بمأمن بسبب حماية أبي طالب، بيد أنَّ أولئك الذين لا حماية لهم كان يتعرَّضون لاضطهاد قاسٍ؛ ولهذا فإنَّ مجموعة من أحد عشر شخصاً، وبعضهم مع أسرهم، هربت من البلد، ووجدت ملجأً لها عبر البحر الأحمر، لدى بلاط الحبشة (615 م).

سنة **615** ميلادي: وكان عثمانُ مع زوجته رقيّة، ابنة النَّبيّ، من جملتهم. بعد انسلاخ بضعة أشهر على هذه الهجرةوقعت حادثة غريبة، إذْ تاقَ مُحَمَّدٌ إلى تسوية مع أهل بلده، باعترافه بآلهتهم في منظومته، بوصفها شفعاء لدى الإله الأعلى. وبينما كانت قُرَيْش جالسة حول الكعبة، بدأ مُحَمَّدٌ يتلو عليهم السّورة الثّالثة والخمسين:

أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالعُزَّى

وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى.(1)

تلك الغرانيق العلا

وإنّ شفاعتهنَّ لتُرتجى.

شعر الملأ القُرشيُّ بالتنازل، فقاموا بالسجود لإله مُحَمَّدٍ. لكنَّ فؤاده اضطرب بقوَّة؛ ولم يمضِ كثير من الوقت، حتَّى جاءه جِبْرِيل يقول له إنَّه نطق بالآيتيْن البغيضتَيْن (السّطريْن المشدَّديْن) تحت تأثير الشَّيطان؛ فتمَّ استبدالهما بإدانة لا تسوية فيها للوثنيَّة، ولم يعُد بعد ذلك يميل قلبه إليها:

أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى؟

تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى

---

(1) سُوْرَةُ النَّجْمِ: 53/ 19 ـ 20.

إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم.[1]

وبسبب ذلك فإنَّ قُرَيْشاً استأنفت الاضطهاد أكثر شدَّة من أيِّ وقت مضى. وإذْ كان المهاجرون إلى الحبشة قد عادوا على أساس خبر التّسوية؛ فإنَّهم هربوا مجدَّداً الآن إلى الحبشة، وبتزايد عدد المهاجرين، فإنَّ عددهم ناهز تدريجيّاً المئة شخصٍ. في ذلك الوقت لقيت قضيَّة الإسلام تعزيزاً بشكل غير متوقَّع من خلال اعتناق شخصيتيْن باسلتيْن ومؤثِّرتيْن: حمزة، عم النَّبِيّ، وعمر [بن الخطاب، م.]. وإذ انتابَ القلقُ قُرَيْشاً بسببٍ من الجبهة الصَّارمة التي صارت في حيازة مُحَمَّد وأتباعه، فإنّها شكلّت بالتّالي تحالفاً ينصُّ على تعليق كافَّة أشكال التعامل مع المسلمين وداعميهم. ووقف أبو طالبٍ، والهاشميُّون إلى جانب ابن عصبيَّتهم بإخلاص، رغم أنّه نفسه وكثيرون من العشيرة كانوا غير مؤمنين برسالة مُحَمَّد، ولاذ الجميع إلى «حيِّ أبي طالب»، لمدَّة سنتيْن أو ثلاث، بقوا فيها مقطوعين عن الاتصال مع العالم الخارجيِّ.

سنة **617 ـ 619** ميلادي: وفقط في زمن الحجِّ، فإنَّ النَّبِيّ كان قادراً على مواصلة نبوَّته؛ وإذا كان محلّ إهمال أبناء بلده، فإنَّه لقي اهتماماً نسبيَّاً من القبائل الأخرى التي ألقى عليها مواعظه.

كانَ القُرْآنُ، الموحى في هذه الفترة، يكتسي سمةً مختلفةً بشكل منتظم. إنَّ السُّور أطول، وما زلنا نلقى الآثار المألوفة للانفعال المبكِّر، والأسلوب صار أكثر وداعة وأكثر نثريَّة. إنَّ ظواهر الطبيعة، وتكييفاتها إلى حاجات الإنسان، أُوردت للبرهنة على وجود الكائن الأعلى والعناية الإلهيَّة الكليَّة. ثمَّة أوصاف مسهبة للجحيم والجنّة الماديَّيْن بشكلٍ عام، كما للبعث. وكانَ يُغرس في النَّبِيّ الثَّبات والصَّبر، ويُشدُّ من عزمه للصمود بمثال الرسل الذين سبقوه، من

(1) سُوْرَةُ النَّجْمِ: 53/ 21 ـ 23.

الجَزِيْرة العَرَبيّة واليَهُوْد، إضافةً لتجلُّد شهداء نجران المَسِيحِيِّين. ويبرز أفق جديد يخصُّ الاحتكام للكتب السابقة واليَهُوْد، والذي صار مُحَمَّدٌ يقوم به تكراراً في القُرْآن، بوصفهم شهداء على دعاويه. إنَّ موقفه محصَّن بالقصص الطويلة والمستطردة من تاريخ العهد القديم، مثل خلق وسقوط الإنسان، الطّوفان، قصص إِبْرَاهِيم، دَاوُود، سُلَيْمَان، والتي ترد في بعض الأحيان بلغة الكِتَاب المُقَدَّس تماماً، بيد أنّها مصبوغة ومحرَّفة بالرواية الحَبْرِيَّة والأخيلة، وفي أحيانٍ كثيرة بالخرافة المحليَّة. وثمَّة وحي يَهُوْدِيّ بشكل بيِّن، بيد أنّه ليس لدينا الوسائل للقول من أين اقتُبس. وقد أُتهم مُحَمَّدٌ من جانب قُرَيْش بالانتحال، والاختلاق. ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾؛[1] فأجاب النبيُّ: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾.[2] كانت الآيات في الواقع دليلاً جديداً على إلهامه.

سنة **620** ميلادي: في خاتمة المطاف فشلَ الحصارُ رغم قسوته في تحقيق مرامه. إذ إنَّ أسى الكثيرين على شدائد الحصار خدمت مُحَمَّداً وأتباعه. في السنة العاشرة من نبوته فإنّ المنع أُلغي وعاد الهاشميُّون إلى حريَّة الحركة. بيد أنَّ خَدِيجة سرعان ما قضت نحبها، ولحق بها أبو طالب. وإذ كانَ متشائماً بالفقدان المزدوج، وبانسداد آفاق قضيته، فإنَّ مُحَمَّداً توجَّه برفقة زَيْدٍ فقط إلى الطَّائِف، المدينة التي تقع حوالي ستين ميلاً إلى الشرق من مَكَّة، لكنَّ دعوته، والتي دامت عدَّة أيّام، لم تلقَ من رجال الطَّائِف أذناً صاغية، وفي النهاية فإنّه طُرد من قِبلَ لفيف الأهالي، وقد أصابه وابلٌ من الحجارة بجراح. وما إنْ استراح لدى طريق عودته، لدى نخلة، حتَّى خيِّلت إليه رؤيا، مجموعة من الجِنِّ تحلَّقت حوله بتوقٍ لسماع القُرْآنِ واعتناق الدِّين الجديد. ورجع إلى مَكَّة بتوقُّعات مظلمة.

---

(1) [سُوْرَةُ الفُرْقَانِ: 25/ 5، م.]

(2) [سُوْرَةُ الفُرْقَانِ: 25/ 6، م.]

سُوْرَةُ الأَحْقَافِ (46)، وسُوْرَةُ الجِنِّ (72): بعد شهرين من موت خَدِيجة فإنَّ مُحَمَّداً تزوَّج سَوْدة، أرملة أحد المهاجرين إلى الحبشة، وخطبَ عائِشَة، ابنة صديقه أبي بكر، التي كان لها من العمر آنذاك ستٌّ أو سبع سنوات لا غير.

وفي النهاية انبثق الأمل من حيٍّ غير متوقع. ذلك أنّه لدى حلول موسم الحجِّ السّنويّ، فإنَّ عصبةً صغيرةً من مصلّين يثربيِّين انجذبت وأُستميلت في مِنىً إلى دعوة الإسلام، وفي العام التّالي، فإنَّ عددهم صار اثني عشر، وقد التقوا بمُحَمَّدٍ في نفس البقعة، فأعطوه عهد الولاء.

سنة 621 ميلادي: وفي يَثْرِب وجدت دعاوي النَّبِيِّ الجديد استجابة سريعة. إذْ كانت الظروف كلُّها مواتية. فكانت هنالك عدَّة قبائل يَهُوْدِيّة استوطنت منذ زمن في الجوار المتاخم؛ وديانة وكتاب اليَهُوْد، اللذين بدأ مُحَمَّد الآن يستند إليهما على أنّهما من دعاماته الرئيسة، كانا مألوفين هناك. لقد كانت يَثْرِبُ تعيش على مدى سنوات في فوضى النزاع الأهليِّ؛ فكان حزباً الأوس والخزرج متساويَيْن تقريباً، ولم يتمكَّن أحدُهما من السيطرة على زمام الأمور. وقد أرسلَ مُحَمَّد معلِّماً من مَكَّة إلى يَثْرِبَ، فانتشر الإيمَان الجديد بسرعة مذهلة.

في مَكَّة كان يسود هدوء ما قبل العاصفة. بقي الجانبان على حذر من بعضهما، فكان كلُّ طرفٍ يراقب الآخر. كانت سورُ هذه الحقبة تعكس روحاً هادئة وثقة متغطرسة، مع تحذيرات عرضيَّة من غضب الإله ضد المدينة الآثمة. ولم يكن ثمَّة أملٌ بأيِّ نجاح إضافيٍّ في مَكَّة؛ كان مُحَمَّد يرنو نحو الشمال.

سُوْرَةُ الإِسْرَاءِ (17): كانت أحلامه الحقيقيَّة تكمن هناك. لقد أُسريَ به ليلاً إلى المعبد في القدس؛ ومن هناك (كما تقول الرِّوايات) صعد إلى حضرة اللّه نفسه، حيث تلقَّى منه أمر الصلاة خمس مرَّات يوميّاً.

سُورَةُ الرُّوم (30): كما أنّه، جازف أيضاً بأن يتنبّأ بأنّ النصر سيكون حليف هِراكليوس بسرعة ضدّ أعدائه الفارسيِّين.

سنة 622 ميلادي: ومجدَّداً جاءَ وقت الحجّ، فوجد مُحَمَّدٌ نفسه محاطاً بجماعة متحمِّسة من سبعين مريداً من يَثْرِب، الذين أعطوا عهداً في شِعبٍ منعزل في مِنىً لاستقباله والدفاع عنه بالحياة والمال. وفي الحال اتَّخذ قراراً بترك المدينة العاقَّة والعاصية، وأعطى أمراً لأتباعه بالهجرة إلى يَثْرِب، قائلاً: «إنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قد جعلَ لكم إخواناً وداراً تأمنون بها». وبذلك فإنّهم تركوا وطنهم وبيوتهم، وانطلقوا سرّاً إلى يَثْرِب أرسالاً، حيث بلغ الرّقم بسرعة حوالي المئة والخمسين، بحسبان النّساء والأولاد. وفي النِّهاية فإنَّ مُحَمَّداً مع أبي بكر وعليّ وأسرهم، بقوا لوحدهم تقريباً. وقد أربك هذا الانعطاف غير المتوقع قُرَيْشاً، والآن فإنّها عقدت اجتماعاً؛ وصُف في القُرْآن على هذا النّحو: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾.[1] لكنَّ مُحَمَّداً حُذِّر من خططهم، ولهذا فإنّه فرَّ إلى كهفٍ في جبل ثور، قرب مَكَّةَ؛ وبعد ثلاثة أيام شقّ طريقه إلى يَثْرِبَ متملِّصاً من مراقبة أعدائِهِ.

سُورَةُ التَّوْبَة: 9/ 40: إنّ يوم هروبه سُمّيَ عهد الهجرة سنة 622 م.

إنَّ أجزاء القُرْآن التي تعود إلى السّنوات الأخيرة في مَكَّةَ، تكرِّر نفس الحجج المذكورة من قبل ضدَّ الوثنيّة، والاعتراضات التي أثارها الكافرون؛ وبراهين الصّفات الإلهيَّة؛ والحكايات الكِتَابيَّة والخرافيَّة؛ مع تصاوير حيَّة وأحياناً مسرحيَّة للجنَّة والنّار. ومع اقتراب نهاية هذه الحقبة سنجد إشارات إلى الهجرة الوشيكة. إنّ السُّورَ تصبح أكثر طولاً (غالباً ما تحتلّ عدَّة صفحات)،

(1) سُوْرَةُ الأَنفَالِ: 8/ 30.

والأسلوب بقي وديعاً وأكثر صنعةً، بيد أنّه بين الحين والآخر هنا وهناك، ثمَّة انفجارات من المجازات شديدة وشعر متّقد.

إنَّ ملمحاً جديداً يتّصل بالمَسِيحِيَّة قد أصبح الآن تحت الملاحظة. في السُّور المبكّرة فإنَّ عقيدتنا نادراً ما ذُكرت إلاَّ بشكل ضمنيٍّ.

سُوْرَةُ مَرْيَمَ: 19/ 12؛ سُوْرَةُ آلَ عِمْرَان: 3/ 33؛ سُوْرَةُ المَائِدَة: 5/ 110:

إنَّ الآيات التي تتصل بالإنجيل حقّاً لهي قليلة نسبيّاً على طول القُرْآن؛ بيد أنَّ اثنتين أو ثلاثاً تقدِّم تفصيلاً كبيراً، وتروي قصص ميلاد يوحنّا المعمدان ويسوع؛ والأولى منهما أُعلنت بعد عودة مُحَمَّد من الطّائِف بقليل. ويوجد بعض الآيات تتعلق بمعجزات ربّنا، وإشارات قليلة إلى الرُّسل، وقصة النيام السّبعة، وهي مرسومة بألوان أكثر خياليَّة.

سُوْرَةُ الكَهْفِ (18): وتتوافق قصص الإنجيل عموماً مع مستهلِّ إنجيل لوقا المبسوطة أحياناً بنفس كلماته؛ بيد أنّها تحفل بمعجزات طفوليَّة، مثلما ما نجد في إنجيل الطفولة.

سُوْرَةُ النِّسَاءِ: 4/ 157: إنَّ صلب المسيح منكرٌ؛ وعشاء وعماد المسيح غير مبيَّنين، ويبدو من مفهومه للثّالوث (العقيدة التي ينكرها بسخط) أنّه ينظر إلى مَرْيَمَ العذراء على أنّها واحد من الأقانيم. وهو يحتكم إلى الإنجيل كما إلى الكتب الخمسة في تأكيده على رسالته؛ وإنَّ قطعه العلاقات في يَثْرِب مع اليَهُوْد سيقوده لاحقاً إلى الحديث بشكلٍ أكثر لطفاً بصدد المَسِيحِيِّين منه بشأن اليَهُوْد. إذاً، رغم أنَّ بعض أجزاء الإنجيل كانت معروفة بدون شكٍ لمُحَمَّد، فإنّه ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ ذلك كان في صيغة أشدَّ تشظّياً، وأنَّ معرفته بالتعاليم المَسِيحِيَّة كانت في الواقع، هزيلة ومشوّهة.

إنَّ الإسلام (والذي يعني التسليم للّهِ) يستوعب كلَّ الوحيِ السابق.

سُوْرَةُ البَقَرَةِ: 2/ 62؛ سُوْرَةُ المَائِدَة: 5/ 69:إنَّ الخلاصَ كان مضموناً للِيَهُوْد والمَسِيحِيِّين الأتقياء، بل حتَّى للصّابئين، كما للمسلمين. إنَّ رسالةَ مُحَمَّدٍ كانت موجَّهة بشكل رئيس للعرب. ولم يكن يُفترض بها أنَّها الرسالة الوحيدة، وأنَّها موقف مضادٌّ من كلِّ ما عداها. إنَّ مُحَمَّداً كانَ مجردَ نذيرٍ ومبشِّرٍ فحسب. إنَّ فكرة الإكراه والإجبار لم تكن قد دخلت في ذهنه في ذلك الحين. لكنّه حتَّى في هذه الحقبة طالب أتباعه بالطاعة المطلقة، وقد تلقَّها فعلاً. إذْ كانوا ملزمين ضمناً بـ ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ﴾، إلى جانب العظات حول خشية اللّه، والإحسان، والتّواضع، والاستقامة، والنّزاهة، والطّهارة، وغيرها من الفضائل. في هذه الفترة ظهرت شعائر محدَّدة: الصلاة، وطقس الكعبة الذي فُرض بوصفه دينَ إِبْرَاهِيم الحنيف. كما نجد قيوداً يَهُوْديّة بصدد بعض أنواع الطعام، لكنَّ الأوامرَ الوضعيّة حتَّى الآن كانت قليلة.

لقد أعادت الهجرة إلى يَثْرِبَ رسمَ المشهدِ، ومارست تأثيراً على طابع الآيات القُرْآنِيَّة التي نزلت هناك. لقد اختفى وثنيو مَكَّة، واحتلَّ مكانهم «منافقو» يَثْرِبَ. ولم يكن هنا من معارضة علنيّة لا لمُحَمَّد ولا لمبادئه؛ لكن، مع ذلك، فإنَّ حزباً قويّاً كانت تدبُّ في قلبِهِ عقارب الحَسَدِ من القادم الغريب، وهيمن تيَّارٌ خفيٌّ من الاستياء، والذي طفا على السطح بشكل ليس بالقليل، وكان عبد اللّه بنُ أُبيّ زعيم الحزبِ، الذي كاد يصبح زعيم يَثْرِبِ لولا التحوُّل الجديد في مصائر مدينته. إنَّ الأهالي السّاخطين بقوا موضوعاً لإدانة القُرْآن المُرَّة، إلى نهاية رحلة النَّبِيّ، عندما اختفوا بدورهم من المسرح قبيل نجاح الإسلام.

إلاَّ أنَّ الموضوع المعالَج الأبرز في وحي يَثْرِب المبكر كان الشّعب اليَهُوْديّ وديانته. في البدء لم يألُ مُحَمَّدٌ جهداً لجذبهم إلى قضيَّته. إذْ أسهب

بشأن سيرة أنبيائهم وشخصياتهم البارزة، وسعى بواسطة إعادة قصّ عناية اللّه في أرض مصرَ وأماكن أخرى، إلى إثارة عرفانهم، وحثّهم على نشر البيّنة في صالحه، والتي كان يؤكّد أنّ كتبهم كانت تحتويها؛ لكنّه أخفق. باستثناء بعض المنشقّين، فإنّهم رفضوا الإقرار بدعاويه النّبَوِيّة. سرعان ما أنضجت الخيبة عداوةً، وأولئك الذين نُوشدوا من قبل لأنْ يكونوا شهداء، فإنّهم أُدينوا الآن بوصفهم عمياناً وأشراراً، وأنّهم سليلو الذين قتلوا أنبياءَهم ورفضوا المسيح.

بقيت الكُتب الخمسة والإنجيل موضع احتكام؛ لكنّ رسالة مُحَمَّد غدت أكثر فأكثر – وفي نطاق أوسع دائماً – تهدف إلى إعادة هؤلاء الذين انحرفوا عن عقائد الكتب المُقَدَّسة إلى الإيمَان القديم المُقَدَّس. إنَّ إِبْرَاهِيم لم يكن يَهُوْدِيّاً ولا مَسِيحِيّاً؛ بل مسلماً حنيفاً؛ ودين إِبْرَاهِيمَ صار الآن في نهاية المطاف مُستعاداً وتامّاً في القُرْآن. والكُتب تنبأت بمجيء النَّبِيّ؛ واليَهُوْد اعترفوا به على أنّه أحد أنبيائهم؛ بيد أنّهم انحرفوا بتعصُّبهم الأعمى وحقدهم، وقد زوّروا بيّنتهم. ﴿وقَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالحِجَارَةِ﴾.[1] إنَّ سور هذه الحقبة تزخر بالآيات التي تقوّي وترسم هذه النتيجة.

في سنته الأولى في يَثْرِب، اشتغل مُحَمَّدٌ بشكلٍ رئيسٍ في بناء مسجد كبير، وتوفير مساكن له ولأتباعه، الذين كانوا محلَّ استضافة وكرم ضيافة أهل يثرب. وفي البدء كان مُعترفاً بسلطة النَّبِيّ من قِبل معتنقي الإسلام الجدد؛ لكنّها توسّعت تدريجياً، بحيث أصبح الزعيم الفعليَّ لكلِّ المدينة.

سُوْرَةُ النِّسَاءِ: 4/ 43؛ سُوْرَةُ المَائِدَة: 5/ 5: لدى وصول مُحَمَّدٍ يثرب اتّبع طقس الصلاة، المسبوق بالوضوء، ذا السمة اليَهُوْدِيّة، وهو نشأ نتيجةَ الممارسة أكثر من كونه فرضاً إلهيّاً. وفي الأوقات الخمسة المحدَّدة في اليوم،

(1) [سُوْرَةُ البَقَرَةِ: 2/ 74.ـ م.]

فإنَّ المؤمنين يدعون بالأذان إلى صلاة قصيرة في المسجد، والتي يمكن أنْ تؤدّى أيضاً في أيِّ مكانٍ؛ وجُعل يوم الجُمُعَةِ مميَّزاً كي تتمَّ ممارسة شعيرة أكثر عموميَّة ومهابةً، بعيداً عن قداسة السّبت اليَهُوْديّ.

سُوْرَةُ الجُمُعَةِ (62): لم يردْ ذكر الجُمُعَةِ في أيِّ مكان في القُرْآن، ما عدا في الحقبة المتأخّرة، عندما وُبِّخ المؤمنون لتركهم المساجد لدى وصول القوافل، وانفضاضهم عن النَّبِيّ بينما هو في المنبر واقف. في بداية الأمر تقيّد مُحَمَّدٌ ببعض من أوقات الصِّيَام وأعياد اليَهُوْد؛ إلاَّ أنّ بغضه المتزايد لليَهُوْد قاده إلى تأسيس منظومات خاصَّة مختلفة.

سُوْرَةُ البَقَرَةِ: 2/ 187: وفي مستهلِّ عهده كان يصلِّي مثل اليَهُوْد صوب القدس؛ لكن القِبْلَةَ تبدَّلت الآن صوب الكَعبة. وكذلك، صيام الكفَّارة الذي كان يتقيَّد به مُحَمَّد؛ بيد أنّه في العام التّالي أُمر باعتبار شهر رَمَضَان شهرَ الصِّيَام، فخاطبتهم الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَام كَمَا كُتِبَ عَلَى الذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(1)﴾. ولإكساب التنسُّك الإضافي عن اليَهُوْديّة مزيداً من التمايز، والاقتراب أكثر من ديانة مَكَّة، فإنَّ عيد الأضحى أُلتزم به في يَثْرِب في نفس اليوم الذي يوافق الطقس في مِنىً، وبديلاً عن شعيرة الأضحية (Sacrifice) اليَهُوْديّة.

السنة الثّانية للهجرة: في السَّنة الثّانية للهجرة، دُشِّنت مرحلة جديدةٍ في القُرْآن بالمواقف المعادية لقُرَيْش.

فحتَّى الآن، وكما رأينا، كان مُحَمَّدٌ يعلن عن نفسه أنّه مجرّد نذير. فهو ليس ﴿حَفِيظاً﴾ على الكافرين. وحتَّى في يَثْرِب، أُعلن في البدء: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي

---

(1) سُوْرَةُ البَقَرَةِ: 2/ 183.

الدِّينِ﴾.[1] لكنَّ مبادئ الإسلام خضعت تدريجيّاً لتغيُّر. فقدَّمت قوافل مَكَّة فرصةً مغريةً للانتقام، وقد وُجِّهت عدَّة سرايا ضدَّها. ونُفِّذت إحداها وفق أوامر مختومة، أدَّت إلى مقتل مَكِّيٍّ والاستيلاء على قافلةٍ وأسر مرافقيها القُرَشِيِّين. حدث ذلك في شهر رجب المُقَدَّس، ولدى سماع مُحَمَّدٍ الخبرَ تبرَّأ من هذا الإجراء على أنَّه انتهاك للحُرمات، ووضعَ الأسرى والغنائم في الحجز.

سُوْرَةُ البَقَرَةِ: 2/ 187: لكنْ لم يمضِ وقت طويل حتَّى جاء الأمرُ الإلهيّ يسوِّغ الاعتداءات، وحتَّى في الأشهر المُقَدَّسة، كونها أقلَّ خطورة من الوثنيَّة ومعارضة الإسلام، فأزال الوحي القلقَ. وبعد ذلك يمتلئ القُرْآن بالتحريضات على القتال لأجل الإيمَان، والإدانات المولعة بالحرب ضدَّ قُرَيْش.

إنَّ مُحَمَّداً يتّخذ الآن موقع الحاكم الثيوقراطيّ، والقُرْآن يوظِّف بحرِّيَّة لجعل أوامره عموميَّة. ما زال يُزعم أنَّ كلَّ كلمةٍ صادرةٌ من الإله، وأنّها موجَّهة إلى ممثِّله في الأرض. إنَّ الأوامر الرّوحيَّة تمتزج بالقضايا الأخرى، بيد أنّ الوحي صار أكثر فأكثر لسان حال حكومة النَّبيّ. إنَّ «الأوامر العامَّة» فيما يتعلَّق بالنّصر أو الهزيمة، توزيع الغنائم ومعاملة الأسرى، تشريعات القانون الجنائيّ والحقوق المدنيَّة، مراسيم الزواج، العبوديَّة، الطلاق، والوصايا، كانت تنزل لتنظيم الحياة والعلاقات الاجتماعيَّة، وامتيازات مُحَمَّدٍ العائليَّة الخاصَّة، تبدو أنّها اختلطت بشكل غير مميَّز مع التعاليم الدينيَّة في صفحات القُرْآنِ.

جرت أوَّل مواجهة عسكريّة مع قُرَيشٍ بعد حوالي ثمانية عشر شهراً من الهجرة، في بَدْرٍ. حيث واجه مُحَمَّدٌ برفقة جيشه المكوَّن من 305 من الأتباع (كان ثلثاه مكوَّناً من اليثربيِّين) قوَّةً أكبر منه بثلاث مرَّات عدداً؛ فتمكَّن من قتل عدد كبير من أعدائه، كما أسر العديد. وبذلك لم يرهب قُرَيْشاً فحسب، بل عزّز

(1) سُوْرَةُ البَقَرَةِ: 2/ 256؛ سُوْرَةُ النِّسَاءِ: 4 / 80.

بقوَّة موقعه كزعيم يَثْرِب.

سُوْرَةُ آلَ عِمْرَان (3) وسُوْرَةُ الأَنْفَالِ (8): كان في هذه المعركة برهان رسوليَّته الدامغ؛ ذلك أنَّه بفضل تدخُّل الإله، وبفضل المساعدة التي مدَّهم إياها بالمَلاَئِكَةِ ذوي العلامات الواضحة (﴿المُسَوِّمِينَ﴾) فإنّ النّصر قد تحقَّق. وبعد سنة تقريباً فإن قُرَيْشاً أخذت بثأرها. إذ تقدمت صوب المدينة بقوَّة مكوَّنة من 3000 مقاتل. فالتقاهم مُحَمَّد في موقع أُحُدٍ، وهو تلَّة تبعد ثلاثة

سنة 3 هجرية: أميال عن يَثْرِبَ، على رأس حوالي 700 من أتباعه فحسب؛ ذلك أنَّ صفوفه قد ضعفت بتخلّف عبد اللّه بن أُبيّ. وقد مُني في هذه المعركة بهزيمة ساحقة، وخسر سبعين رجلاً بما فيهم عمُّه حمزة؛ كما أنَّه نفسه أُصيب بجراح وفقد وعيه.

سُوْرَةُ آلَ عِمْرَان (3): ومع ذلك فإنَّ يدَ اللّهِ هي العليا دائماً. إنَّ الهزيمة كانت ضروريَّة لتمييز متخاذلي العزيمة من المؤمنين الصادقين، والنجاح، كما جرى من قبل في بدر، سوف يتحقَّق. وماذا لو كانَ مُحَمَّدٌ نفسه قد قُتل؟ إنَّ اللّهَ هو المسبِّب، وسوف يبقيه منتصراً على قيد الحياة. وبالتّالي بخطاب بارع، فإنَّ النّصر والهزيمة كانا خدمةً لقضيَّته.

بعد نصر بدْرٍ بقليل، فَإِنَّ تعارضاً نشأ بين مُحَمَّد وبني قَيْنُقَاع، إحدى القبائل اليَهُوْدِيَّة التي تقطن على تخوم يَثْرِب، فطوَّق حصنهم؛ فاستسلموا. وقد حُفظت أرواحهم حسب مناشدة حليفهم عبد اللّه بن أُبيّ، لكنّهم رُحّلوا للمنفى. وبعد ذلك بحوالي سنة ونصف السنة، فإنَ مُحَمَّداً وجد سانحةً للدخول في منازعة مع بَنِي النَّضِيرِ، وهي قبيلة يَهُوْدِيَّة أخرى، تسكن في ضاحية حسنة التحصين قرب بساتين تمر، وبعد أنْ حاصرهم لمدَّة ثلاثة أسابيع، فإنَّ مُحَمَّداً قبِل عرضهم بتسليم أراضيهم وحدائقهم إليه، والرحيل عن أراضيهم. إنَّ السُورة

التّاسعة والخمسين [الحَشْرِ، م.] مكرّسة لهذا الموضوع. إذْ سوَّغت للنّبيِّ خرق قوانين العرب الحربيَّة التي كانت تقضي عدم قطع وحرق أشجار النخيل، كما سُخر من الفريق الساخط لعجزه عن مساعدة حلفائه اليَهُوْد.

السنة 4 هجرية: في السّنة الرّابعة للهجرة لم تقعْ معركة فعليَّة. قام قادة الجيشيْن في معركة أُحُدٍ بتحديد موعدٍ للقتال، على أنْ يجري في سوق بَدْرٍ في العام التالي. وتوجه كلا الطرفين إلى الموقع. بيد أنَّ قُرَيْشاً المرهقة بالجفاف توقَّفت في الطريق وعادت من حيث أتت؛ بينما عسكرَ المسلمون تسعة أيام في النُّقطة المحدَّدة، واشتروا وباعوا في السوق. في السورة الثالثة [آلَ عِمْرَان، م.] عبَّر عن الرّضا الإلهيِّ بالنتيجة.

السنة 5 هجرية: في السّنة الخامسة وخلال سرية ضدَّ بَنِي المُصْطَلِق، قبيلة جاحدة، فَإِنَّ شجاراً نشب بين رجال من يَثْرِب ومهاجرين من مَكَّة. إنَّ كلماتٍ متبجِّحة قادت للتضارب،[1] فبدأ عبد اللّه بن أُبيّ يوبِّخ بسخرية أولئك الناس الذي جلبوا على أنفسهم هذا الدفق من الغرباء الوقحين؛ فقال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إلى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾،[2] فاستشعر مُحَمَّدٌ لدى سماع هذا التعبير الصّفيق خطر المشاعر الملتهبة، فأعطى أمراً لمسير طويلٍ وفوريٍ. وبعد ذلك جاءت السّورة الثّالثة والستُّون [المُنَافِقُونَ، م.] وتتضمَّن تأنيباً مرَّاً لِعبد اللّه وأتباعه المتذمِّرين.

---

(1) بعد نجاح الهجوم على بني المُصْطَلِقِ، وبينما كان جيش المسلمين متمركزاً قرب مورد ماء يُسمى المُرَيْسِيع، فإنَ أجيراً لعمر بن الخطّاب اشتبك مع حليف لبني عَوْف الخزرجيّ، فقام كلُّ واحدٍ منهما ينادي عصبيَّته، وهذا ما دفع عبد اللّهِ بنِ أُبيّ ليقول غاضباً: «لقد كاثَرْنا المهاجرين في ديارنا. واللّه ما أمْرُنا وإياهم إلّا كما قال الأوَّل: (سَمِّن كلبك يأكلك). أمَّا واللّه إنْ رجعنا إِلَى المدينة ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ»، م.

(2) سُوْرَةُ المُنَافِقُونَ: 63/ 8.

كانت هذه السنة لافتة بسبب من فضائح محدَّدة مرتبطة بحياة مُحَمَّد الأسريَّة. إذ كان لديه الآن خمس زوجات، إلاّ أنّ اثنتيْن منهنَّ كانتا التحقتا للتوِّ بحريمه، وبكلِّ الأحوال كان متيَّماً بمفاتن زوجة ابنه بالتبنِّي زيدٍ، الذي استبانَ الأمر، فطلَّقها، فصار بوسعها أن تتزوَّج بصديقه. وقد تردَّد مُحَمَّدٌ في أخذها زوجة له، ذلك أنَّها كانت تُعتبر قرابة محرَّمةً حسب الأعراف العربيَّة.

سُوْرَةُ الأَحْزَاب (33): بيد أنَّ الهوى كان لا يُكبت؛ وفي النّهاية فإنَّ وحياً جاء، فُزِّعُ فيه خوفه البشريّ؛ فأرسى قاعدةَ بأنَّ التبنِّي لا يشكِّل قرابة فعليَّة، ولكي: ﴿لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾.[1] وبهذا فإنَّ النَّبِيّ اقترن بزينب.

بعد أشهر قليلة فإنَّ قضيَّة دقيقة أخرى جرت، بيد أنَّها من طبيعة مختلفة، ففي إحدى سراياه الكثر. والتي كانَ مُحَمَّدٌ يصطحب فيها زوجة أو أكثر من زوجاته، وهي الحملة ضد بني المُصْطَلِق، وعندما كانت الحملة تقترب من خاتمتها ولدى أوبته، فإنَّ خيمة ومحفَّة عائِشَة حُملا بدون اكتراث، بينا كانت هذه غائبةً لبعض الوقت، ولدى عودتها فإنّها وجدت نفسها في الظلمة وحيدةً تماماً. وإذْ كانت تتوقع بأنَّ الخطأ سيُكتشف، فإنّها جلست تنتظر النجدة، وفي غضون ذلك، مع بعض التأخُّر، وصلَ أحدُ الأتباع،[2] فوجدها في ورطتها، فعرض عليها ركوب جمله، ثُمَّ إنَّه قادها إلى يَثْرِب. ولدى مرأى ذلك، فإنَّ الأهالي قاموا باستنتاجات شرِّيرة. ومُحَمَّد نفسه اعتزل عائِشَة، فانكفأت هي إلى بيت الأب.

انقضت عدَّة أسابيع على هذا المنوال، وفي الختام أخبرت السماءُ مُحَمَّداً براءتها؛

(1) سُوْرَةُ الأَحْزَاب:33/ 37.

(2) هو صفوان بن المُعَطَّل السُّلَمي، م.

سُوْرَةُ النُّورِ (24): وسُنَّ قانون يطلب أربعة شهود عيان لإثبات تهمة الزّنى؛ وفي حال الفشل فإنَّ التهمة ستلقى عقوبة بوصفها قذفاً. وأُرجعت عائِشَةُ، ولقي متَّهموها عقوبة الجلد.

وفي هذا الوقت فإنّ أوامرَ محدَّدة صدرت تفرض الحجاب على النّساء لدى خروجهنّ من المنزل. وهذا كان أكثر إلحاحاً في حالة زوجات النَّبِيّ، اللّواتي هُدِّدن بمضاعفة العقوبة في حال أتين بِفَاحِشَةٍ؛ فهنَّ لسنَ كَأَحَدٍ مِنَ النسَاء، كما طُلب منهنَّ أَلّا يَخْضَعْنَ بِالقَوْلِ ﴿فَيَطْمَعَ الذي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ[1]﴾؛ وفي الختام، فإنَّ غيرة مُحَمَّد قد هدأت بالوصيَّة بأنّهنَّ لا يجب أن يتزوَّجن ثانياً، ولا بعد موته.

سُوْرَةُ الأَحْزَاب (33): إنَّ الإلزامَ المفروض على المؤمنين بأنَّ عليهم معاشرة زوجاتهم المتعدِّدات بمساواة، كان مخفَّفاً من قوَّته لصالح النَّبِيّ.

ومع اقتراب نهاية السَّنة نفسها فإنَّ قُرَيْشاً، بجيش من أربعة آلاف مقاتل، زحفت صوبَ يَثْرِب مجدَّداً. فقرَّر مُحَمَّدٌ عدم المجازفة ثانيةً بالاشتباك خارج المدينة، فقام بتحصين موقعه بخندق عميق، وقام بمواجهة العدو من ورائه. وعلى مدى خمسة عشر يوماً من الحصار الذي كان ضاغطاً بشكل مرعب للغاية ومهدِّداً لِيَثْرِبَ، عندها قام جمع مرهق ومتضايق من وطأة الطّقس، بالرحيل فجأةً. فبدأ مُحَمَّد يلقي درعه جانباً، عندها جاءه الملاك جِبْرِيل، فقال: «يا محمَّد أوضعتم أسلحتكم؟»، ثم أضاف: «ما وضعتِ الملائكة السلاح... إنَّ اللَّهَ يأمرك يا محمَّد بالمسير إلى بني قُرَيْظَةَ». وقد كانت هذه هي القبيلة اليَهُوْدِيَّة الوحيدة الباقية في الجوار. لقد اتُّهمت بأنّها استمعت إلى عروض قُرَيْش، وحُوصرت من قبل جيش المسلمين. وبعد أربعة عشر يوماً، أصيبوا

(1) سُوْرَةُ الأَحْزَاب: 33/ 32.

بيأس كبير، فاستسلموا بدون شروط. فقام المسلمون بقطع أعناق الرجال البالغين في مجموعات، الواحدة تلو الأخرى، برقم يتراوح ما بين 600 إلى 800؛ وأما النّساء (وقد احتفظ النّبيّ بواحدة منهنّ لنفسه) والأولاد، فإنّهم بيعوا كأرقّاء. وتعالج السّورة الثالثة والثلاثون [الأَحْزَاب، م.] هذا الحدث، حيث حُذِّر الأهالي من جبن «المنافقين»، وأُعتبر أنَّ الحكم الصادر بحقِّهم من اللّه، وفي السّورة وصفٌ لإبادة اليَهُوْد.

السنة 6 هجرية: في السّنة السّادسة للهجرة فإنّ مُحَمَّداً فكَّر بمشروع زيارة مَكَّة سلميّاً عبر تأدية شعائرالحجّ، وقد استجاب عددٌ قليلٍ من الحلفاء البدو للدعوة. وبالرغم من ذلك، اكتسى الموكب بزيِّ الحجِّ، وكان عددهم 1500. لكنَّ قُرَيْشاً، المرتابة بالمخطَّط، رفضت دخولهم؛ ولهذا فإنّهم خيَّموا خارج التخوم المُقَدَّسة، في الحُدَيْبِيَّة، وبعد مفاوضات متطاولة، وُقعِّت هدنة. وقد عُلِّقت الأعمال الحربيَّة لمدَّة عشر سنوات؛ وأعطيت القبائل حقَّ الدخول في عهد مُحَمَّد؛ ومُنحت حريَّة الدخول في عهد مُحَمَّدٍ لمن شاء من العرب. وكان على الحجَّاج العودة من فورهم دون دخول مَكَّة، بيد أنّه أتّفق على السَّماح لهم بأداء الحجِّ في السنة التالية. وخلال المفاوضات، فإنَّ عثمان كان قد ذهب رسولاً لقُرَيْش، وإذْ تأخَّرت عودته، فإنَّ شائعة انتشرت بأنّه غُدر به. فتجمَّع الحجاجّ حول النَّبِيّ، وعندما كان واقفاً تحت شجرة السّنط، فإنّهم بايعوا بأنفسهم بحماسة للوقوف إلى جانب صهره. والمشهد المثير عُرف بـ «بيعة الشجرة»، وإلى هذا أشارت السّورة الثامنة والأربعون: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ[1]﴾. وفي نفس السّورة فإنَّ الهدنة سُمِّيت: ﴿فَتْحاً مُّبِيناً[2]﴾؛ وبالفعل كانت الهدنة نَصراً حقيقيّاً لمُحَمَّد، ذلك أنّه اعتُرِفَ

(1) سُوْرَةُ الفَتْح: 48/ 18.

(2) سُوْرَةُ الفَتْح: 48/ 1.

به على أنَّ له قوَّة مساوية ومستقلَّة. بيد أنَّ أتباعه كانوا كارهين للهدنة؛ فهدًأ من سخطهم بوعْدِهم بفتح قريب وغنائم وافرة في مكان آخر، وتمَّ هنا استثناء الأعراب المتخلِّفين كعقوبة قاسية على تقاعسهم.

سُوْرَةُ المُمْتَحِنَةِ (60): وفي سورةٍ أخرى، والتي نزلت في هذه الفترة تقريباً، فإنَّ مُحَمَّداً حُذِّر من الولاء والمودَّة مع الكافرين. كما أنَّ القواعد وُضعت لمعاملة النّساء المهتديات اللّواتي يأتين من مَكَّة؛ وأُلغيت رابطة الزواج بين المؤمنين وزوجاتهم غير المؤمنات اللّواتي بقين في مَكَّة، وسمح بأن تُعوَّض بائنة الأولى عن الأخرى.

السّنة 7 هجرية: بعد أشهر عديدة فإنَّ الوعد بالفتح تحقَّق بوفرة عبر الحملة ضد يَهُوْد خَيبر، والذين تقع أراضيهم على بعد عدَّة أيَّام شمال مَكَّة؛ هناك حصل مُحَمَّدٌ على غنائم وافرة وأراضٍ واسعة له ولأتباعه. وقد مرّت السّنة السَّابعة للهجرة بخلوٍّ من الأحداث، وفي الختام فإنَّ الحجّ المؤجَّل أُدِّي بسلام حسب الاتفاق المبرم.

السنة 8 هجرية: في السّنة الثّامنة، جرى فصل جديد في حريم النَّبِيّ، وأعطى مناسبةً لآيات لافتة مثل تلك التي تنزَّلت بشأن زينب. إذْ كانَ مُحَمَّدٌ قد أرسل قبل ذلك بعام مبعوثين لدعوة ملوك الأرض للإيمان الحقّ. ولم يتلقَّ من أيِّ واحدٍ منهم جواباً مرضياً، باستثناء المقوقس، حاكم مصر، الذي أرسل جاريتَين ضمن هدايا أخرى، واللّتيْن كانتا أختيْن، وحسب القانون الإسلاميِّ فإنَّ إحداهما كانت تحلُّ له، فاختار ماريَّة. وفي السنة التّالية أنجبت له ولداً، سرعان ما مات في طفولته. وقد أثار ولعُ مُحَمَّدٍ بالجارية القبطيَّة استياءَ زوجاته الأخريات، والتي فجاءته إحداهنَّ في غرفتها الخاصَّة مع ماريَّة؛ فقدَّم عهداً بأنْ يحرِّمَ على نفسه عشرتها إنْ أبقت المسألة طيَّ الكتمان. لكنْ لمْ يكن بالوسع إخفاء الفضيحة، ووجد مُحَمَّدٌ نساءَه باردات لا يحملن الودّ؛ فاعتزلهنّ.

وعلى مدى شهر عاش مع ماريَّة فقط. وقد جاءه وحيٌ حول هذه الحادثة، يوبِّخه لأنَّه حرَّم على نفسه ما يحلُّ له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ[1]﴾، كما سمح له الوحيُ بالتحلُّل من قَسَمِه، وأنْ يهدّدَ الزوجات بغضب اللّه والبشر، وأضاف: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ: مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً[2]﴾. وليس لدينا من الوسائل لمعرفة إنْ كانَ مُحَمَّدٌ أراد الاحتفاظ بأمثال هذه الآيات في القُرْآن؛ لكنْ بكلِّ تأكيد لا يوجد في الحديث ولا في القُرْآن نفسه، ما يمكن أن يقود إلى الافتراض بأنَّه كان خجِلاً من هذا الضعف والتحرُّر اللذين ظهرا من هذه الوقائع، أو حتَّى أنَّه كانَ يشعرُ بإحراجٍ من الخزي الذي لحق به.

في هذه السَّنة، تلقَّت قوات مُحَمَّد هزيمة منكرة في مُؤْتة، على الحدود السوريَّة، حيث قُتل صديقه زيد. وعلى أيِّ حالٍ، فإنَّ أفقاً واسعاً ظهر أمام الإسلام؛ إذْ أنَّ خرقاً غير مباشر للمعاهدة من جانب قُرَيْش قابله مُحَمَّدٌ بتوقٍ، فخرج على رأس عشرة آلاف مقاتل ليدخل مَكَّة فاتحاً. وإذْ عامل المدينة المغلوبة بتجمُّل وسماحة رائعَيْن؛ فإنَّ جميع قاطنيها ناصروا قضيَّته؛ وفي غضون عدَّة أسابيع سنجد أنَّ زعماءَ قُرَيْش الذين كانوا ذات مرة أعداء لدودين قد زحفوا تحت راية مُحَمَّدٍ.

كانت القبائل البدويَّة المجاورة أكثر استعصاءً. فتمركزوا سريعاً عند الطَّائِف؛ حيث دار الاشتباك في وادي حُنَيْنٍ. كانَ القتال ينذر بعواقب خطيرةٍ على صفوف مُحَمَّد، إذْ بينما كانوا يسيرون في رتلٍ عبر ممرٍّ ضيق، وقعوا في فوضى نتيجةً لكمين العدوِّ الذي هاجمهم بشكلٍ عاصفٍ. وقد احتشد

(1) سُوْرَةُ التَّحْرِيم: 66/ 1.
(2) سُوْرَةُ التَّحْرِيم: 66/ 5.

المسلمون لدى النداء، الذي لامس عاطفة مزدوجةً: «يا أصحاب سُورَةُ البَقَرَةِ! يا أهل بيعة الرّضوان!».(1) فردّوا البدو على أعقابهم، وحازوا نصراً تامًّا، إضافةً لغنائم عظيمة. وبعد محاولة فاشلة للاستيلاء على الطّائِفِ بالحصار، فإنَّ مُحَمَّداً وزَّع الغنائم، وتوجَّه إلى مقرِّه. ومن أجل كسب قلوب زعماء مَكَّةَ، فإنَّه منحهم عطايا خاصَّة وكبيرة لدى قيامه بتوزيع الغنائم، وهذا ما أثار تذمُّر الأتباع الأقدم، وقد تمكّن من تهدئة خواطرهم بتأكيد احترامه، وبعزمه عدم ترك يَثْرِب أو العودة إلى مَكَّة للعيش فيها. وفي السورة التاسعة [التَّوْبَة، م.] سُوِّغَ التطبيق الخاصُّ للغنائم، وكذلك صور الرعب في حُنَيْنٍ، وعُزِي النجاح النّهائي إلى مساعدة الملائكة.

السنة 9 هجرية: ألقت قوَّة مُحَمَّدٍ بظلالها الآن على شبه الجَزِيْرة العَرَبِيّة، وعُرفت السّنة التّاسعة للهجرة بـ «عام الوفود»،وهي التي جاءته من كلِّ حدب، لأجل الإقرار بسيادته، وتلقِّي التعليمات لشروط الإسلام: الصلاة، الزكاة، والصِّيَام. وقد كان بعض الزوَّار أبناء صحراء وَعِرِي الأخلاقِ؛ ولدى وصول إحدى مجموعاتهم بابه، فإنّهم نادوا مُحَمَّداً بصوتٍ عالٍ كي يخرج إليهم. ومُحَمَّدٌ وهو رجل هادئ ومعتزٌّ بنفسه، دعْ عنك أنَّ لديه تقديراً جديراً لكرامته، لم ينظر إلى هذه الحادثة على أنّها تافهة؛ لذلك فإنَّه أُمِرَ في التّنزيل (السورة التاسعة والأربعون، الحُجُرَاتِ) بوجوب مخاطبة النَّبِيّ بنبرة أكثر لطفاً وخضوعاً.

في صيف هذا العام جرت حملة تَبُوك، وهي آخر حملة قادها مُحَمَّدٌ. وكانت تهدف إلى إرهاب القبائل السوريّة، والتي كانت حُرِّكت من قِبل السُّلطة الرومانيَّة للاحتشاد على الحدود. إنَّ الفريق الضعيف الهمَّة في يَثْرِب، وحتَّى بعضاً من

(1) سُوْرَةُ البَقَرَةِ، السّورة الثّانية، وهي الأولى في ترتيب النزولِ في يَثْرِبَ. و«أصحاب الشجرة»، أيْ الحُدَيْبِية.

أتباع مُحَمَّدٍ المخلصين، كانوا يخشون الحرب ومشقّات المسير، فتخلّفوا، بينما أظهر البعض أشدَّ درجات النشاط، فساهموا بشكل واسع بتجهيز العساكر.

سُوْرَةُ التَّوْبَةِ (9): وبعد حملة ناجحة، حيث قدَّم عدَّة رؤساء مَسِيحِيِّين ويَهُوْد خضوعهم، فإنَّ مُحَمَّداً عاد وألقى خطبةً لاذعة ناقمة ضدَّ المتمارضين، الذين سبَّبوا بغيابهم بذرائع زائفةٍ الغضب الإلهيَّ. وأمَّا أولئك الذي اعترفوا صراحة بذنبهم، فإنهم عُوملوا بلين أكثر، وأما «البكَّاؤون» فهم المؤمنون الفقراء الذين تفجَّعوا على عجزهم عن تجهيز أنفسهم للمسير، فإنّهم ذكروا بمديح خاصٍّ.(1)

إنَّ سُخطَ مُحَمَّدٍ اتَّقد في نفس الفترة تقريباً ضدَّ فريق قام ببناء مسجد في الضواحي، بغاية انشقاق. ولم يؤمرْ مُحَمَّدٌ بهدم البناء فحسب، بل إنَّه وصم بُنْيَانَهُ بأنَّه أُسِّسَ: ﴿عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ(2)﴾. على أيِّ حالٍ كان للزمرة المتمرِّدة القليل من التأييد في يَثْرِبَ، وبعد موتِ عبد اللّه بن أُبيّ بقليل، فإنّها اختفت كليَّاً عن مسرح الأحداث.

في هذا السنة، فإنَّ الطَّائِفَ قدَّمت آيات الخضوع، ولم يكن بعد الآن من معارضة في الجزيرة. وعلى هذا، لمَّا اقتربَ شهر الحجِّ، فإنَّ مُحَمَّداً أرسل عليّاً ليلقي على الحجيج «البراءَة»، ووفق ما جاء فيها فإنَّه بعد أربعة أشهر فإنَّ النَّبِيّ يتحرَّر من كافَّة العهود الأخرى، وأُمر بشنِّ الحرب على الكافرين الذين لم يعتنقوا الإسلام. ولم يعد لأحدٍ، ما عدا المسلمين، حقُّ الاقتراب من

---

(1) البكَّاؤون: يذكر ابن إسحٰق إنّهم سبعة من اليثربيين ويعدِّد أسماءَهم. ويُشار إليهم في القُرْآنِ: ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ، تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً، أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ سُوْرَةُ التَّوْبَةِ (9/ 92)، م.

(2) سُوْرَةُ التَّوْبَةِ (9/ 109).

المسجد الحرام، ولا ينال (كما أعلن) الكافرون الجنَّة.[1]

في الحقبة المتأخرة من حياةِ مُحَمَّدٍ فإنَّ انتباهاً أقلَّ أُولي بشأن اليَهُوْد أو بشأن المَسِيحِيِّين. فهو لم يتلقَّ منهم التأييد المعنويَّ الذي توقَّعه؛ وبالفعل فإنَّ هدفه قد أُحرز، ولم يعد من حاجة لدعمهم بعد الآن. وفي هذه المرحلة، ومع غياب الاهتمام بهم، فإنَّ موقفه نحو المَسِيحِيِّين صار غير ودِّي؛ ونحو اليَهُوْد غدا مرّاً. وقد وصل إليه في يَثْرِبَ وفدٌ مَسِيحِيٌّ من نجران، برئاسة أُسقفٍ، ودخل في جدلٍ مع النَّبِيّ. وعندما ازداد النقاش حدَّةً؛ فإنَّ مُحَمَّداً تحدَّى خصومه بوضع القضيَّة تحت امتحان القسم: ﴿تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ[2]﴾.

سُوْرَةُ آلِ عِمْرَان (3): إنَّ هذا التحدِّي الغريب سُجلَّ في القُرْآن. وفي الختام فإنّ مُحَمَّداً أُمر بمحاربة ﴿أَهْلَ الكِتَابِ﴾ العصاة. وهم اليَهُوْد والمَسِيحِيُّون ﴿حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ[3]﴾. وأُنزلت اللّعنة على كلا الفريقيْن لأنّ اليَهُوْد قالوا:

سُوْرَةُ التَّوْبَةِ: 3/ 29 ـ 35: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ؛ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الذين كَفَرُواْ مِن قَبْلُ[4]﴾، ولأنَّهم:

---

(1) إنّ البند الأخير.(وكذلك تحريم الطّواف حول الكعبة عراة) لم يظهر في السورة التّاسعة فحسب، بل يرد في بعض الآيات الأخرى، مثل سُوْرَةِ آلِ عِمْرَان (3/ 85)، وسُوْرَةِ الفَتْحِ (48/ 12). وكان ذلك ـ وهو أمر لا أحتاج إلى إضافته ـ تناقضاً مباشراً مع تعاليم مُحَمَّدٍ الباكرة.

(2) سُوْرَةُ آلِ عِمْرَان: 3/ 61.

(3) سُوْرَةُ التَّوْبَةِ: 9/ 29.

(4) سُوْرَةُ التَّوْبَةِ: 9/ 30.

﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ، وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ[1]﴾. وإذا كان ورد ذكر الأحبار والرهبان من قبل بشكل طيِّب، فإنّهم الآن: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالذين يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيم. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ[2]﴾. أمّا بشأن الكُتب نفسها، فإنّ مُحَمَّداً لم يذكر كلاً من العهد القديم والجديد، من أوّل أمره إلى خاتمة مطافه، إلّا باحترام وتوقير عميقَين.

إنَّ حياةَ مُحَمَّدٍ قد اقتربت الآن إلى نهايتها، عندها اصطحب زوجاته في السنة العاشرة للهجرة، برفقة عدد واسع، حيث أدى «حِجَّة الوَدَاع»[3]، ذات الشّعائر المجرَّدة الآن من كلِّ علاقة وثنيَّة. ففي جبل عرفات المُقَدَّس، فإنَّه تلا آيات محدَّدة، والتي تنتهي بالآية الثالثة من السورة الخامسة [المَائِدَة، م.]: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، ولدى عودته إلى يَثْرِب فإنَّه حثَّ النَّاس على أداء واجباتهم المختلفة: الاجتماعيَّة، الأسريَّة؛ وأعلن مساواة كلِّ مؤمنٍ مع أخيه، وقدسيَّة الحياة والملكيَّة. وفيما بعد تلا آيات من السورة التاسعة، التي نسخت «النسيء».[4] كما حذّر من غواية الشياطين، الذين سيسعون إلى ضلال المؤمنين وحتّى في المسائل التّافهة والعديمة الأهميَّة، وقد ختم: «لقد أتممت لكم رسالتي... وقد تركتُ فيكم ما إنْ اعتصمتم به فلن تضلّوا أبداً، أمراً بيِّناً، كتابَ اللّه وسنَّة نبيِّه».

سنة **11** هجرية: وبعد ثلاثة أشهر فَإنَّ مُحَمَّداً سقط مريضاً؛ وفي الثّامن من حزيران (يونيو)، سنة 632 م، لفظ أنفاسه، وله من العمر ثلاث وستّون سنة.

---

(1) سُوْرَةُ التَّوْبَةِ: 9/ 31.

(2) سُوْرَةُ التَّوْبَةِ: 9/ 34ـ35.

(3) جرت حِجَّة الوَدَاع في ذي الحجَّة 10 هـ / آذار (مارس) 632 م، م.

(4) [سُوْرَةُ التَّوْبَةِ: 9/ 36ـ37، م.]

الفصل الثّاني

جمع وترتيب القُرْآن

في حياة مُحَمَّد لم تجرِ محاولة لجمع الآيات الوفيرة التي يتألَّف منها القُرْآن في كتاب واحدٍ. فكانت الآيات تدوَّن من قبل صديقٍ أو تابع يؤدِّي مهمَّة الكاتب حين إلقاء الآيات من وقتٍ لآخر، أو كانت تودع الذاكرة في البدء وفي زمن لاحق بعض الشيء دُوِّنت. ولهذه الغاية فإنّه استُعملت موادُّ بدائيَّة كان يستعملها العرب، مثل سعف النخل، الجلود، ألواح الحجر، أو كتف الماعز أو الجمال. لَم يكنْ ثمَّة من ترتيب منهجيٌّ لهذه المواد. وكان يوجد فعليًّاً سُورٌ مميَّزة؛ ومن المحتمل أنَّ الجزء الأكبر من الوحي كانَ مرتَّباً خلال حياة النَّبِيّ، ومتداولاً في هذه الصيغة لأجل القراءَة الخاصَّة، ولأجل التلاوة في الصلوات اليوميَّة.(1) وبعضُ السّور كان قصيراً، ومنفرداً؛ وكانت أخرى، أكثر طولاً، وفي أوقاتٍ مختلفةٍ كان يُضاف إليها حسب أمر مُحَمَّد، الذي كان يأمر بوضع آيةٍ محدَّدة في سورة ما. ولم يكن ثمَّة من مكان خاصٌّ لهذه المواد؛ لكنَّ لدينا سبباً للاعتقاد أنَّ الجزء الأكبر، وعلى الأقلّ السُّور الأكثر أهميَّة، كانت محفوظةً في سكنى إحدى زوجات النَّبِيّ (الذي لم يكن له غرفةٌ مستقلّة أو دار إقامة خاصَّة به)، أو أنَّه ترك في رعاية الكُتَّاب أو مَنْ دوَّنوا في البدء. وعلاوة على ذلك، فإنّه استُودع بتوقير ورع في ذاكرة النّاس؛ وإنَّ نسخ العديد من

(1) تعني «السّورة» الصف، السلسلة، مثل نسقِ القرميد في حائطٍ.

السّور أو الأجزاء، سِيَّما تلك الأكثر تلاوةً لدى المناسبات المعتبرة، ومن أجل العبادة العامَّة أو الخاصَّة، كانت وحتَّى قبل الهجرة بحيازة أشخاص كثر، قد حُفظت بعناية دينيَّة وحتَّى مفرطة. وما إنْ انتشر الإيمَان، فإنَّ المعلّمين أُرسِلوا إلى مختلف القبائل في أنحاء الجَزيْرة العَرَبيّة لتعليم المُهتدين الجدد قواعد الإسْلام؛ وقد حمل هؤلاء معهم الآيات الأساسيَّة إمَّا في صيغةٍ مسجَّلةٍ أو عن ظهر قلبٍ بشكلٍ لا يُمحى (إذْ كانَ العرب يملكون حافظة ذات قدرة مذهلة).

كان ذلك هو حال الأشياء لدى وفاة مُحَمَّد، وقد بقيت كذلك على مدار سنة. وبعد معركة اليَمَامَةِ، والتي قُتل فيها العديد من قرَّاء القُرْآن، فإنَّ خطر ترك الوحي في هذه المجموعة المضطَّربة أصبح ماثلاً بقوَّة في ذهن عمر، الذي ذهب إلى الخليفة أبي بكر، وقال له: «إنَّ القتلَ قَد استحرَّ بالقرّاءِ، وإنِّي أخشى أنْ يستحرَّ القتلُ بالقرَّاء في سائرِ المواطن فيذهب القرآنُ، وقد رأيت أنْ تجمعوه». وقد تفّهم أبو بكرٍ حكمة هذه النّصيحة؛ فعين زيدَ [بنَ ثابت]، رئيس كتبة النَّبِيّ، لهذه المهمة؛ وبهذا فإنَّ زيداً بحث عن مختلف سور وأجزاء القُرْآن في كلِّ مكانٍ، فجمعه «من الرّقاع والعسب واللّخاف[1] وصدور الرّجالِ». وإذْ حُرِّرت مخطوطة القُرْآن على هذه النّحو، فإنّها سُلِّمت لحفصة، إحدى أرامل النَّبِيّ، من أجل حفظها، وقد بقيت النصَّ المعياريّ خلال عشر سنوات من خلافة عُمَرَ.

بيد أنَّ تفاوتاً مختلِف الدرجات دبَّ في نسخ عديدة من هذا الجمع، فاقتنع الخليفةُ عثمان بضرورة تطبيق معالجة واضحة. فعيَّن زيداً لتنقيح عمله السابق؛ وكانت الاختلافات بشكل رئيس في اللهجة والعبارة، ولهذا سُمِّيَت مجموعة من ثلاثة قُرَشِيِّين ثقةٍ للعب دور قضاة نهائيِّين في القضيَّة. فبُحث عن مختلف القراءات في جميع أقاليم الإمبراطوريَّة، حيث تمَّ الجمع الجديد في صيغة لغة

(1) اللّخاف: الحجارة، م.

قُرَيْش الصافية التي كان مُحَمَّد يتلو بها وحيه. وضوعفت النسخ، وأُرسلت إلى المدن الرئيسة بوصفها المراجع المعياريَّة. وجُمعت كلُّ النسخ السابقة، وأُحرقت. إنَّ تنقيح زيدٍ تداولته الأيدي بثباتٍ. والتُزم به بحرص شديد، وبهذا ليس ثمَّة إلّا قرآنٌ، ونفس القُرْآن قيد التداول في تخوم العالم المُحَمَّديّ الواسع، وإنَّ القراءات المختلفة غير معروفة تقريباً، وقد انحصرت الاختلافات القليلة في صيغ أحرف الصوت والنقاط اللهجويَّة، والتي اختُرعت في عهدٍ لاحقٍ، ولا تشكِّل جزءاً من الأصل، أو من تدوين زيدٍ.

وثمَّة ضمان كبير بأنّ عملَ زيدٍ أُنجز بإخلاصٍ؛ وبالفعل، فإنَّ قبولَ القُرْآنِ من قِبل عليٍّ وشيعته، أعداءِ عثمانَ العاثر الحظِّ، هو الضمان الأوثق على أصالته. ومن الممكن أنَّ بعضاً من الأجزاء الأبكر القصيرة الأجل، والتي تلاها مُحَمَّدٌ قد هُجرت قبل موته، وعلى هذا فإنّها بقيت خارج الجمع؛ لكنَّ التوقير الورع الذي نظرَ من خلاله مجموع المسلمين في البدء إلى الوحي على أنّه كلمة اللّه، والتقوى التي استودعته الذاكرة، والمعطيات بأنَّ النسخ وُجدت حتَّى في عهد رسالة مُحَمَّد المبكرة، وحقيقة أنَّ جمعَ زيدٍ خرج بسرعة وبشكلٍ غير مفنَّدٍ ـ إنَّ كلَّ ذلك لا يترك شكّاً في الذّهن بأنَّ القُرْآن الذي نقرؤه اليوم يحتوي على نفس الكلمات التي ألقاها النَّبيّ.[1]

بيد أنَّ ثمَّة معضلةً في القُرْآنِ، فنحن لسنا متأكِّدين قطُّ من السياق. فبينما بعض السُّور، لا سِيَّما القصيرة، والأجزاء الغنائيَّة والقصصيَّة هي أكثر أو أقلُّ كمالاً، يفترض أنّها مدوَّنة في صيغة تلاوتها أوَّل مرة، فإنّه يسود عبر مجموع العمل إهمال كلّيٌّ للتعاقب الزمنيّ. فليس ثمَّة فواصل وفراغات مريعة فحسب، بل إنَّ الآيات المتأخِّرة تسبق الأولى بشكل ليس بالنادر. إنَّ الآيات جُمعت

(1) عُرض الموضوع بتفصيل كبير في الفصل الأوّل من مقدِّمة كتاب «حياة مُحَمَّد»، والَّذي نُشر كملحق في الطّبعة الثّانية.

ببساطة ساذجة. وكان يُكره إخضاع الموادّ للفحص البشريّ لقداستها، وعلى هذا فلدينا هذه الكتلة المتشابكة. فسيفساء من الأجزاء التي جُمعت بشكل بدائيٍّ واتّفاقيٍّ بحيث أنَّ التصميم هو على الأغلب مشوَّه ولا يمكن فهمه.

في عمل يمتدُّ على مدى سنوات عديدة، ومؤسَّسٍ على أحداث يوميَّة متغيِّرة، ويحمل بشكل جليٍّ جدّاً تأثير العقل الحيِّ، فإنَّه يجب بحث المتناقضات، وهي بالتأكيد لا تنقص القُرْآن. إنَّ التنافر والتناقض يتعارضان مع فكرة الوحي الإلهيِّ، رغم أنَّه يمكن أنَّ أمراً وضعيّاً قد حُذف أو عُدِّل. وعندما يكون هناك آيتان متعارضتان، فإنَّ المفسرين يرون بأنَّ الأقدم منسوخة بالمتأخِّرة، وفق النّص: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ، أَوْ نُنسِهَا، نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا[1]﴾.

بينما مكوِّنات كلِّ سورةٍ مختلَّة بسبب ذلك في السياق، إنْ كانَ فيما يخصّ الزمن أو الموضوع، فإنَّ السُّور تتوالى الواحدة تلو الأخرى بدون قاعدة مهما كانت، باستثناء الطول؛ حيث وُضعت الأطول في البدء، ثمَّ الأقصر، وهكذا إلى أنْ يُختم الكِتَاب بأقصر السُّور. وبما أنَّ السّور الأقصر، حسب القاعدة، تعود إلى الحقبة الباكرة من رسالة مُحَمَّد، والأطول إلى الحقبة المتأخِّرة، فَإِنَّ الترتيب هو عكس مباشر للنظام الطبيعيِّ، لدرجة أنَّ القارئ، الذي سيُباشر من نهاية القُرْآن، ويقرؤه بالعكس نحو البداية، فإنَّه سيحصل على تصوُّر أكثر دقَّةً للتعاليم التي بدأ بها مُحَمَّد نبوَّته، وكذلك الأطوار التي كان يرتقيها الإسلام نحو تطوُّره الكامل، أكثر ممَّا لو شرع به من الصفحة الأولى.

إنَّ أيَّ محاولة لترتيب السُّور في نظام تاريخيٍّ دقيقٍ هو في أحسن الأحوال تقريبيٌّ؛ إلَّا أنَّ ثمَّة معالم، سترتكز عليها بعض المحدَّدات. الأولى، الجموح والعاطفيَّة في العهد الأوَّل، النثريَّة والقصصيَّة في الثاني، السلطويَّة والآمرة في

(1) سُورَةُ البَقَرَةِ: 2/ 102.

الأخير. وفيما بعد يُلاحظ تطوُّر المذهب والقانون؛ والإدلاء بالحجَّة، بغضِّ النّظر إنْ كانت موجَّهة لوثنيّي مَكَّة أو لليَهُوْد أو المَسِيحِيِّين؛ أو إلى أهالي يَثْرِب الناقمين؛ أو إلى المؤمنين المظلومين المضطهدين، أو إلى نفس المؤمنين المقاتلين والمنتصرين. وفي النهاية، ثمَّة إشارات واضحة إلى معالم تاريخيَّة، فيها معطيات معيَّنة، تعيِّن زمن النظم. في الجانب الآخر، فإنَّ جزءاً كبيراً ـ لا سيما جميع السُّور الطويلة ـ مكوَّنة من أجزاء تعود إلى عهود مختلفة من حياة النَّبِيّ، وغالباً ما يحدث بأنَّ السُّور ذات هذا الطّراز من الإنشاء لا يمكن عزوها بالكامل إلى أيِّ عهدٍ محدَّد؛ وهذا الأمر ينطبق حتَّى على السُّور التي تُصنَّف بحقٍّ أنَّها سورٌ مدنيَّة، فكثيراً ما نصادف فيها آيات تعود إلى عهد بعيداً جدّاً في مَكَّة، والعكس بالعكس. كذلك سيكون مفهوماً أنَّ هناك أجزاءً كثيرة من القُرْآن، ليس لها أيُّ سمات فعليَّة، ولا يمكن عزوها إلى عهد محدَّد لغياب أسس كافية لذلك، وبالتالي، يبقى الترتيب حسب افتراض كيفيٍّ محض.

في الصّفحات التّالية، فإنَّ السّور التي تبلغ من العدد (114) رُتبت حسب أفضل حكمي؛ وبينما يمكن أنْ يكون الترتيب العامُّ مقبولاً بوصفه بُنِيَ على أسس كافية، فإنَّه من الملاحظات السابقة بالوسع استنتاج أنَّ ـ مع بعض الاستثناءات لعهود محدَّدة ـ مساحةً معتبرةً يتوجَّب إفرادها لتعيين مكان السُّور المنفردة.

التّرتيبُ التّاريخيُّ التّقريبيُّ للسُّورِ

العهد الأوَّل: ثماني عشرة سورة:

103؛ 100؛ 99؛ 91؛ 106؛ 1؛ 101؛ 95؛ 102؛ 104؛ 82؛ 92؛ 95؛ 89؛ 90؛ 93؛ 94؛ 108. وهذه هي جميع السُّور الحماسيَّة، وبعضها مُؤلَّفٌ من سطرٍ أو اثنين. وربَّما قد نُظمت قبل أنْ يكونَ لدى مُحَمَّدٍ تصوُّرٌ عن الرسالة الإلهيَّة، أو نزول الوحي إليه مباشرةً من السّماء، وليس لأيٍّ منها صيغة رسالة من الإله.

العهد الثّاني: استهلال نبوّة مُحَمَّدٍ:

السُّورة 96 [العَلَق]. تتضمَّن الأمر: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ[1]﴾، وحسب الأحاديث فإنَّها كانت السُّورة الأولى نزولاً، بعد انقضاء الفترة التي كان فيها الوحي متوقِّفاً.

السُّورة 113 [الفَلَق]. وهي مكوَّنة من خمس آيات قصار تتعلَّق بوحدة وأزليَّة الإلهِ. وليس فيها ما يشير إلى زمنها الدقيق؛ لكنَّها تبتدئ بقول: ﴿قُلْ﴾، ولهذا فإنَّها يجب أن تكون بعدما افترض مُحَمَّدٌ أنَّه ملهم مباشرةً من اللّه. ويُروى أنَّه كان يقرأُ السُّورة قبل أن يأوي إلى فراشه.

السُّورة 74 [الإِنسَان]. وهي تستفتح بالأمر أنْ ينذر، وتتابع بإدانة مرَّة لأحد

(1) سُوْرَةُ العَلَقِ: 96/ 1.

زعماء مَكَّة الذي كان يسخر من البعث. وفيها أُنذر الكافرون بعذاب النَّار.

السُّورة 111 [المَسَد]. سورة قصيرة، حيث لُعن فيها كلٌّ من أبي لهب، عمّ النَّبِيّ، وزوجته في لغة ناريَّة ومُرَّة.

العهد الثَّالث: من بدء نبوَّة مُحَمَّد العامَّة إلى الهجرة للحبشة.

السُّورة: 87؛ 97؛ 88؛ 80؛ 81؛ 84؛ 86؛ 110؛ 85؛ 83؛ 78؛ 77؛ 76؛ 75؛ 70؛ 109؛ 107؛ 55؛ 56. إنَّ هذه السور نُظمت بشكلٍ رئيس لتصوير البعث، والجنّة، والنّار، مع الإشارات إلى معارضة قُرَيْش المتصاعدة.

العهد الرّابع: من السنة السَّادسة إلى السَّنة العاشرة من نبوّة مُحَمَّد.

السُّورة: 67؛ 53؛ 32؛ 39؛ 73، 79؛ 54؛ 34؛ 31؛ 69؛ 68؛ 41؛ 71؛ 52؛ 50؛ 45؛ 44؛ 37؛ 30؛ 26؛ 15؛ 51. في هذا العهد بدأت ترد القصص من الكتب اليَهُوْديّة، والحَبْريّة، كما من الأساطير العربيَّة. والتسوية المؤقَّتة مع الوثنيَّة مرتبطة بالسّورة 53 [النَّجْم].

العهد الخامس: من السنة العاشرة لنبوَّة مُحَمَّد (في فترة إزالة المقاطعة عن المسلمين) إلى الهجرة من مَكَّة.

السّور: 46؛ 72؛ 35؛ 36؛ 19؛ 18؛ 27؛ 42؛ 40؛ 38؛ 25؛ 20؛ 43؛ 12؛ 11؛ 10؛ 14؛ 6؛ 64؛ 28؛ 23؛ 22؛ 21؛ 17؛ 16؛ 13؛ 29؛ 7؛ 113؛ 114. (إنَّ السورتَين الأخيرتَين غامضتَان). وتحتوي سور هذه الحقبة على بعض القصص الإنجيليَّة. وقد فُرضت طقوس الحجّ. وفُنِّدت اعتراضات قُرَيْش. ولدينا صور حيَّة للبعث وليوم الدينونة، والجنَّة والنّار، وبراهين وحدانيَّة وسلطة وتدبير اللّه.

تصبح السّورة من حقبة إلى أخرى ـ في المعدَّل ـ أكثر طولاً، وبعضها

يشغل الآن صفحات عديدة. في السُّور المتأخِّرة لهذه المرحلة نجد ـ وليس بالنادر ـ آيات مدنيَّة، أُقحمت لكونها تتَّصل ببعض المواضيع. وكمثال يمكننا أخذ الآية (39) من السّورة (22) [الحَجّ] التي أُعطيَ فيها الإذن لحمل السّلاح ضد المَكّيِّين؛ والآية (33) في السّورة (17) [الإِسْرَاءِ] التي تحتوي على القواعد لإدارة العدل؛ والآية (110) في السّورة (16) [النَّحْلِ] التي تشير إلى المؤمنين الذين هاجروا وقاتلوا من أجل الإِيمَان؛ إنَّ هذه الآيات لا يمكن أن تُعلن إلَّا بعد الهجرة إلى يَثْرِب.

العهد الأخير: السُّور المنزلة في يَثْرِب.

السُّورة 98 [البَيِّنَة]. سورة قصيرة من ثماني آيات، وتتعلَّق باليَهُوْد والمَسِيحِيِّين الأخيار والسيِّئين. وليس هناك ما يحدِّد تاريخها بدقَّة.

السُّورة 2 [البَقَرَة]. وهي السورة الأطول في القُرْآن إلى حدٍّ بعيد، واسمها جاء من البقرة الصغيرة الحمراء الموصوفة في الآية (67) التي ضُحِّي بها من قبل الإِسْرَائِيلِيِّين نزولاً عند أمرِ مُوسَى. والسُّورة كانت مُسمَّاة كذلك في عهد مُحَمَّدٍ، فكما رأينا من قبل فإنَّها ذُكرت في معركة حُنَيْنٍ. وفي هذه السّورة جُمعت آيات تناولت مواضيع مختلفة، والتي نزلت خلال السنتيْن أو الثّلاث بعد الهجرة. إنَّ القسم الأعظم يتعلّق باليَهُوْد، الذين كانوا في بعض الأحيان يُحذَّرون بعبارات وديَّة (وهي في الآيات الأولى)، وفي أوقات أخرى كانوا يُشجَبون. وهي مليئة بالقصص الكِتَابيَّة والحَبْرِيَّة؛ ولدينا الأمر بتغير القِبْلَةِ، وإدانة اليثربيِّين الخارجين، والوصايا بالقتال، والإذن بحمل السّلاح في الأشهر الحرم. ونجد فيها أيضاً ما يشير إلى السِّمة التّشريعيَّة التي أُعلنت لدى بلوغ يَثْرِب لأوَّل مرة، مع آيات مقحمة تتَّصل بهذه الشأن أيضاً، بيد أنَّها من زمن متأخِّر.

السُّورة 3 [آلَ عِمْرَان]. وهي أيضاً ذات طول كبير. وجزء منها يعود رأساً عقب معركة بَدرٍ (2 هـ)، والتي وصفت فيها. والجزء الآخر، والأطول يتعلّق بهزيمة أُحُدٍ (3 هـ)؛ كما أُشير إلى حملة بَدْرٍ الثّانية (4 هـ). وورد ذكر اليَهُوْد في إسهاب كبير، وبعبارات عدائيَّة قاسية. ويعود الحوارُ مع وفد مَسِيحِيِّي نجران (الآيات 59 ـ 66) إلى حقبة أكثر تأخُّراً. وفي الختام ثمَّة بعض الآيات تتعلَّق بحِجَّة الوَدَاعِ (10 هـ)، وهي ترد بالارتباط مع آيات أخرى (على الأرجح) لنصوص أبكَر حول شعائر الحجِّ.

السُّورة 8 [الأَنفَال]. تحتوي على أوامر تقسيم الغنائم المُستولى عليها في بَدْرٍ، وهي في جزئها الأكبر تعود لهذه الحقبة. وبعض الأجزاء ذات أسلوب مَكِّيٍّ قديم، ويُشار إلى قُرَيْش بشكل متكرِّر.

السُّورة 47 [مُحَمَّد]. فُرضت فيها الحرب والذبح بحماسة، وفيها هُدِّد وتُنيِّو مَكَّة.

السُّورة 62 [الجُمُعَة]. سورة قصيرة أُدين فيها اليَهُوْد لضلالهم. وأُمِر أنْ تأخذ صلاة الجُمُعَةِ الأسبقيَّة على الشؤون الدنيويّة.

السُّورة 5 [المَائِدَة]. سورة طويلة، نُظم جزؤها الأكبر شتماً ليَهُوْد. كما أنَّ عقائد المَسِيحِيِّين مفنَّدة، رغم أنّه يتحدث عنهم بلطافة (الآية 82). والآية الافتتاحيّة التي تفرض شعائر الحجّ من تاريخ لاحق؛ وربَّما يختصُّ جزءٌ برحلة الحُدَيْبِيَّة (6 هـ)؛ إلّا أنَّ جزءاً يعود إلى حِجَّة الوَدَاعِ، حيث ترد فيه الآية (3): ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾؛ ولدينا كذلك العديد من الأوامر المدنيّة، مثل قانون الميراث، وتعاليم مختلفة.

السُّورة 59 [الحَشْرِ]. ليس بذات طول، وتروي حصار وترحيل بني النَّضِيرِ (4 هـ).

السُّورة 4 [النِّسَاء]. وهي مسمَّاة من الجزء الأكبر الذي خُصِّص لكيفيَّة معاملة الزوجات، والعلاقات بين الجنسيْن. وثمَّة أيضاً أوامر حول قانون الميراث، والقوانين العامة، الاجتماعيّة والسياسيّة. كما رُفضت المودّة مع وثني مَكَّة بإصرار. وفيها فوق ذلك انتقادات معادية ضد اليَهُوْد.

السُّورة 58 [المُجَادِلَة]. سورة قصيرة حول الطّلاق ومسائل اجتماعيَّة أخرى. وقد وبخ النَّاقمين اليثربيِّين لأنّهم يودون اليَهُوْد.

السُّورة 65 [الطَّلاَق]. نصٌّ قصير للغاية حول الطّلاق، ومواضيع مرتبطة ببعض النّصائح الدينيّة.

السُّورة 63 [المُنَافِقُون]. نص قصير يتضمن تهديدات إلى عبد اللّه بن أُبي بسبب لغته الفجّة أثناء الحملة ضد بني المُصْطَلِق (5 هـ).

السُّورة 24 [النُّوُر]. تحتوي على براءة عائِشَة فيما يتصل بالإِفْكِ (5 هـ)، مع قانون زواج الكافرين، ومختلف الوصايا الاجتماعيّة والدينيّة.

السُّورة 33 [الأَحْزَاب]. مكوَّنة من عدة أجزاء نزلت على مدار سنة (5 هـ). والآيات الأقدم تصادق على زواج النَّبِيّ من زينب، الّتي كانت زوجة ابنه بالتبني، وهو الحدث الذي جرى قبل حملة ضد بني المُصْطَلِق بما يقارب نصف السنة؛ وثمَّة آيات مختلفة حول علاقات مُحَمَّد الزوجيّة. والبقيَّة مكرَّسة لحصار يَثْرِب، وسقوط بني قُرَيْظَة، الوقائع التي جرت بعد أربعة أشهر تقريباً على الحملة أعلاه.

السُّورة 57 [الحَدِيد] تتضمَّن أوامر حماسيَّة للقتال والمساهمة في الإنفاق في تكاليف الحرب، وذلك للحصول على حسنة خاصّة بالانضمام إلى القضيَّة قبل أن يعلنَ النّصر بشكل نهائيّ. وقد حُذّر السّاخطون، وذُكر المَسِيحِيُّون

بعبارات ودّية.

السُّورة 61 [الصَّف]. سورة قصيرة، ومثل السابقة. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الذين يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ[1]﴾. إنَّ نصراً سريعاً وُعد به هنا.

بقية السّور تعود على وجه الحصر إلى السنوات الخمس الأخيرة من حياة النَّبِيّ.

السُّورة 48 [الفَتح]. تشير إلى هدنة الحُدَيْبِيَّة (6 هـ)، وبشير النصر والحصول على الغنائم في مكان آخر (أُنجز بعد فترة قصيرة في خَيبر).

السُّورة 60 [المُمْتَحِنَة]. سورة قصيرة، تتَّصل بشكل أساسيٍّ بطريقة التعاطي مع النّساء اللّواتي، أتين من مَكَّة بعد الهدنة. وفيها حُذر المؤمنون من عقد صداقات مع وثنيّي مَكَّة.

السُّورة 66 [التَّحْرِيم]. سورة قصيرة نزلت بشأن فضيحة مُحَمَّد وجارية قبطيَّة (7 أو 8 هـ).

السُّورة 49 [الحُجُرَات]. سورة قصير أخرى، تتَّهم إعلان البدو الإِيمَان أنّه غير مخلص، ووُبخ الوفد الذي صرخ عالياً لدى باب مُحَمَّد، وهي تحذِّر المؤمنين من الريبة وعدم التساهل فيما بينهم.

السُّورة 9 [التَّوْبَة] السّورة الأخيرة، وهي طويلة نسبياً. وتعالج حملة تَبُوك (9 هـ). وتُفتح السّورة بـ «بَرَاءة» التي أُعلنت في موسم الحجّ في هذه السنة، وتواصل معلنةً عداء الإسلام للأديان الأخرى، وفيها مُنع الجميعُ، ما خلا المسلمين، من دخول مَكَّة، وأداء شعائر الحجّ. وتنزّل فيها ذبح واسترقاق الوثنيِّين؛ وأُمر بالحرب ضد اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين، لحين دفع الجزية وهم

(1) سُوْرَةُ الصَّفِ: 61/ 4.

صاغرون. وهي تسمّى سورة الجّهاد، وكانت السُّورة في زمن الخلافة المبكرة تُتلى في الساحات قبيل المعركة.

لم تكنْ الآياتُ في السّورِ مرّقمةً؛ ولا السّور نفسها أيضاً، ولم تكن معروفة بين المسلمين من خلال تعاقبها الزمنيّ، بيد أنَّ (مثل الكِتَاب المُقَدَّس) كلَّ سورةٍ تُعرف باسمٍ مستقلٍّ أو عنوان منتزع من موضوعها الرئيس أو عبارة واردة فيها، مثل سُوْرَةِ يُونُسَ، والكَهْفِ، والإِسْرَاء. وتبتدئ كلُّ سورة بالبسملة ـ وهي «بسم اللّه الرَّحمن الرَّحيم».[1] والقُرْآن مُقسَّم للسهولة إلى ثلاثين جزءاً (حزباً)؛ وعلى هذا فبالوسع قراءة القُرْآن أجزاءً على مدار الشهر (مثل المَزَامِيرِ).

إنَّ توقيرَ المسلمين العاطفيَّ لِلْقُرْآنِ يجعلهم يشعرون بكره خرافيٍّ لطباعته وبيعه ككتابٍ عامّ. كما ثمَّة معارضة مسيطرة لتدنيس النصِّ المُقَدَّس، وذلك بتعريضه لخطر تصوير خاطئ عبر ترجمته إلى لغات أخرى. إنَّ هذه الوساوس تقف وراء النقصان، والنسخ المطبوعة، مع نسخ ذات سطور موازية من الفارسيَّة والأردو، وهي الآن متداولة على نطاق عامٍّ في الهند. بيد أنَّ الترجمات حرفيَّة للغاية بحيث أنَّها غير مفهومة، ووفاءٌ خانعٌ لترجمة حرفيَّة، كالعادة، عمل كسول أكثر من محاولة لتقديم المعنى والروح في ترجمة حرَّة.

---

(1) إنَّ السّورة التاسعة [التَّوْبَةِ] استثناء وحيد؛ فليس فيها البسملة، وبعضهم يرى أنَّه كان يُراد أن تكونْ استمراراً للسّورة الثامنة [الأَنْفَال]. إنَّ البسملة (الَّتي يمكن أن تكون قد أُخذت من صيغة مَسِيحِيَّة مشابهة، أو من صيغة فارسيَّة قديمة)، كما العنوان يبقيان على العموم في نسخ القُرآنِ، لكنْ بدون أساس مفهوم يجعلهما جزءاً من الأصل الإلهيّ. وثمَّة اختلافات في العنوان حسب مختلف الطبعات. إنَّ الرقم الكليَّ للآيات الَّتي تحتويها كل سورة (تختلف بشكل طفيف) غالباً ما يُوضع بعد العنوان.

إنَّ ترجمةَ سِل، المطبوعة سنة (1734)، هي النسخة الإنجليزيَّة القياسيَّة. رغم أنَّها تفسيريَّة، ولربَّما لدرجة الإفراط، إلَّا أنَّها تستحقُّ تقديرنا، وليس فقط لالتزامها، بل لنقلها الرائع لروح الأصل إلى لسان أجنبيّ.[1]

(1) إنَّ صياغة سِل تقدِّم المعنى بالعموم حسب شرح المفسِّرين. وعلى أيِّ حالٍ يجد الطلاَّب أنَّ الأصل قابل لترجمة مختلفة. ويجب الرجوع إِلَى المفسِّرين القياسيِّين: البَيْضاوِيّ، الزمخشريّ، والجلالين، حيث أنَّهم يقدِّمون الرؤية الإِسلاميَّة، رغم أنَّه لا يسعُ المرء دائماً الموافقة على تفاسيرهم. إنَّ مقدمة سِل العلميَّة يجب أنْ تُدرس بعناية من جانب كلِّ من يريد أنْ يتتبع تطوّر الإِسْلام، وتعاليم علماء اللاَّهوت ومختلف المدارس اللاَّهوتيَّة بشأن القُرْآن.

الفصل الثالث

تَعاليمُ القُرْآن

إنَّ علماءَ اللاهوتِ المسلمين حمّلوا مُحَمَّداً الكثير ممَّا ليس مسؤولاً عنه. مفترضين أنَّ القُرْآنَ نطقُ العليمِ بكلِّ شيءٍ، وبالتّالي، ملائم بشكلٍ مطلقٍ للحقيقة الأبديّة، وسعوا للتوفيق بين تناقضاته، وإلى ملء فجواته بقياس التمثيل، أو بالحديث المزعوم عن النَّبيّ، وعلى هذا فإنَّهم طوَّروا منظومات كاملة من اللاهوت والأخلاق، المنسوبة إمَّا مباشرةً إلى مُحَمَّد، أو أنَّها تبدو استنتاجات شرعيَّة من تعاليمه. في هذه السيرورة فإنَّ العقائد اليَهُوديَّة والمجوسيَّة (والتي كان يدين بها مُحَمَّدٌ لبعض المدى) تبنَّاها أتباعه بحماس بعد وفاته، واستُوعبت ضمن ما يناسبها في مواد الإسلام؛ وعلى هذا، فَإنَّ الإيمَان الشَّعبي أدمج بسهولة القصَّة الحَبْريَّة والموروث على أنَّه متأتٍّ من النَّبيِّ نفسه. ومع مرور الزمن فإنَّ الفلسفة اليونانيَّة، كما دُرست في بلاط الخلفاء، جُعلت على صلة بالقُرْآن. وإذْ تبنَّى الفلاسفة العرب منهاجها في التفكير، فإنَّهم أدخلوا في الإسلام البحوث الميتافيزيقَّة والمسائل المعقَّدة، الغريبة تماماً على عقيدة مُحَمَّدٍ البسيطة، زاعمين أنَّ لها مرجعيَّة في القُرْآنِ. وعلى قدر ما كانَ أساس هذه الاستدلالات ضعيفاً وملتبساً، فإنَّ الاختلافات كانت واسعة بين المدارس والفِرَق، وإنَّ الانفعال والحدَّة التي نُوقشت فيها المسائل؛ والنزاع كان يؤدِّي غالباً إلى اضطهاد وحشيٍّ، وإلى دخول في معارك

دموية. لا سِيَّما هذه الآراء المتَّصلة بحقِّ الوراثة الإلهيَّة للخلافة؛ وأزليّة القُرْآن، أو خلقه، والجَبر أو حريَّة الاختيار؛ واستحالة رؤية اللّهِ، أو الرؤيا السَّارة كما عرضها أصحاب التشبيه.

إنْ كنَّا سنقوم بدراسةِ القُرْآن، متوقِّعين أنْ نجد فيه أمثال هذه العقائد، أو أيَّ منظومة عقائديَّة متَّسقة فإنّنا سنضلُّ السبيل. إنَّ القُرْآن مرآة قناعات مُحَمَّدٍ الخاصَّة، أو بالأحرى التعاليم التي رغب بغرسها في أذهان الآخرين. إنَّ أفكاره تغيرت ـ كما رأينا ـ بصدد مسائل عدَّة مهمَّة خلال تطوُّر نبوَّته. إنَّ وحي القُرْآنِ نزل من خلال أحداث اللحظة العابرة، ومنها أخذ صيغته ولونه، وعلينا بالتالي أنْ نتقبَّل بياناته المختلفة كما نجدها بالضبط، وستتوه في شِعاب الضياع لو سعينا إلى وضعها في أيِّ شكل متناسق أو منهجيّ.

في الواقع إنَّ بعض المبادئ، مغروسة على طول القُرْآن بدون تغيير أو بعدم تناسق. مثل وحدانيّة اللّهِ، وجلاله، وشموليَّة العناية الإلهيَّة؛ ووجود الملائكة الأخيار، كما وجود الشيطان والملائكة الساقطين؛ خلود الروح؛ البعث وجزاء الأخيار والأشرار؛ خطيئة الوثنيَّة؛ إلهام مُحَمَّدٍ نفسه، والأنبياء السابقين. ومن جهة أخرى، بالإمكان تحديد مبادئ أخرى من خلال بيانات معارضة، مثل القدر، الخلاص بدون أعمال، ومكافأة الأعمال الطيِّبة.

إنَّ تعاليم القُرْآن بسيطة للغاية. فاللّه كشف عن نفسه في مختلف العهود، من خلال مختلف الشّرائع، بواسطة الأنبياء المُلهمين. والشرائع اختلفت في المظهر والشكل العرضيّ؛ بيد أنَّ الإيمَان العامَّ العظيم في وحدانيّة اللّه والإسلام (الذي يعني الخضوع لإرادته)، يشكِّل الأساس لها جمعياً. إنَّ الحقيقة التي أعلنت على التّوالي غالباً ما ضاعت أو تشوَّهت من الجهل أو ضلال البشر. إنَّ رسالة مُحَمَّدٍ كانت في تأسيس آخر هذه الشّرائع؛ وبينما كان يعلن في البدء أنَّ تعاليمه الخاصَّة هي ببساطة متَّفقة مع الرسائل السابقة، فإنّه

في الختام جاهد إلى أن يزيلها ويتجاوزها جميعاً.

إنَّ شرط الإسلام الأول هو الإيمَان بعقيدة: «لا إله إلاّ اللّه، وأنَّ مُحَمَّداً رسول اللّه». إنَّ هذه تمحو الوثنيَّة، و«إشراك مع اللّه» مواضيعَ العبادة الأخرى؛ وتثبِّت القُرْآنَ كقاعدة ذات مرجعيَّة عليا للإيمان والممارسة. ليس ثمَّة في الإسلام كهنوت. فالإنسان يتعامل مباشرة مع الإله. وليس مُحَمَّدٌ إلَّا نبياً، وهو نفسه خاطئ يحتاج للرحمة والغفران.[1] ويُوعَد المؤمنون بالخلاص، لكنْ عليهم الالتزام بالامتناع عن فعلِ الشرِّ، والقيام بالأعمال الطيِّبة، وبالتحديد عليهم التقيُّد بأوامر الإسلام. إنَّ هذه الشروط، رغم قلَّتها وبساطتها، فإنّها تتخلَّل جميع مناحي حياة المسلمين. إذْ يُستهلُّ النهار بالصلاة لدى الفجر؛ وينتهي بالصلاة؛ وإضافة لذلك فإنَّ هذا الطقس يتكرَّر ثلاث مرَّات أخرى في اليوم، وفي فترات زمنيَّة محدَّدة خلال اليوم. وتتألَّف كلُّ صلاةٍ من سجدتَين أو أكثر، مصحوبة بهتاف الصلاة وتلاوة آيات قصار من القُرْآنِ. كما ثمَّة الزكاة، أو الصدقات؛ والصيَام خلال شهر كاملٍ في رَمَضَان (والذي رغم قسوته من الفجر إلى غروب الشمس، يُسمح فيه باسترخاء كامل ليلاً)؛ والحجُّ إلى مَكَّة، الذي ليس مرهقاً للعرب الذين فرض عليهم في البدء، وهو، بدون شكٍّ، غير ملائم للأتباع من كلِّ الأجناس.[2]

إنَّ مصير الإنسان، ومهما حصل من أمر كبير أو صغير، ثُبِّت بأحكام القُرْآن

---

(1) سُوْرَةُ مُحَمَّدٍ: 47/ 19.

(2) إنَّ المساحة المخصَّصة لي لا تسمح بتفاصيل إضافيَّة أو تأمُّل يتعلَّق بأوامر الإسلام؛ بيد أنَّ هذا أقلّ ما يُؤسَف له، ذلك أنَّ عمل ت. ب. هوغويس (T. P. Hughes)، الرّائع: «*Notes on Muhammedanism*»، لندن، لا يترك شيئاً يمكن للمرءِ أن يرغبَ بإضافته بصدد الموضوع. والصادر: London: W. H. Allen & Condy.

الحتميَّة والمؤكَّدة بشكلٍ تامٍّ فيه. ومن البيِّن أنَّ هذا المبدأ لعبَ دوراً أساساً للتسليم والصبر على المحن، والاتِّزان بالنجاح، والسكينة في الخطر؛ بيد أنَّه ليس محصوراً في مثل هذه الغايات البريئة والشرعيَّة. إنَّ العقيدة تبرز للعيان دائماً في شكلها الأكثر صراحة وعدوانيَّة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ[1]﴾؛ و﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ[2]﴾؛ ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ[3]﴾؛ وهلمَّ جرَّاً.[4] لكن بينما لا توجد نزعة معاكسة بشكلٍ واضح في القُرْآنِ، فإنَّ ثمَّة الكثير ممَّا يشي عن حريَّة الإرادة ضمناً. إنَّ الصلاة مفروضة دائماً. وقد كان مُحَمَّد يؤدِّيها أيضاً، وغالباً ما تنسب الحرية إلى أثرها.[5] وحُضَّ الإنسانُ دائماً على القيام بالأعمال الصالحة. وحُذِّر من الكفر والخطيئة، ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ[6]﴾. في الواقع، إنَّ الخلاص يتَّصل بالإيمَان، والإيمَان يتعلَّق بإرادة اللّهِ؛ وعلاوة

---

(1) [سُوْرَةُ فَاطِرٍ: 35 / 8، م.].

(2) [سورة التِّين: 95/ 4 ـ 5، م.].

(3) [سُوْرَةُ الإِسْرَاءِ: 17/ 13، م.].

(4) إنَّ مثل هذه الآيات ترد على طول القُرْآن. انظر: سُوْرَةُ الأَنفَالِ: 6/ 123، 125، 137؛ سُوْرَةُ الأَعْرَافِ: 7/ 178، 186؛ سُوْرَةُ يُونُسَ: 10/ 99؛ سُوْرَةُ هُودٍ: 11/ 118؛ سُوْرَةُ الرَّعْدِ: 13/ 27، 33؛ سُوْرَةُ إِبْرَاهِيمَ: 14/ 21؛ سُوْرَةُ النَّحْلِ: 16/ 36، 93؛ سُوْرَةُ الإِسْرَاءِ: 17/ 13؛ سُوْرَةُ الكَهْفِ: 18/ 17؛ سُوْرَةُ السَّجْدَةِ: 32/ 13؛ سُوْرَةُ الإِنسَانِ: 76/ 30؛ سُوْرَةُ التَّكْوِيرِ: 81/ 29؛ سُوْرَةُ الشَّمْسِ: 91/ 7 ـ 8؛ سورة التِّين: 95/ 4 ـ 5.

(5) مع رفع الحصار عن يثرب، ("Life of Mahomet," P. 325)، انظر كذلك سُوْرَةُ الرُّومِ (31/ 32). حيث غالباً ما يقدِّم وصفاً للبحَّارة وفق طراز المَزَامِيرِ (107): «ثم استغاثوا بالربّ في ضيقهم، فأنقذهم من مصائبهم».

(6) [سُوْرَةُ البَقَرَةِ: 2/ 195، م.].

على ذلك لا تنقص الآيات التي تتحدَّث عن الإنسان الذي يختار بين الخطإ أو الصّواب، وتذكر الجنَّة والنار كعاقبةٍ.[1] ويُؤمر المؤمنون مراراً بالحذر من مكائد الشيطان. وبالتالي، فإنَّ الحكم بين الخير والشرِّ مفهوم ضمناً في آياتٍ قُرْآنِيَّة كثيرة، والجزاء يكون نتيجةً لاختياره بين الخير والشر. إنَّ الإنسانَ مسؤولٌ عن خطيئته الخاصَّة وحسب. ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.[2] ولا

(1) ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ؛ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن؛ وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ... إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ (سُوْرَةُ الكَهْفِ: 18: 29ـ30). انظر كذلك: سُوْرَةُ يُونُسَ: 10/ 108؛ سُوْرَةُ الإِسْرَاءِ: 17/ 15؛ سُوْرَةُ الزُّمَرِ: 39/ 41، 54.

(2) إنَّ هذا النصَّ يتكرَّر عدَّة مرَّات ـ سورة الأنعام: 6/ 164؛ سُوْرَةُ الإِسْرَاءِ: 17: 15؛ سُوْرَةُ فَاطِرٍ: 35/ 18؛ سُوْرَةُ الزُّمَرِ: 39/ 7؛ سُوْرَةُ النَّجْمِ: 53/ 38 ـ وتقريباً بنفس كلمات القدِّيس بولس في غَلاَطِيَّةَ: 6/ 5. وهذا لكي يجعل هذه الآيات تتناغم مع الوعد بالجنَّة بوصفها مكافأة غير مشروطة لإيمان المؤمنين الصرف. إنَّ نظاماً من العقوبات الوسيطة لفقه علماء اللاهوت. فإن رجحت كفَّة الأعمال الطيِّبة على الشريرة، فإنَّ المؤمن يذهب رأساً إِلَى الجنة؛ وبخلاف ذلك فإنَّ عليه أن يختبر عقوبة لبعض الوقت، ومن ثم يُرسَل إلى الجنَّة. وبذلك، فإنَّ الوعد بالجنَّة مضمونٌ للمؤمن في خاتمة المطاف. وليس لدى الكافرين مثل هذا الأمل. إذْ سيبقون في عذاب ميئوس منه مع الشيطان وملائكته في الجحيم، وحسب العبارة المكرَّرة كثيراً ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾. لكنَّ القُرْآن لا يعرِّف المطهّر؛ وأقوال مُحَمَّد (على سبيل المثال، مثل تلك على فراش موته، ص 501، *"Life of Mahomet"*) ليس لها، حسب قناعتي، أيُّ معنى. إنَّ مذهب حالة العذاب الوسيط، نشأ في الحقيقة عن مسعى لجعل آيات القُرْآن عقيدة منظوميَّة ومتساوقة.

[المطهّر: عند الكاثوليك موطن بين الجنَّة والنار تتطهَّر فيه نفوس الآثمين من الذنوب التي لم يكفِّروا عنها في الحياة الدنيا، وذلك بعذاب محدود الأجل، تنتقل بعده إلى الجنَّة. وينكره الأرثوذكس والبروتستانت، م.]

يقرُّ القُرْآنُ في أيِّ آية منه بالخطيئة الأصليَّة المتأتِّية من السُّقوط. صحيح أنَّ آدم قد سقط، بأكله الثمرة المحرَّمة، بيد أنَّ سقوطه (كما كان يظهر) كان نتيجةً لنزوعٍ في طبيعته نحو الخطيئة، ولم يتسبَّب بها. كلُّ الناس ارتكبوا المعصية، بيد أنَّ لكلٍّ نقيصته الخاصَّة، ويتصرَّف باستقلاليَّة، وليس حسب أيِّ تحديدٍ سابق.[1] وتحت تأثير هذه الاعتبارات، فإنَّ بعضهم وصل لاستنتاج أنَّ مُحَمَّداً كان مؤمناً بالقضاء بمعنى مخفَّف، وأنَّ البعض اختير لمعرفة الحقيقة، بينما الآخرون تُركوا للظلام وبالتالي للكفر، وأنَّ هذه النعمة توهب حينما يرى اللّهُ أنَّ الإرادة تميل لما هو خير، وتُمسك عمَّن يميل نحو الشر؛[2] باختصار، بعيداً للغاية عن أن يكون قدريّاً مطلقاً، فإنَّ مُحَمَّداً كان أقرب إلى بِلاگيوس منه إلى أوگسطين.[3] بيد أنَّ هذا الرأي يجب أنْ يُرفض بوصفه مفارقة قائمة على أساس غير كافٍ. ومن أجل إيصال القدر إلى خاتمته المنطقيَّة فإنَّ الإنسان يُخفَّض إلى مجرَّد آلة، أداة بسيطة في يدِ اللّهِ. إنَّ مُحَمَّداً توقف قُبيل الاستنتاج، الذي كان سيسفُّه كامل رسالته بوصفه نذيراً ومبشِّراً للدين الحقّ، ولم يلطِّف

(1) إنَّ الآيات بصدد الفساد الشامل للإنسان ليست كثيرة؛ بيد أنَّ التالية جليَّة: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم، مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ (سُوْرَةُ النَّحْلِ: 16/ 61). انظر كذلك سُوْرَةُ مُحَمَّدٍ (47/ 17)؛ سُوْرَةُ الفَتْحِ (48/ 2)، بشأن مسؤوليَّة مُحَمَّد الخاصة عن الخطيئة.

(2) ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ، ...﴾ (سُوْرَةُ الأَنفَالِ: 8/ 23). بيد أنَّ الآيات التي من هذه النوع قليلة وغامضة. انظر: سُوْرَةُ المَائِدَة: 5/ 18؛ سُوْرَةُ الرَّعْدِ: 13/ 27؛ سُوْرَةُ إِبْرَاهِيمَ: 14/ 22؛ سُوْرَةُ النَّحْلِ: 16/ 108؛ سُوْرَةُ مُحَمَّدٍ: 47/ 16.

(3) Dr. Weil's "*Einleitung*," 2nd edition, p. III.

بِلاگيوس: راهب إنجليزيٌّ كان يرى أنَّ الطِّفل يولد نقيّاً من الخطيئة الأصليَّة. وأما أوگسطين، فهو من أبرز آباء الكنسية، وكان يقول بالقدر الذي كتب للبعض نعيماً في الآخرة وللبعض الآخر عذاباً سرمديّاً في الجحيم، م.

تعليمه الصريح والمفرط للقدر الأعمى. إنَّ إجراء مقارنة بين منظومته وبين المذهب المَسِيحِيِّ يعني مقارنة أشياء لا تملك فيما بينها إلَّا القليل. وأين، على سبيل المثال، سنجد في الكِتَاب المُقَدَّس كلمات تنطبق على هذه: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ، لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً... وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ، لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(1)﴾.(2) ومن جانب آخر، فإنَّنا نبحث القُرْآن عبثاً من البداية إلى النِّهاية لإيجاد مثل هذا التّصريح: «إنَّ الربَّ لا يريد هلاك أحد»؛ أو «إنَّه سيعطي الخلاص لجميع النَّاس»؛ أو مجدَّداً «يقول الرّبُّ، ما دامتُ حيَّاً فإنَّ موت الشرِّير لا يسرُّني، بل على الشرِّير أنْ يغيِّر طريقه ويعيش».

وعندما قامَ الخليفةُ عُمَرُ برحلته إلى القدس للمشاركة في مراسم تسلُّمها، فإنَّه ألقى خطاباً، في طريق رحلته، أورد فيه هذا الاستشهاد من القُرْآن: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ، فَهُوَ المُهْتَدِ؛ وَمَن يُضْلِلْ، فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً﴾.(3) فصرخ قسٌّ مَسِيحِيٌّ، مقاطعاً الخليفة، من بين الجمع: «حاشا للّه!»، وهو يهزُّ ثيابه علامةً على معارضة غاضبة، «إنَّ اللّه لا يضلُّ أحداً، بل بالأحرى يهدي النَّاس قاطبة». فاستفسر عُمَرُ عمَّا يقوله هذا المَسِيحِيُّ «عدوُّ اللّه». فأُجيب: «إنَّ اللّهَ لا يضلُّ أحداً». فاستأنف عُمَرُ خطابه، فاعترضه القسُّ مجدَّداً لدى الكلمات البغيضة. ممَّا أثار حفيظة عُمَرَ الذي قال: «بحقِّ اللّه! إنْ أعادها مجدَّداً لأقطعنَّ رأسه في هذا الموضع». فلاذ المَسِيحِيُّ بجدار الصَّمت، وأكمل عُمَرُ: «مَنْ يهديه اللّهُ،

---

(1) [سُوْرَةُ هُودٍ: 11/ 118 ـ 119، م.].

(2) يُصوِّر اللّه يقول للشيطان الذي رفض السجود والصلاة لآدَمَ، هذه الكلمات: سُوْرَةُ الأَعْرَافِ: 7/ 18؛ سُوْرَةُ السَّجْدَةِ: 32/ 13؛ سُوْرَةُ الصَّافَّاتِ: 37/ 85؛ سُوْرَةُ هُودٍ:11/ 119؛ وتضليل اللّه للأشرار هو تحقيق مباشر لهذا التّهديد.

(3) السور: سُوْرَةُ النِّسَاءِ: 4/ 88؛ 143؛ سُوْرَةُ الإِسْرَاءِ: 17/ 97؛ سُوْرَةُ الكَهْفِ: 18/ 17.

فلا مضلَّ له؛ ومَنْ يضلِلْ اللّهُ، فلا هاديَ له».[1] على أيِّ حال، إنَّ القصّة تصوِّر الرأي الشعبيَّ. وليس ثمَّة من شكٍّ بأنَّ مفهوم القضاء في صيغته الكاملة، هو الفكرة الطبيعيَّة الناشئة عن تعاليم القُرْآن.

ليس ثمَّة من حاجة هنا لمناقشة فقرات القُرْآن التّشريعيَّة بأيِّ تفصيل. من الطبيعيِّ أن يكون القسم الأكبر متَّصلاً بالمواضيع التي استحوذت على اهتمام مُحَمَّدٍ وأتباعه. علاقة الجنسيْن، قانون الميراث، مع بعض الاستثناءات ـ مثل عقوبة قطع يد السَّارق ـ قانون المقابلة بالمثل الذي يضع السيف في يد ممثِّل الضحيَّة؛ الرجم عقوبةً للزنى (الذي يستند إلى الحديث، وليست له مرجعيّة في القُرْآن نفسه)؛ وقيود عديدة في قانون الشَّهادة تثير الاعتراض. إنَّ المدوَّنة لا يمكن أن تخضع للبحث. إنّ منع الفائدة في الواقع، إذا ما كان مفروضاً بصرامة، فإنَّه يجب أن يعقِّد أنشطة التجارة والمشاريع الوطنية. إنَّ الحريَّة الشخصيَّة انتُهكت بحظر جميع ألعاب الحظِّ، وهذا ما فاقم قسوة وقتامة المجتمع الناتجين الآن عن عزل المرأة. وهذا ما يمكن قوله بشأن تحريم الخمر، وإضافةً لذلك، وجود عقوبة الجلد على الشرب، وهي ليست موضع اعتراض، دعْ عنك أنَّها تلقى استحسان البعضِ.

إنَّ أكثر التشريعات التي تُلحق أشدَّ الضرر بخير الإسلام هي ـ بدون شكٍّ ـ تعدُّد الزوجات، الطلاق، العبوديَّة، وواجب محاربة غير المؤمنين. إنَّ الحربَ ـ حسب القُرْآن ـ يجب أن تُشنَّ ضدَّ الوثنيَّة. إنَّ القتلَ مصيرُ الرجال المحاربين، والاسترقاق نهاية النساء والأولاد. إنَّ المَسِيحِيِّين واليَهُوْد عُوملوا بشكلٍ أكثر تساهلاً؛ لكن حتَّى هؤلاء كان يجب محاربتهم، وقتلهم، واسترقاقهم، حتَّى يدفعوا الجزية وهم صاغرون. ولهذا، فرغم منحهم امتياز

(1) «فتوح الشام»، ص 226؛ و«فتح سوريا»، ص 261. كلكوتا؛ 1854. إنَّ كلا العملَين زائفان؛ بيد أنّه بالإمكان قبول القصَّة على أنَّها تصوِّر العقيدة المتحدِّرة من القُرْآنِ.

الاعتراف بإيمانهم الموروث بشرط البقاء خاضعين، فإنَّ اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين أُقصوا عن الهيئة السياسية؛ وفُرضت عليهم عدم الأهليَّة كي ترسم ملامح إذلالهم. وليس بالوسع إزالة الوصمة، إنَّها مشغولة بروح ومؤسَّسات الإسلام، وما دامت مستمرَّةً، فإنَّها ستبقى سدّاً مرعباً، وليس أمام الازدهار القوميِّ فحسب، بل بوجه الدول الإسلاميَّة التي تحتلُّ موقعها في العالم المتحضِّر. إنَّ شروط الإذلال، كما أُعلنت في الوحي، هي بدون شكٍ غامضة؛ لكنَّها حقيقيَّة مع ذلك، وإنَّ أيَّ خطوة مأخوذة لإبطالها هي نسخٌ للأمر الإلهيّ.

ويتمخَّض عن الحرب ضدَّ الكافرين بلاء العبوديَّة، وهي ـ وإنْ في صيغة معتدلة ومقيَّدة ـ ليست بأقلّ دماراً على السيِّد المتغطرس، مثلما على الضحيَّة البائسة. إنَّ الأرقَّاء رجالاً ونساءً، وغير مسلمين، ووثنيِّين، ويَهُوْداً أو مَسِيحِيِّين ـ يُنقلون مثل البضائع الأخرى، أو الأملاك المنقولة. وبصرف النّظر عن زوجاته الشرعيَّات الأربع، فإنّه يُسمح للمؤمن في نصِّ القُرْآن ـ بتشجيع من مثال نبيِّه، وبدون أيِّ طقس أو شعيرةٍ إضافيَّة ـ أنْ يعاشرَ الأسيرات في الحرب، كما شراؤهنَّ وإهداؤهنَّ أو اقتناؤهنَّ بأيِّ طريقة قانونيَّة. وليس ثمَّة من تحديد، مهما كان، لعددهنَّ، ولا يوجد التزامات تتَّصل بالزَّواج. إنّ السبايا يمكن أنْ يُبعْنَ مجدَّداً في أيِّ لحظة؛ إلَّا إذا صادف وحملت من سيِّدها، فإنَّها تصبح (بمثال مُحَمَّد وماري القبطيَّة) حرَّةً. وما دام الإسلام قائماً، فإنَّ شقاء الإنسانيَّة هذا سيبقى إلى جانبه.

لقد كانَ من المُعتقد أنَّ مُحَمَّداً، بتحسينه شروط العبوديَّة، قد مهَّد الطريق لزوالها.[1] وبالعكس، بينما كان يخفِّف، فإنَّه كان يثبِّت القيد بإحكام. فهو أمر بأن يُعامل الأرقَّاء برفق، بيد أنَّه ليس ثمَّة من واجب مهما كان يقع على المسلم يقضي بتحرير رقيقه؛ بل على العكس، فمن بين الوصايا التي جاءت في حِجَّة

(1) Weil's *"Einleitung,"* p. 130.

الوَدَاعِ قوله:

«أرقاءكم أرقاءكم! أطعموهم ممَّا تأكلون، واكسوهم ممَّا تلبسون. وإِنْ جاؤوا بذنبٍ لا تريدون أنْ تغفروه؛ فبيعوا عبادَ اللَّهِ، ولا تعذبوهم أخبرنا هاشم»[1]

ما دامت الحروب والغزوات مشتعلة، فإنَّ العدد الكبير من المسترقِّين لن يستمرَّ من خلال الذريَّة فحسب وسرمدة البلاء، بل سيكون ثمَّة زيادة مضطردة في عددهم. إنَّ روح القُرْآن الهمجيَّة والاستعباديَّة، وإنْ انكمشت أمام نكير أوروبا، بيد أنَّها لم تمت. وإذا تركنا مجريات الحرب في الخلافة الأولى،[2] فإنَّ غزوات المسلمين في أيامنا الحاليَّة ضدَّ سود وسط آسيا والقبائل الأفغانيَّة الوثنيَّة، وحتَّى حرب السنَّة في آسيا الوسطى ضد شيعة فارسَ، ما زالت تخضع للأمر الإلهيّ؛ والنتيجة (وهي الهدف الفعليُّ على الأغلب) إضافة جديدة للأرقَّاء في العالم الإسلاميّ. إنَّ تجارة الأرقاء الأفارقة غير الإنسانيَّة (رغم أنَّ مُحَمَّداً نفسه سيكون أوَّل من يدينها بدون شكٍّ بتفاصيلها الهمجيَّة) تتلقَّى المصادقة الجلية على شرعيَّتها من المؤسَّسة الإلهيَّة للحرب الدينيَّة. وهي نفسها تجعل الحرب إلزاميَّة، بغضِّ

---

(1) *"Life of Mahomet,"* p. 486.

النَّصُّ جاء في «الطبقات الكبرى» لابن سعد، المجلَّد الثانيّ، م.

(2) لقد كانت أسر المقاتلين المسلمين الأوائل ترافقهم في مسيرهم. وبعد المعركة الكبرى في القادسية، فإنَّ إحدى النِّساءِ روت: «شهدنا القادسيَّة مع سعدٍ مع أزواجنا، فلمَّا أتانا أنْ قد فُرِغ من النَّاسِ شددنا علينا ثيابنا، وأخذنا الهَرَاوَى، ثم أتينا القتْلى، فما كانَ من المسلمين سقيناه ورفعناه؛ وما كانَ من المشركين أجهزنا عليه وتبعنا الصِّبْيَانُ نولِّيهم ذلك، ونصرِّفهم به»، الطبري، م 3، ص 73. [الرواية على لسان امرأة همامٍ بن الحارث النَّخعيّ، راجع تاريخ الطبري، حوادث سنة 14 هـ م.]

النظر إنْ كان ثمَّة فرصة للنجاح ضدَّ اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين الذين لا يرتبطون بمعاهدة مع المسلمين؛[1] ولا يجب على سلطة مَسِيحِيَّة حتَّى الآن نسيان وصيَّة سيدها بشأن إخماد تابعيها المسلمين، أو إشهار السيف فيما يُسمى الحرب المَسِيحِيَّة، فإنَّ جميع شروط الجهاد، بما في ذلك القتل، والجزية، والعبوديَّة، ستكون مسوَّغة مجدَّداً بالقُرْآن.

إنَّ تعدُّد الزوجات مع المؤسَّسة الهمجيَّة للتسرِّي العبودي، لهو آفة في جذر الإسلام، وسرُّ تفسُّخه. إذْ أنَّ نقاءَ وفضيلة رابطة الأسرة ممسوسة؛ وقوَّة ونشاط الطبقات المسيطرة مستنزفة؛ والهيئة السياسيَّة تصبح ضعيفة وواهنة، ما عدا انشغالها بالتآمر، وغالباً ما تتفتَّت الدولة نفسها إلى أجزاء، وتغدو ضحيَّة انعدام الثقة، والصراع على تسلُّم السلطة. إنَّ الذريَّة الرقيقة من مولاها وسيِّدها الخاصِّ تُعتبر شرعيَّة، وعلى هذا فهي تشارك في الميراث؛ بيد أنَّ هذه القاعدة، ورغم أنَّها جديرة بالثناء بحدِّ ذاتها، فإنَّها تمنح أرضيَّة إضافيَّة فحسب لتقسيم الملكيَّة. وإلى جميع هذه يجب أن يُضاف، بشأن الزوجات، أنَّ السهولة المهلكة للطلاق والزواج مجدَّداً، حتَّى لو لم يُوضع موضع التنفيذ دائماً، يمارس تأثيراً كامناً لإضعاف عُرى الزواج، ويخفِّض من وزن المرأة في كفَّة الميزان الاجتماعيِّ.

وقد يبدو أمراً قليل الأهمِّية، بالمقارنة مع هذه الشرور العظيمة، ذكر «الحجاب»؛ بيد أنَّه في الواقع ليس كذلك. إنَّ الأمر الإلهيَّ، مع القيود المماثلة بخصوص العلاقة العائليَّة، وتعرُّض المرأة للتأديب، والكبت،[2] لا يمكن إلاَّ أن تمارس تأثيراً قاسياً وكئيباً على الجنس نفسه.

---

(1) إنَّ التّابعين المسلمين لسلطة مَسِيحِيَّة (مثل الهند) يقعون تحت عهد الالتزام بالولاء نحو الدولة التي تحميهم، ما داموا يتمتَّعون بحريَّة ممارستهم لدينهم.

(2) *"Life of Mahomet,"* p. 343.

سُوْرَةُ النِّسَاءِ (4): وإنَّ تأثيره السامَّ على المجتمع برمَّته ليس أقلَّ وضوحاً؛ إذْ قد أبْعد كلَّ ضياء المرأة وتأثيرها المشرق والناعم من العالم الخارجي، وجُعلت حياة المسلم وهميةً ونكدةً، وإنَّ عائقاً ثابتاً موضوعاً أمام تقدُّم وتحسُّن حتَّى الرجل. ومع ذلك فإنّ الحجاب، وبعض درجات العزل، كانت قد صدرت بذكاء من مُحَمَّد؛ ذلك أنَّه بدونها فإنَّ تعدُّد الزوجات، والطلاق، والتسرِّي العبوديَّ كانت ستقوِّض أسس المجتمع نفسها؛ والسعي للتخلُّص منها سوف يفاقم الشرور الموجودة فحسب.

في نفس الوقت، إنَّ مقارنة الأخلاق المَسِيحِيَّة مع الإسلاميَّة ليست خالية من الصعوبة إجمالاً. فإنَّ المدافع المسلم سيُحاجج بمثال تعدُّد الزّوجات اليَهُوْديّ، وكذلك فإنَّه سيؤكِّد على الشرور الاجتماعيَّة الحتميَّة الناشئة بالضرورة عن أحاديَّة الزواج. إنَّ القُرْآنَ لا يشجب أي تحلُّل غير شرعيٍّ بين الجنسيْن بأشدِّ العبارات قسوةً، بل أيضاً يعرِّض الآثم للعقوبة الملائمة. وبسبب الشروط المتَّسعة والعريضة للغاية لِمَا هو مشروع، فإنَّ فضيلة سلبيَّة محدَّدة (من الصعب تسميتها كبح النفس أو عفَّة) تتخلَّل المجتمع المُحَمَّديّ، بالتناقض مع اللاأخلاقيَّة الغرائزيَّة والمنهجيَّة في أجزاء معيَّنة لكلِّ مجتمع أوروبيٍّ، والتي يمكن أنْ تُعتبرَ من جانب المَسِيحِيِّين عاراً وفوضى. على أيِّ حالٍ، في دولة مُحَمَّديّة على نحو صرف،[1] يمكن أن يكون المستوى العامُّ للشعور الأخلاقيِّ ضعيفاً، أكثر ممَّا يُعرف في الأعماق الداخليَّة للبشريَّة. إنَّ «الشّرور الاجتماعيَّة» والإسراف المتفشِّيان في البلدان المَسِيحيَّة هما من أقوى الأسلحة في مخزن سلاح الإسلام. ونحن نتحدَّث عن حقّ، عن

(1) إنَّ الملاحظة تنطبق على المجتمع الإسلاميِّ الصرف. وفي المدن الإسلاميَّة، ذات التنوُّع السكَّانيِّ المتعدِّد من مختلف الملل والقوميَّات، فإنَّ ثمَّة الكثير من عدم الأخلاق الذي ليس الإسلام مسؤولاً عنه بشكلٍ مباشر.

الأخلاقيَّة الأعلى وتحضّر أولئك الذين يتَّبعون وصايا الإنجيل، وعن انسجام وفضيلة أكثر صرامة، تربطان عرى الأسرة، وعن التسامي بالجنس. بيد أنَّ ذلك عبثاً، إذ أنَّ مثال مدننا الكبرى، وغالباً ممثّلينا في الخارج، يناقضون الحجَّة. ومع ذلك فإنَّها سليمة، ذلك أنَّ الرذيلة والإسراف سوف يتضاءلان ويزولان، والأخلاقيَّة الأعلى ستعمُّ كامل الجماعة، وهذا يتناسب مع ممارسة المَسِيحيَّة لتأثيرها الشرعي، بينما في الإسلام فإنَّ التأثيرات الفاسدة لتعدُّد الزوجات، الطلاق، والتسرِّي ترسَّخت في كلِّ الأزمنة.

قُصارى القول، إنَّ الاختلاف الأساس والأكثر قوَّةً بين النظامين يكمن في حياة مؤسِّسَيهما. فالأوَّل عاش حياة تضحية بالنفس؛ والآخر حياة متعة. أحدهما جذب شعبه بقوَّة الحبِّ للتصالح مع الأب؛ والآخر فرض بقوَّة السلاح القانونَ الحتميَّ للحاكم الأعلى. أوَّلهما قدَّم حياته، بحيث أنَّنا من خلال موته يمكننا حيازة الحياة الأبديَّة ـ بيد أنَّ المقابلة هنا لا تصحُّ، وكذلك التّوازي مع القوة الخلاَّقة الجديدة المتجذرة للإيمانِ المَسِيحيِّ.

إنَّ الدكتور ڤايل، العالم والمؤرِّخ النَّزيه لحياة النَّبيِّ وخلفائه، وبعد أنْ قدَّم وصفاً لمعالم مختلفة في صالح الإسلام، فإنّه استأنف حكمه على النحو التالي:

«إنَّنا حقّاً لبعيدون عن محاولة وضع مؤسِّس الإسلام بهذه الاعتبارات جنباً إلى جنبٍ مع مؤسِّس المَسِيحيَّة؛ من وجهة نظرنا فإنَّ الخلافَ يكمن أقلَّ في العقائد الخاصَّة لكلٍّ منهما منه في الشخصيَّة الفرديَّة. لو كان تسنَّى لمدرسة المعتزلة تطوير نفسها بحريَّة كما البروتستانتيَّة، لكان يمكن أنْ تشكّل من القُرْآن اللاهوت الذي كان سيلبِّي متطلَّبات العقل البشريِّ تماماً مثل العقلانيَّة المؤسَّسة على الإنجيلِ. إنَّ أوَّلَ ظهور في سماتها الحقيقيَّة كانت في حياة مُحَمَّد في يَثْرِبَ، وعلينا أنْ نقتفي انحدار وسقوط الإسلام النهائيِّ فيها، وليس

في تعاليمه الهرطوقيَّة بصدد السقوط والخلاص، ورفضه للثَّالوث (كما كان يُعلَّم في القرن السابع). لقد كانَ المسيحُ مخلصاً لتعاليمه، وصادق عليها بموته؛ أمَّا مُحَمَّدٌ فإنَّه تجنَّب الخطرَ المحدق به، وتطلَّع من خلال كلِّ وسيلة ـ وفي الختام من خلال القوَّة الخالصة ـ لكسب سيادته وسيادة ديانته. وعلاوة على ذلك، لم يكتفِ بنشر دينه والوصايا الأخلاقيَّة باسم اللّه، وفي نهاية الأمر، رغم أنَّ قوانينه الدنيويَّة وأوامره كانت تُعامل على أنَّها صادرة من السماء، فإنّه كانَ مضطرَّاً مراراً بسبب من الظروف لتغيير الشيء نفسه، حتَّى أنَّه لم تكنْ لديه السيطرة على النفس ليضع نفسه قبل الآخرين تحت التزامها. وكما أنَّ مُحَمَّداً لم يكن لديه زعم بأنَّه وسيط بين اللّه والإنسان فحسب، ولأنَّه لا يمكن اعتبار أوامره بأيِّ منحىً نموذجاً للفضيلة، لهذا، فإنَّ وحيه صار حرفاً ميِّتاً، بدون قوَّة لإحياء الروح بالديانة الحقَّة. وبذلك فإنّ القُرْآن يبدو لنا، بالعلاقة مع الإنجِيل، شيئاً من الماضي (anachronism) ليس نتيجة عقائده الداخليَّة المتناقضة التي كانت معروفة بشكل ناقص في ذلك الوقت، بل ـ مثل كُتب مُوسَى ـ لأنَّه يحتوي على الأوامر غير المفيدة، أو حتَّى الملائمة للتطبيق، في كلِّ البلدان ولكلِّ الأعراق البشريَّة، كما ليست مناسبة لجميع الأزمنة. وبوصفه مصلحاً (كما كانَ مُحَمَّدٌ في الأصلِ، وكانَ يطمح لأنْ يكونَ كذلك)، فإنّه أهلٌ لاعترافنا وإعجابنا التامَّين. عربيٌّ استطاع كشف اللّثام عن العيوب اليَهُوْديّة والمَسِيحيَّة المهيمنتيْن، وليس بدون المخاطرة بحياته، وسعى إلى تدمير الشرك، وغرس في شعبه مذهب خلود الروح، وهو يستحقُّ ليس مجرَّد مكان إلى جانب الرجال العظام في التاريخ فحسب، بل أكثر من ذلك، فإنّه يستحقُّ اسم نبيٍّ. بيد أنَّه سرعان ما كفَّ عن أنْ يكونَ متسامحاً، وسرعان ما سعى إلى حيازة النصر للحقيقة عبر وسائل الاغتيال السرِّي والحرب الصريحة، وقدَّم باسم اللّهِ مدوَّنةً جديدةً لقانون سياسيٍّ، طقوسيٍّ، مدنيٍّ، بوليسيٍّ، وقانون جنائيٍّ،

وقد دمغ نفسه وكلامه بختم الضعف والوهن البشريَّين»[1].

إنَّ هذه الاستنتاجات مبنيَّة على مراجعة دقيقة للحقائق المرتبطة بنهوض الإسلام؛ ولو كانَ ممكناً التمييز بين المصلح والنَّبيِّ، لكانت احتوت الكثير التي يمكن أن نتَّفق معها بدون تحفُّظ. لكنَّ الأمر لم يكن كذلك، فبوصفه مصلحاً، فإن مُحَمَّداً، بالفعل، دفع بشعبه إلى نقطة معيَّنة؛ بيد أنّه كنبيٍّ، تركهم مثبَّتين بدون حراك عند هذه النقطة لكلِّ الأزمنة الآتية. وإذْ لم يكن ثمَّة من عودة، فليس ثمَّة منْ تقدُّم. إنَّ الشجرة هي زرع صناعيٌّ؛ وعوضاً عن أن تحتوي في داخلها بذرة النموِّ، والتكيُّف مع المتطلبات المختلفة للزمن والبيئة والظروف، وتتفتَّح بأشعة الشمس الدافئة والمطر من السماء، فإنَّها تبقى نفسها ومعوَّقة عن النمو كما كانت قد غُرست في القرن السابع الميلادي.

إنَّ الدكتور ڤايل، عن حقٍّ، يرى مستقبلاً ممكناً للإسْلاَم باتباع أثر «اليَهُوْديّة الإصلاحيَّة»، وذلك بالتخلِّي عن تلك الأجزاء من المنظومة، التي كانت ملائمة للعصر الماضي، والتي صارت الآن عتيقة؛ وبالاحتفاظ بالحقائق السرمديَّة التي تشكِّل الأساس العامَّ للإيمان.[2] لكنْ كيف يمكن القيام بذلك في الإسلام؟ فكلُّ شيء قائم على نفس الأرضيَّة للمرجعيَّة الإلهيَّة: الحجّ، الوضوء، والصيام، كلُّها إلزاميَّة مثل العقيدة نفسها، والمسلم عبثاً يتطلَّع لتحرير نفسه من فرض الحجاب، وإلغاء رخصة تعدُّد الزوجات، الطلاق، والعبوديَّة، أو إلغاء الأمر الذي ينزل اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين إلى موقع الدونيَّة والإذلال. وخلافاً لحال الأمم المَسِيحيَّة ، فإنَّ بعضَ التحسُّن والتطوُّر في هذه الأشياء يمكن أن يتمَّ تجريبها، بيد أنَّ ذلك سيكون ضدَّ طبيعة وعلى النقيض من القانون الذي يقيِّد الضمير الإسلاميّ.

---

(1) Dr. Weil's *"Einleitung,"* p. 125.

(2) Dr. Weil's *"Einleitung,"* p. 125.

إنَّ المؤلِّف العالِم عينه كان سيقترح التبشير إلى المسلمين بوضع «الكِتَاب والمُقَدَّس وكتاب تعليمه»، ويثق بالتربية. إننَّا لن نستسلم لانعدام الأمل بتغيير عقل المسلم، بل على العكس، لدينا الجزء المحفوظ من القُرْآن (كما رأينا) يقرُّ كليًّاً مرجعيَّة الكِتَاب المُقَدَّس، ويكفل لنا، إذاً، قبول الإِنجِيل من تابعي الإسلام بحماسة.

ووفقاً لذلك، فإنَّ الجزءَ الثاني من هذه المعالجة ستخصَّص لمراجعة الشهادة التي يحتويها القُرْآن على أصالة ومرجعيَّة كتب العهدَين القديم والجديد المُقَدَّسة.

الجزءُ الثّاني

شهادةُ القُرآنِ لكتب العهدَين القديم والجديد

تحت ضغط تأكيد المدافع المَسِيحِيّ الذي يُبرز البرهان المأخوذ من العهدَين القديم والجديد، فإنَّ المُحَمَّديّ يعترف بالأصل الإلهيِّ لكليهما، لكنَّه يتفادى الحجَّة برفض موثوقيَّة النسخ الموجودة. وكونه راسخاً برأيه حول سلامة القُرْآن ـ النصِّ الذي يؤمن بأنَّه محفوظ بعناية إلهيَّة خاصَّة من عوامل الزمن، وأخطار التدوين، وسوء الحراسة البشريَّة ـ فإنّه ينظر بدهشة إلى الأساس الضعيف الذي نرضى الركون إليه. ويحيلنا إلى الآيات التي تناقض النقاوة المحتواة في كتبنا المُقَدَّسة، وإلى بعض الإضافات إلى النص الأصليِّ التي نحن مجبرون على التسليم بها، إمَّا بالصدفة، أو بتصميم؛ وهو ينظر بازدراء إلى كامل الكِتَاب المُقَدَّس على أنَّه حشد من القراءات المنوَّعة غير الجديرة بالثقة. ويؤكّد المُحَمَّديُّ أنَّه من المستحيل الآن تمييز الفقرات الأصليَّة عن الأخرى المحرَّفة، وتبيُّن الإلهيَّة والحقيقيَّة من البشريَّة والضالَّة. ولهذا، فإنَّ أيَّ برهان مستلٍّ من الكُتب مرميٌّ بعيداً. ومهما كانَ الاختلاف مع القُرْآن فهو أمر مرفوض وحتَّى بدون حجَّة إضافيَّة؛ وهو مُدان على أنّه إقحام مختلق لغاية محدَّدة إلاّ وهي دعم اليَهُوْديَّة والمَسِيحيَّة ضدَّ دعاوى مُحَمَّدٍ الأرفع منزلة.

ويجد المُحَمَّديُّ تأييداً قويّاً في هذه العقيدة بالآيات التي يتَّهم فيها القُرْآنُ اليَهُوْدَ بكتمان البشير النَّبَوِيّ بقدوم مُحَمَّد، إذْ أنَّهم «حَرَّفوا» و«بدَّلوا» كتبهم لهذه الغاية. وإنَّه لحقٌّ تماماً، أنّه لو أُخذت هذه العبارات بعيداً عن سياقها فإنَّه

يمكن أنْ تتَّسع لتعني أنَّ اليَهُوْد قاموا بتغيير وتحريف النصِّ المُقَدَّس. لكنَّها يجب أنْ تُؤَوَّل في تناسقٍ ضمن السياق الطبيعيِّ للنصّ، وكذلك من منظور القُرْآن العامّ بشأن القضية. إنَّ دراسةً دقيقة لِلقُرْآنِ، وبارتباطه مع حياة مُحَمَّدٍ، تقنعني بأنَّ اتِّهام الاختلاق ليس مبرَّراً من سياق النصّ، بل هو يتعارض مع الآراء المُعبَّر عنها في آيات عديدة كثيرة؛ وفي واقع الأمر، فإنَّ الموقفَ الذي يتَّخذه المُحَمَّديّون متعذِّر الدّفاع عنه بالإجمال.

يُشار في كلِّ مكانٍ من القُرْآن إلى العهدَين القديم والجديد على أنَّهما موجودان وأنَّهما قيدا التّداول؛ ويُحضُّ اليَهُوْدُ والمَسِيحِيُّون على اتِّباع تعاليم كتبهم المُقَدَّسة الخاصَّة؛ ومن البداية إلى النهاية يرد الحديث عن قسمَي الكِتَاب المُقَدَّس بلغةِ التوقير والإجلال المتساوقَين بدون شكٍّ مع الإيمَان المخلص في أصالتهما وصحَّتهما. إنَّ العبارات المُشار إليها في المقطع السابق يُمكن تكون مفسَّرةً على نحو طبيعيٍّ بالضبط وفقاً لهذه النظرة، ومن ثمَّ من الواجب أنْ تُؤَوَّلَ حسبها، وليس في معنى يعاكس بقيَّة نصِّ القُرْآن.

ولكي يتمَّ إصدار حكمٍ تامٍ وقاطعٍ علينا أنْ نبيِّنَ هنا أنَّ هدف القُرْآن العامَّ هو كما عرضنا في هذا الموضع، وأيضاً بأنَّه لا يمكن أنْ نجدَ أيَّ نصٍّ في القُرْآنِ يخالف هذا المعنى بالضرورة. ولأجل هذه الغاية، فإنَّ الاستعراض يحتاج إلى أنْ يكون شاملاً، ويجب أنْ نضع كلَّ آية تشهد مباشرةً أو ضمناً للكتب موضع الدرس، كما تلك التي ذُكرت بجلاء.

إنَّ غاية هذه الدراسة أنْ تقدِّمَ المجموع الكامل للشّهادة المحتواة في القُرْآن، ومنها يُستنتج بأنَّ الكُتب اليَهُوْديَّة والمَسِيحيَّة ، كما كانت قائمة في عصر مُحَمَّدٍ، كان يُنظر إليها على أنَّها أصيلة وذات مصدرٍ إلهيّ. إنَّ الكِتَابَ موجَّه للمُحَمَّديِّين، وقد نُظمَ بصيغة ملائمة لترجمته إلى اللغات الشرقيَّة. ونُشر لأوَّل مرَّة في أكرا، سنة 1855، وأُعيد طبعه الآن مع بعض التّعديلات

الطفيفة كدراسة إضافيَّة للموضوع المقترح.

أوردتُ الآيات القُرْآنِيَّةَ باللغة العربيَّة الأصليَّة وبالإنجليزيَّة. وحيث ما دعت الحاجة، فإنَّها شُرحت، وتمَّ تقديم شهادتها لصالح الحجَّة الكِتَابيَّة؛ وإنَّ تفسير الشارحين الأساسيِّين اقتُبِسَ أحياناً. وتجعلُ هذه العمليَّة تكرار بعض الحجج حتميَّاً، وقد أُعيد تلخيص النقاط الرئيسة في القسم الختاميِّ. وإنَّ القارئ الذي يُبقي في ذهنه مخطَّط المجموعة سيصفح عن الخلل.

تمهيد

إنَّ الغاية الّتي أصبو إليها في الصفحات التالية، أنْ أجمعَ سويًّاً، جميع الآيات من القُرْآن، التي تتَّصل بأيِّ شكلٍ بالكُتب اليَهُوْديَّة والمَسِيحيَّة، كما كانت موجودة في عهدِ مُحَمَّدٍ، بحيث يدرك المُحَمَّديُّون أنَّ كتبَ العهدَين القديم والجديد لم تُذكر في القُرْآن إلاّ بتوقير كبير، وربَّما يلفت ذلك انتباههم إلى أصلها الإلهيِّ، وقيمة تعاليمها التي لا تُقدَّر بثمن.

إنَّ ترتيب الآيات سيكون، بقدر الإمكان، تاريخيّاً. فالأجزاء التي وردت في السّور المَكِّيَّة، وهي قبل الهجرة، ستشكِّل القسم الأوَّل، وتلك التي نزلت في يَثْرِبَ، بعد الهجرة، ستكوِّن القسمَ الثانيَّ. ورغم أنَّ الترتيب العامَّ لسور القُرْآن صار معروفاً من محتوياتها على وجه التقريب، فإنَّه ثمَّة خلاف بالرأي جدير بالاعتبار بين العلماء المُحَمَّديِّين بصدد بعض التفاصيل. إنَّ الكاتبَ، وبعد أنْ عادَ إلى القائمة الكرنولوجيَّة لسور القُرْآن التي قدَّمها الكتَّاب المُحَمَّديّون وآخرون، قام بترتيب الآيات في تعاقب كرونولوجيٍّ، على أفضل ما بوسعه. إلَّا أنَّه ما زال ممكناً هنا ملاحظة وجود بعض التعارضات في الترتيب، لكنَّها لن تؤثِّر على قيمة المجموعة؛ ذلك أنَّ الآيات الممتدَّة على كامل حقبة رسالة النَّبِيِّ، وعلى طول العهد، تقدِّم نظرةً ثابتةً بصدد الكُتب اليَهُوْديَّة والمَسِيحيَّة.

كما تشغل قصص الأحداث المسجَّلة في كُتب اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين قسماً هامَّاً من القُرْآن. أمثال هذه القصص تُظهر تطابقاً شديداً بشكل متكرِّر للغاية ـ في بعض الأحيان حتَّى في الكلمات والشكل وصيغة التعبير اللغويَّة ـ مع المقاطع المتناظرة من الكِتَاب المُقَدَّس. ونجد أمثلة عديدة لهذا الشبه في

روايات سقوط آدم وحوَّاء؛ وفي قصص نوحَ والطوفان؛ وإِبْرَاهِيم وسارة، وإِسْحٰقَ، ولوط، وتدمير سدوم وعَمُورة، وفي تواريخ مُوسَى ويُوسُف؛ وزَكَرِيَّا، ويوحنَّا المعمدان، ويسوع المسيح، بما في ذلك بشارة جِبْرِيل به، وحمل مَرْيَمَ العذراء له، وميلاده. وبوسعنا من نظائر هذه التشابهات تقديم الحجَّة لتبيان كم هي عديدة نقاط الكِتَاب المُقَدَّس التي تلقى دعماً من القُرْآنِ. بيد أنّه لم تتمَّ مقاربة هذا الموضوع. إذْ أُنجز البرهان بدون الإشارة إلى هذه التطابقات، التي سيدرسها المسلم عميق التفكير بدون شكٍّ منفرداً، عبر إجراء مقارنة دقيقة لِلْقُرْآنِ مع الكتب المُقَدَّسة.

ثمّة فئة أخرى من الآيات، مع إنَّها تقع بالضبط تحت ظلِّ هدف مجموعة النّصوص هذه، لكنْ لم يكنْ ثمَّة من ضرورة لاقتباسها تفصيلاً، بل اكتفينا بالإشارة إليها هنا على وجوه العموم فحسب.

إنَّ اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين يُسمَّون عادةً في القُرْآن: ـ

أَهْلِ الكِتَاب ـ الذين آتَيْنَاهُمُ الكِتَاب ـ الذين أُوتُواْ الكِتَاب ـ أَهْلُ الإِنجِيل.

أو:

أَهْلَ الذِّكْرِ ـ الذين أُوْتُواْ نَصِيباً مِّنَ الكِتَاب.

إنَّ هذه العبارات متفرِّقة بين دفَّتي القُرْآن وتتكرَّر حوالي خمسين مرَّة. إذْ كان من المعروف على نطاق واسع حقيقة أنَّ اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين يحوزون كتاباً متداولاً ومنزلاً من الإله، وهو يمنح القُرْآن اسمه الأكثر شيوعاً. إنَّ العبارات مألوفة للغاية لكلِّ قارئٍ، وتُصادَف كثيراً، وسيكون عملاً زائداً وغير مناسبٍ إيراد مختلف الآيات التي تحتويها في هذه المجموعة بالتفصيل.

بالنسبة للآيات الأخرى، فربَّما يتراءى للقارئ أنَّ لبعضها اتِّصالاً بعيداً بالموضوع، بيد أنّنا آثرنا التعرُّض لهذا النقد على صبغ مختاراتنا هذه بشبهة

وجود نقيصة، أو أنَّ هذه الآيات أُختيرت لأنَّها ملائمة للحجَّة المَسِيحيَّة. وبناءً على ذلك، فإنّ كلَّ آيةٍ ـ بعد فحص دقيق ومكرَّر لكامل القُرْآن ـ بدت أنّها تحتوي أدنى إشارة إلى الكتب اليَهُوْديّة والمَسِيحيَّة أُدرجت في المجموعة.

القسم الأوّل

الآيات من السّور المنزلة في مكّة

1. إنَّ الآية الأولى، حسب التّرتيب التّاريخي لِلقُرْآنِ، التي تحتوي عبارةً تشير إلى الكِتَاب المُقَدَّس هي:

سُوْرَةُ الأَعْلَى (87/ 18ـ19).

إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى

صُحُفِ إِبْرَاهِيم وَمُوسَى.

تعليق الجلالين: «﴿إِنَّ هَذَا﴾: إفلاح من تزكّى، وكون الآخرة خير. ﴿لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾: المنزلة قبل القُرْآن».

2. وبشكل مماثل، سُوْرَةُ النَّجْمِ (53/ 36ـ39).[1]

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى،

وَإِبْرَاهِيم الذي وَفَّى؟

أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى،

(1) سورة مَكّيّة من حقبة متأخّرة، أوردنها هنا لأنَّ لها نفس المعنى لما في الفقرة الأولى.

وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى، ...

يشير هذا الشّاهد، مثل الأوّل، إلى الكُتب السابقة المنزلة؛ وإضافةً إلى ذلك، يحتوي على مُجْمَل لمضامينها العامَّة، كمسؤوليَّة الإنسان، الثواب والعقاب في يوم الحساب، وقوَّة وعناية الإله، الخ. وهي تنتهي بهذه الكلمات: ﴿هَذَا (مُحَمَّد) نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾.(1)

إنَّ الإشارة إلى ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيم﴾، يُقصد بها على الأغلب صُحف تاريخه وأقواله، الموجودة في العهد القديم. إذْ أنَّ اليَهُوْد لا يتداولون كتاباً باسم «كتاب إِبْرَاهِيم». ولا يوجد أيُّ إلماح في كلِّ القُرْآن إلى ما يمكن أنْ يدفعنا إلى الاعتقاد أنَّ مُحَمَّداً كان يقصد أيَّ كتابٍ آخر غير أسفار مُوسَى الخمسة أو الكُتب المُقَدَّسة والتي كانت قيد التداول بين يَهُوْد زمنه، وهي الكتب التي كانوا يعتبرونها منزلةً.

3. سورة عبس (80/ 11 ـ 16).

كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ،

فَمَن شَاء ذَكَرَهُ؛

فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ،

مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ،

(مكتوبة) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ،

كِرَامٍ بَرَرَةٍ.

يبدو أنَّ هذه الآيات تتعلّق بالقُرْآن؛ لكنْ، حسب بعض المفسِّرين ذوي الشأن، تُفهم بأنّها تعني: «كتب الأنبياء السابقين، والتي يوافقها القُرْآن»، ولهذا

(1) سُوْرَةُ النَّجْمِ (53 / 56).

أوردناها هنا إكمالاً للمجموعة.

4. سُورَةُ السَّجْدَةِ (32/ 23 ـ 25).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ؛ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ، وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا، لَمَّا صَبَرُوا، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

إنَّ الكِتَابَ المُشار إليه هو الأسفار الخمسة، التي أنزلها اللهُ ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. ويُؤمر مُحَمَّدٌ في هذه الآيات بألّا يشكَّ بأنّه يتلقّى الوحي، وأنْ يقرَّ بإلهيَّته.

البعضُ يؤوِّل الكلمات بأنَّه يتوجَّب على مُحَمَّدٍ ألّا يشكَّ بتلقي القُرآن، أو بلقاء مُوسَى، أو بتلقّي كُتب مُوسَى الخمسة؛ كما يقول البَيْضاويّ: «من لقائك (مُحَمَّد) الكِتَاب (القُرآن)، أو من لقاء مُوسَى الكِتَاب (الأسفار الخمسة) أو من لقائِك مُوسَى».

بأيِّ حال، إنَّ هذه التّفسيرات لا تؤثر على الشَّهادة لِكِتَابَ مُوسَى الواردة في النصِّ.

إنَّ المقطع يتضمَّن، فوق ذلك، استمرار وجود العهد القديم بين الإِسْرَائِيليِّين. وقد خصَّهم اللّه بوصف ﴿أَئِمَّةً﴾، أو معلمين، الذين يرشدون حسب وصايا اللّهِ؛ وهذا يعني، حسب الأوامر المُبلغة في الآيات المذكورة أعلاه:

«يهدون الناس إلى ما فيه من الحكم والأحكام بأمرنا إيَّاهم أو بتوفيقنا لهم» - البَيْضاوِيّ.

إنَّ الشعب اليَهُوْديَّ، في تلك الأزمنة حافظ على الديانة، وكان ثابتاً على الإيمَان الصَّادق بالوحي؛ «يوقنون لإمعانهم فيها النظر» (م.ن). بيد أنَّهم تفرَّقوا بعد عصور، إمَّا فيما بينهم، أو مع المَسِيحِيِّين، كما تشعَّبت آراؤهم في معنى كتبهم؛ وقد أضاف: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ فِيمَا يَخْتَلِفُونَ﴾.

يعني النصُّ ضمناً أنَّ الكُتب المُقَدَّسة كانت محفوظةً ونُقلت بين اليَهُوْد بنقاء، رغم أنَّ الاختلافات دبَّت في تأويلهم لها، وفي تعاليمهم الناشئة عنها.

5. سُوْرَةُ الزُّمَرِ (39/ 64_65).

قُلْ: أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ؟

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ، وَإِلى الذين مِنْ قَبْلِكَ، لَئِنْ أَشْرَكْتَ؛ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ.

لقد رُوي بأنَّ هذه العقيدة نزلت على مُحَمَّدٍ نفسه، كما ﴿إلى الذين مِنْ قَبْلِكَ﴾ - «أي من الرّسل». البَيْضاوِيّ.

إنَّ هذه شهادة على صفاء التعاليم المُنزلة على من سبقَ مُحَمَّداً من الأنبياء، كما وُجدت في كتبهم الموجودة في زمنه.

6. سُوْرَةُ القَمَرِ (54/ 43)

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ.[1]

﴿الزُّبُرِ﴾: «الكُتب» - (الجلالين)، أو «الكُتب السماويَّة» - (البَيْضاوِيّ). من الجليِّ أنَّ العبارة تُشير إلى الكُتب المُقَدَّسة الموجودة، والتي يُحال المَكِّيّون

(1) أَكُفَّارُكُمْ [أيها المَكِّيّون] خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ [أي من أهل نوحٍ، ولوط، ومُوسَى، الخ، الَّذين أُشير إليهم للتو] أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ.

إلَيها، لبيان أنَّه ليس من حصانة لِلكفّار أو الوثنيِّين في أيٍّ من الكُتب المنزلة. إنَّ المقطع ليس ذا شأنٍ، بيد أنَّه قُدِّم لتميم الهدف.

7. سُوْرَةُ سَبَإٍ (34/ 6).

وَيَرَى الذين أُوتُوا العِلْمَ الذي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهْدِي إلى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ.

﴿العِلْمَ﴾: يعني المعرفة بالكُتب المنزلة السابقة. ﴿الذين أُوتُوا العِلْمَ﴾ تعني: «مؤمنو أهل الكِتَاب [كعبد اللّهِ بنِ سلاَّم وأصحابه]» - (الجلالين).

إنَّ معنى الآية معزّز بمقاطع كثيرة مشابهة سترد فيما بعد، وهو أنَّ أولئك الذين لديهم الوحي الذي تحتويه الكتب المُقَدَّسة اليَهُوْدِيَّة والمَسِيحيَّة، يقرُّون بالعلم الإلهيِّ المشتقِّ منها، وأيضاً بأنّ القُرْآنَ وحيٌ حقٌّ.

8. سُوْرَةُ سَبَإٍ (34/ 31).

وَقَالَ الذين كَفَرُوا: «لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا القُرْآنِ، وَلاَ بِالذي بَيْنَ يَدَيْهِ[1]».

﴿الذي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ - الموجود في ذلك الحين، والذي يتقدَّم القُرْآن.

يشرح البَيْضاوِيّ: بأنَّ الكافرين يقولون: «لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا القُرْآنِ، ولا بما تقدَّمه من الكُتب الدّالة على البعثِ». ويضيف الجلالين: «كالتَّوْرَاة والإِنجِيل».

إنَّ مُحَمَّداً في جداله مع أهل مَكَّة، احتكمَ إلى الكُتب اليَهُوْدِيَّة والمَسِيحيَّة، كما إلى القُرْآن أيضاً، لإثبات البعث الذي يرفضونه. بيد أنَّ المَكِّيِّين أجابوا بأنَّهم لا يؤمنون لا بالأولى ولا بالثانية.

(1) ﴿وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أيْ: ولا بالذي أُوحي من قبل.

لاحظ، كيفيَّة إظهار أهلِ مَكَّة، هنا وفي مكان آخر، عندما يدور الحديث عن الكتب اليَهُوْديّة والمَسِيحيَّة؛ أنّهم يعرفون الكتب الموجودة والمتداولة حولهم.

9. سورة فصلت (41/ 45).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَاب، فَاخْتُلِفَ فِيهِ.

10. سورة الجاثية (45/ 16 ـ 17).

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَاب، وَالحُكْمَ، وَالنُّبُوَّةَ؛ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العَالَمِينَ.

وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ (الدين)؛ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمْ العِلْمُ، بَغْياً بَيْنَهُمْ. إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

إنَّ هذا المقطع، وإلى جانب أنَّه يشهد على الأصلِ الإلهيِّ لِلكُتبِ المُقَدَّسة اليَهُوْديَّة، يوضح ماهيَّة الأخطاء التي قيل إنَّ أصحاب هذا الوحي وقعوا فيها. إنّ الوحي (العِلْمُ) يحتوي على ﴿بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾، ومع ذلك فإنّهم تنازعوا فيما بينهم؛ ويبدو أنَّه يشير إلى الاختلافات بين اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين، والتي أُرسل مُحَمَّد ـ حسب القُرْآن ـ لتسويتها بشكل قاطع. وكانت هذه الاختلافات قد نشأت ـ حسب مفهوم النصِّ ـ نتيجةً للأهواء، والغيرة، والتحاسد فيما بينهم؛ وليس جرَّاء أيِّ نواقص في كتبهم المُقَدَّسة.

11. سُوْرَةُ الصَّافَّاتِ (37/ 35 ـ 37).

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ»؛ يَسْتَكْبِرُونَ،

وَيَقُولُونَ: «أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ؟»

بَلْ جَاءَ بِالحَقِّ وَصَدَّقَ المُرْسَلِينَ.

هنا إذاً، وفي معرض ردِّه على خصومه في مَكَّة، كانَ الدفاع الرئيس للنَّبيّ ضد وصفهم له بأنَّه ﴿شَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾، أنَّه جاء بالوحي وشهد على وحي المُرْسَلِينَ السابقين.

12. سُوْرَةُ الصَّافَّاتِ (37/ 114 ـ 118).

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ،

وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ؛

وَنَصَرْنَاهُمْ، فَكَانُوا هُمُ الغَالِبِينَ؛

وَآتَيْنَاهُمَا الكِتَاب المُسْتَبِينَ،

وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ.

﴿الكِتَاب المُسْتَبِينَ﴾: هو التَّوْرَاة. - (البَيْضاوِيّ؛ والجلالين).

13. سورة الشعراء (26/ 192 ـ 197).

وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ؛

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ

عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ،

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ.

وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ.

أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ؟

لكي يبرهن مُحَمَّدٌ أنَّ القُرْآن وحيٌ حقٌّ، فإنَّه خاطب أبناء بلده المَكِّيِّين،

وأكّد ﴿إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾؛ يعني، كما ذُكر في ذلك الموضع، أو على الأعمّ الأغلب، يحتوي وحياً ذا معنى مشابه. وهذه وجهة نظر البَيْضاوِيّ: «إنّ ذكره (القُرْآن) أو معناه لفي الكتب المتقدّمة». وإنّ ﴿زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾، هو التنزيل اليَهُوْديُّ والمَسِيحِيُّ، ويقول الجلالين: «كالتَّوْرَاة والإنجِيل».

ولتقوية الحجّة فإنّ تفسير الجلالين يقول بأنّ بني إِسْرَائِيل العالمين بالكتب، يقرُّون بأنّ القُرْآنَ من عند اللّه لأنّه مشابه لِمَا في كتبهم: «﴿وَإِنَّهُ﴾: ذكر القُرْآن المنزل على مُحَمَّد ﴿لَفِي زُبُرِ﴾: كتب ﴿الأَوَّلِينَ﴾ كالتَّوْرَاة والإنجِيل». ويقول البَيْضاوِيّ: «... أنْ يعرفوه بنعته المذكور في كتبهم».

لا نحتاج هنا إلى فحص قناعةِ مُحَمَّد بأنّ الكتب السابقة أنبأت حقّاً أنّه نبيٌّ حان خروجه؛ أو أنّ بعضَ علماء اليَهُوْد، وكانوا يصدّقون شهادته الجديّة وتصديقه على كتبهم، قد قاموا بتقديم دليلهم في صالح تنزيله ورسالتِه؛ ذلك أنّ شاغلنا هنا ليس البحث عن أسس مثل هذا الإيمَان أو الشهادة، بل همُّنا لفت الانتباه إلى الطريقة التي يتحدَّث بها عن الكُتب اليَهُوْديّة في النّصّ مثل الكُتب المتداولة بين اليَهُوْد؛ تلك الكتب، التي يُزعم بأنّ في محتوياتها شبهاً وثيقاً لِمَا في القُرْآن، بحيث قدَّم التّطابق في الجدل مع المَكِّيِّين كبرهان على تنزيل القُرْآن نفسه؛ والحجَّة دُعمت بشهادة العلماء اليَهُوْد الذين كانوا على إطلاع على الكُتب المُحتكم إليها.

لا يمكن لمثلِ هذا المنهج إلاَّ أنْ يعتبرَ الكتب الموجودة أصيلةً، وموثوقةً؛ إنَّ الكُتب المُقَدَّسة المُعترف بها على الأقلّ من قِبل مُحَمَّد هي كذلك؛ ويُنظر إليها أنّها فوق شبهة فساد أو تحريف.

14. سُوْرَةُ الأَحْقَافِ (46/ 4).

اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ.

إنَّ مُحَمَّداً يتحدّى قُرَيْشاً بأنْ يأتوا بأيِّ كتابٍ منزلٍ، أو باقٍ من معرفة إلهية أو وحي (عِلْم). وضد إدانة النَّبِيِّ للوثنية، فإنَّ قُرَيْشاً ردّت عليه، دعماً لعقيدتها، بأنَّ الوثنية قد أُجيزت من اللّٰهِ، أو إنّ الأوثان وسائل للتقرّب منه.

لم تُذكر الكُتب اليَهُوْديَّة والمَسِيحيَّة بشكلٍ مباشرٍ، بيد أنَّ مُحَمَّداً لم يكن بوسعه أن يحتكم إليها فعليّاً لو كانَ الشكُّ يساوره بأنَّها كانت تحتوي أيَّ شيء ـ إمَّا بالأصل أو بالإقحام ـ يحابي غير العبادة الخالصة للّه الواحد. إنَّ الآيَةَ تعني: «بوسعكم أنْ تبحثوا كلَّ الكُتبِ السابقة، بيد أنَّكم لن تجدوا فيها كلمةً واحدةً دعماً لموقفكم».

15. سُوْرَةُ الأَحْقَافِ (46/ 10).

قُلْ: أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ، وَكَفَرْتُم بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ؛ وَاسْتَكْبَرْتُمْ. إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.

كانَ ثمَّةَ يَهُوْديٌّ مقيمٌ إمّا في أطراف مَكَّةَ، أو أنَّه كان يزورها من يَثْرِب أو من مكان آخر ـ وهو معروف في مَكَّةَ على أيِّ حالٍ ـ فأُستشهد به أمام المَكِّيِّين على أنّه يحمل شهادة تطابق القُرْآن مع الكُتب اليَهُوْديّة، ولذلك فهو يؤمن به. يقول مُحَمَّدٌ: «ألا يبرهن ذلك على المصدر الإلهي لِلْقُرْآنِ، وأنتم تستكبرون؟»

يقول البَيْضاوِيّ:

«﴿عَلَى مِثْلِهِ﴾: مثل القُرْآن، وهو ما في التَّوْرَاةِ من المعاني المُصدَّقة للقُرْآن، المطابقة له؛ أو مثل ذلك، وهو كونه من عند اللّٰهِ. ﴿فَآمَنَ﴾: أي بالقُرْآن لمَّا رأى من خبر الوحي مطابقاً للحقّ».

على ذلك فإنَّ القُرْآنَ يحتكم إلى شهادة يَهُوْديٍّ، الذي (كما يُزعم) يجد معاني تنزيل مُحَمَّدٍ متطابقةً مع فحوى كتبه المُقَدَّسة المنزلة من اللّٰهِ، والذي

وصل إلى استنتاج بأنَّ القُرْآن كان منزلاً من اللّه أيضاً. إنَّ الاحتكام في الواقع، كما في مكان أخر، إلى الكُتب المُقَدَّسة نفسها، المتداولة بين اليَهُود آنذاك؛ يعني ضمناً أن مُحَمَّداً لم يكنْ ينظر إليها على أنّها منزلة وجديرة بالاعتماد فحسب، بل أنّها خالية من التحريف، وأصيلة.

16. سُوْرَةُ الأَحْقَافِ (46/ 11ـ12).

وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ: هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ. وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى، إِمَاماً وَرَحْمَةً؛ وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ، لِّسَاناً عَرَبِيّاً، لِّيُنذِرَ الذين ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ.

لقد رفضت قُرَيْش القُرْآنَ بوصفه «إِفْكاً قَدِيماً»؛ وعلى الأرجح كانت تعني بذلك أنّه اختُلِقَ من الكُتب السابقة، ولُفِّق على أنّه جديد. وقد ردَّ مُحَمَّدٌ على ذلك بأنَّ كتاب مُوسَى كان ـ حسب اعترافهم الخاصّ ـ ﴿إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾؛ وأنَّ القُرْآن لم يكن تلفيقاً، بما أنّه معدٌّ بشكل رئيس لتصديق (لاستعمال العرب، وبالتّالي باللّسان العربيّ) كتاب مُوسَى نفسه، أو الكُتب المُقَدَّسة التي سبقته عموماً. وبهذا يقولُ البَيْضاوِيّ: «مصدّق لِكتاب مُوسَى أو لِمَا بين يديه».

إذاً، إنَّ القصد الرئيس، أو على أيِّ حالٍ، أحد مقاصد القُرْآنِ الأساسيَّة، كانَ تزويد العربَ بلغتهم الخاصَّة بالمصادقة على الوحي السابق.[1] إنَّ القُرْآنَ

(1) كانَ ذلك، بدون شكٍ، هدفاً صادقاً وحقيقيّاً لمُحَمَّد عند هذه المرحلة من رسالته، ولاحقاً، فإنَّ غاية المخطَّطات تغيَّر مع ظروفه؛ وفي يَثْرِبَ باكتمال الإسلام، فإنَّ القُرْآن لم يعدْ بعد الآن مجرَّدَ تصديق للكتب السَّابقة. بل أصبح في نهاية المطاف، الكِتَاب الأكثر جدارة بالاعتماد، وإنَّها مشيئة اللّهِ التّي قامت بنسخها برمَّتها. وليس من المناسب، مع ذلك، إثارة هذه النّقطة بتوسُّع، لأنّها ستثير حفيظة المسلمين، والهدف هنا هو جذبهم إلَى كتبنا المُقَدَّسة، وليس إلى تنفيرهم بإثارة روح الشقاق والعداء.

لم يهدفْ إلى أنْ يحلَّ محلَّ الكتب اليَهُوْدِيّة؛ بل أُريد به أنْ يكونَ «تصديقاً» للكتب، وسهلَ الوصل للعرب، وبالتّالي باللغة العربيَّة، ذلك أنّ الكُتب السابقة لم يكن لها أنْ تلعب هذا الدورَ لأنّها كانت بلسانٍ أجنبيٍّ. وردّاً على اتِّهام قُرَيْش لمُحَمَّد بأنَّ قرآنه كان إِفْكاً قَدِيماً، فإنَّه قدّم برهانَه على أنَّ القُرْآن كانَ توكيداً للكُتب المنزلة السابقة.

بكلِ تأكيدٍ، إنَّ مثل هذه اللغة منسجمةٌ فقط مع حالة أنَّ مُحَمَّداً كانَ يعتبرُ الكُتبَ اليَهُوْدِيَّة إلهيَّة وأصليَّةً تماماً.

17. سُوْرَةُ الأَحْقَافِ (46/ 29 ـ 30).

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآن فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا: أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ؛

قَالُوا: يَا قَوْمَنَا! إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى، مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ؛ يَهْدِي إِلى الحَقِّ، وَإِلى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ.

تعني ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مصدِّقاً لِمَا قبله، أيْ الكُتب السابقة. وهذا المعنى يرد عند الجلالين: «﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي تقدَّمه كالتَّوْرَاة».

إنَّ وصف الجنِ الوحيَ الجديدَ لإخوانهم، كان بأنّه يصدِّق ويؤكِّد الحقيقة الخاصَّة بالكُتب السابقة. وقد كانَ ذلك مَعْلَمَه البارز، وهدفه الرئيس، الذي قاموا بتوصيفه وتمييزه بهما.

ويُلاحظ هنا أنّه يجاري بشكلٍ تامٍ المقطع الأخير المستشهد به. (ف 16).

18. سُوْرَةُ فَاطِرٍ (35/ 25).

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ، فَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ (أنبياءَهم)، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم

بِالبَيِّنَاتِ، وَبِالزُّبُرِ وَبِالكِتَابِ المُنِيرِ.

إنَّ المقصود هنا بشكل واضح: الأنبياء والكُتب اليَهُوْديّة والمَسِيحيَّة.

19. سُوْرَةُ فَاطِرٍ (35/ 31).

وَالذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ.

﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: للكتب المُقَدَّسة التي أُوحيت قبله. وبهذا المعنى يقول الجلالين: «تقدَّمه من الكُتب»، والبَيْضاوِيّ: «لِما تقدَّمه من الكُتب السماويَّة».

يُذكر هنا تصديق وتأكيد الكتب السابقة على أنّها سمة تصف تنزيل مُحَمَّدٍ.

20. سُوْرَةُ مَرْيَمَ (19/ 12).

يَا يَحْيَى! خُذِ الكِتَابِ بِقُوَّةٍ؛ وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيّاً.

إنّ اللّهَ (الذي يتحدَّث هنا) يأمر يوحنًّا المعمدان بأنْ يأخذ الكِتَاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾، أيْ الكِتَاب من كتب اليَهُوْد المُقَدَّسة (التَّوْرَاة) ـ (الجلالين والبَيْضاوِيّ). إنّه لإقرارٌ بأنَّ الكتب اليَهُوْديّة المُقَدَّسة الموجودة في عهد يوحنًّا ويسوع، أصيلة وغير محرَّفة.

21. سُوْرَةُ مَرْيَمَ (19/ 29ـ30).

فَأَشَارَتْ (مَرْيَمُ) إِلَيْهِ (يسوع الطّفل)؛ قَالُوا: «كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المَهْدِ صَبِيّاً ؟».

قَالَ (يسوع الطفل): «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الكِتَابِ (أي الإنجيل)، وَجَعَلَنِي

نَبِيّاً﴾.

ليس ثمّة الكثير في هذا المقطع غير ذكر الأصل الإلهيّ للإنجيل.

22. سُورَةُ الشُّورَى (42/ 1 ـ 3).

حمٓ

عٓسٓقٓ

كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ، وَإلى الذين مِن قَبْلِكَ، اللَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ.

بالنسبة لأسلوب وشكل الوحي، فإنَّ القُرْآنَ يضع هنا نفس المعيار الذي يخصُّ الكُتب المُنزلة على الأنبياء السابقين. إنَّ كُتب اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين المُقَدَّسة قد أُوحي بها بنفس طريقة وحي القُرْآن، إنَّ المسلمين ملزمون بتوقيرها بالمثل أيضاً.

23. سُوْرَةُ الشُّورَى (42/ 13).

شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً، وَالذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيم، وَمُوسَى، وَعِيسَى؛ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ، وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى المُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ.

يُعرِّف مُحَمَّدٌ الإسلام في القُرْآن أنَّه نفس الدين، مثل الذي أوحي إلى نُوح، وإِبْرَاهِيم، ومُوسَى، وعيسَى، أي ديانة العهدَين القديم والجديد: اليَهُوْديَّة والمَسِيحيَّة .

24. سُوْرَةُ الشُّورَى (42/ 14 ـ 15).

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العِلْمُ (الوحي) بَغْياً بَيْنَهُمْ: وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ، إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ. وَإِنَّ الذين أُورِثُوا الكِتَاب مِن

بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ.

فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ (النّاس إلى الدّين الحقّ) وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ، وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ! وَقُلْ: «آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ؛ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ. لَنَا أَعْمَالُنَا، وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ. لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ. اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا، وَإِلَيْهِ المَصِيرُ\».

إنَّ المقطع أعلاه يتبع نهاية النَّص السابق (ف 22) حيث يرد ذكر أنبياء اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين، والديانة الواحدة الصحيحة.

لقد تمَّ التأكيد هنا على أنَّ الذين أتى إليهم الوحي بصدد الديانة الحقَّة، أيْ، اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين، وقعوا في الاختلاف بعد تلقِّيهم العِلْمَ؛ وأنَّ غضب اللّهِ سيحيق بهم مباشرةً، عن حقٍّ، لعداوتهم، بيد أنّهم أُمهلوا حتَّى يوم القضاء، وأنَّ أولئك الذين ورثوا الكُتب بعدهم، أيْ يَهُوْد ومَسِيحِيِّي زمن مُحَمَّد، كانوا في شكٍّ وحيرة فيما يتعلّق بمعناها الحقيقيّ. وعلى هذا فإنَّ المفسِّرين قالوا: «﴿الذين أُورِثُوا الكِتَاب﴾ وهم اليَهُوْد والنصارى»:

«يعنى أهل الكِتَاب الذين كانوا في عهد الرَّسولِ» - (الجلالين).

«﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ ومن كتابه لا يعلمونه كما هو؛ أو لا يؤمنون به حقَّ الإيمَان» - (البَيْضاوِيّ).

إذاً، إنَّ مُحَمَّداً يدعوهم للإيمان الحقِّ، ويحثُّ نفسه على الثبات في العقائد التي أنزلها اللّهُ، وألّا يتّبع أوهام اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين العقيمة. وعليه في نفس الوقت أنْ يعلنَ إيمانَه بكلِّ ما أوحى اللّهُ به إليهم، وأنْ يقولَ إنَّه مفوَّضٌ من اللّهِ بالفصل في اختلافاتهم وخلافاتهم. وعليه أن يعلِّمهم أنَّ إلههم وإلهه واحد وعينه؛ وأنَّ أعمالَ أهلِ الكِتَاب، وأعمال بني قومه ستقبل على قدم مساواة؛

وأنْ ليس من سبب فعليٍّ للخلاف والتصدُّع فيما بينهم (قارن، ف 10).

يتبيَّن في هذا المقطع: أولاً، إنَّ مُحَمَّداً يتحدَّث بشأن الكُتب اليَهُوْديّة والمَسِيحيَّة كما ورثها يَهُوْد ومَسِيحِيُّو زمنه، وكما كانت موجودة آنذاك، ومتداولة بالعموم بينهم. ثانياً، عبّر عن إيمانه بتلك الكُتب بعبارات قاطعة، والتي تعني ضمناً أنّها كانت تُعتبر أصيلة وغير محرَّفة. ثالثاً، إنَّ السَّبب الوحيد للجدل بينه وبين يَهُوْد ومَسِيحِيّي عصره، كان الشكوك المزعومة والاختلافات التي وقعوا فيها، وتأويلاتهم وعقائدهم الباطلة، وعداواتهم واستحكام الشِقاق فيما بينهم. وليس ثمَّة من خلاف أساسيٍّ بين مُحَمَّدٍ وبينهم؛ و﴿لاَ حُجَّةَ﴾ أو أرضيَّة للنزاع. وقد أعلنَ مُحَمَّدٌ بأنَّه مُرسَل ليسوِّي أخطاءَهم وخلافاتهم، التي ليس لها أساس من الناحية الواقعيَّة من كتبهم المُقَدَّسة. وبعد أنْ أقرَّ مُحَمَّدٌ بإيمانه في كتبهم أضاف: ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾.

إنَّ المغزى الكلِّيَّ للمقطع يتعارض بشكلٍ مباشرٍ مع أيِّ تهمةٍ ضدَّ الأصالة أو ضدَّ المصدر الإلهيِّ للكُتب المُقَدَّسة: إنْ كانت يَهُوْديّةً أو مَسِيحِيَّةً.

25. سُوْرَةُ غَافِرٍ (40/ 53ـ55).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الهُدَى، وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ،

هُدىً وَذِكْرَى لأُولِي الالبَابِ.

فَاصْبِرْ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ.

يتّفق المفسِّرون على أنَّ الكِتَابَ المذكور هنا يُقصد به التَّوْرَاة أو الكُتب الخمسة. إنَّ الأجيال كانت تتوارث كُتبَ العهد القديم من جيل إلى آخر بعناية الله ﴿هُدىً وَذِكْرَى لأُولِي الأَلبَابِ﴾. إنَّ الحقيقة الواردة في النصِّ هي حجَّة

تفسِّر لماذا توجَّب على مُحَمَّدٍ أنْ يكون صبوراً وواثقاً بيقينيَّة وعدِ اللّهِ له.

26. سُوْرَةُ غَافِر (40/ 70-72).

الذين كَذَّبُوا بِالكِتَاب، وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ؛

إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ، وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ؛

فِي الحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ.

لم يُنذرْ بهذه العقوبات القاسية، أولئك الذين كذَّبوا بالقُرْآن فقط، بل ﴿الذين كَذَّبُوا بِالكِتَاب، وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾، أيْ بالكُتب اليَهُوْديَّة والمَسِيحيَّة المُقَدَّسة. إنَّ كلا الوحيَين وُضعا في نفس المكان، وكانت عاقبة رفضهما واحدة.

وعندما يسقط مسلمو يومنا الحاضر في إغراء الحديث بضغينة عن الكتب اليَهُوْديَّة والمَسِيحيَّة المُقَدَّسة، وعن محتوياتها الإلهيَّة، فليفكِّروا مليَّاً بتلك الآيات القُرْآنيَّة مثل التي وردت أعلاه، لِئلاً يتعرَّضوا لخطر العقوبة المُشار إليها هنا.

27. سُوْرَةُ الفُرْقَانِ (25/ 35).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَاب، وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً.

إشارة إلى الأصل الإلهيِّ لِكِتَابِ مُوسَى، «التَّوْرَاة» - (الجلالين).

28. سورة طه (20/ 133).

وَقَالُوا (القُرَشِيّون): «لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ». أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى؟

إنَّ ﴿الصُّحُفِ الأُولَى﴾ تعني الكُتب المُقَدَّسة المتداولة بين اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين. ويشرحها البَيْضاوِيّ على النّحو التالي: «من التَّوْرَاة والإنجِيل وسائر الكُتب السماويَّة». بيد أنَّ الكِتَاب السَّماويَّ الوحيد، أو الكُتب، التي تُدعى سماويَّة، المعروفة لأهل مَكَّة (الذين يُوجَّه إليهم الخطاب هنا)، كانت الكُتبَ المُقَدَّسة لليَهُوْد والمَسِيحِيِّين القاطنين في الجَزِيْرة العَرَبِيّة والأراضي المتاخمة لها. ومن البيِّن أنَّ الإشارةَ هنا إليها.

وحينما طلبَ أهلُ مَكَّة آيةً معجزة، فإنَّ مُحَمَّداً أحالهم إلى البرهان الذي تحتويه كتب هؤلاء سابقاً. ولم يكن ليقوم بالاحتكام إليها، ما لم يكن الحصول عليها سهلاً بالنسبة للمَكِّيِّين: كما لم يكن ليفعل ذلك، لو لم يكن يعتبر هذه الكتب سماويَّة، وموثوقة أيضاً، وخالية من التحريف.

29. سُوْرَةُ الزُّخْرُفِ (43/ 45).

وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا، أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ.

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾، أيْ: «أممهم وعلماء دينهم» - (البَيْضاوِيّ)؛ «أمم من أيِّ أهل الكِتَابَين» - (الجلالين). يأمر اللّهُ مُحَمَّداً بهذه الطريقة أنْ يسألَ الرُّسل السابقين، لكي يتوثَّق بالتّالي من حقيقة أنَّ تحريم الوثنيَّة لديه، يماثل ما يوجد في كلِّ الكُتب المُنزلة من قبل. إنَّ الإشارة إلى الرُّسل السابقين، تعني، إذاً، الرجوع إلى كتبهم الموجودة بين أيدي اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين. كما أظهر ذلك تفسير الجلالين، إنَّ أمرَ اللّهِ الموجب على مُحَمَّدٍ طرحَ هذا السؤال، تساوي صيغة تعبيرٍ لإقناع المَكِّيِّين الوثنيِّين بأنْ لا أحد من الأنبياء السابقين، أو كتبهم المنزلة، تقرُّ عبادة آخر إلى جانب اللّه الواحد الحقِّ:

«والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التّوحيد» - (البَيْضاوِيّ)

إذاً، إنَّ هذا المقطع يتحدَّث عن الكُتب الموجودة والمعروفة جيداً، أو عن الذين يحوزونها، واللّه أحال مُحَمَّداً للبرهان القاطع ضدَّ الوثنيَّة.

30. سُوْرَةُ يُوسُفَ (12/ 111).

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الألبَابِ، مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى، وَلَكِنَّ تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

﴿مَا كَانَ حَدِيثاً﴾ هو هذا القُرْآن - (الجلالين والبَيْضاوِيّ). وإنَّ الحجَّة هي نفسها كما في المقاطع السابقة التي شُرحت آنفاً (انظر ف 16).

31. سُوْرَةُ هُودٍ (11/ 16ـ17).

أُوْلَئِكَ الذين لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ: وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا؛ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ. أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ؛ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ، وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً.

هنا رُسمت صورةُ بينَ الشرير الذي حُبط ما صنع، وبين المؤمن الصادق، ومن الملاحظ بجلاء أنَّ الثانيَ يتبع مُحَمَّداً (أو القُرْآن)، الذي ﴿قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾. وهذا يتطابق كلِّيًّا مع ذكر تبجيليٍّ وتشريفيٍّ للكتب المُقَدَّسة في كلِّ مكانٍ في القُرْآن.

32. سُوْرَةُ هُودٍ (11/ 110).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَاب، فَاخْتُلِفَ فِيهِ. وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ، لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ؛ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ.

شهادة على الأصل الإلهيِّ لكِتابِ مُوسَى. وفيما يخصُّ الباقي انظرْ الملاحظات على المقطع المُستشهد به في (ف 24)، مع نصِّها المرافق.

33. سُوْرَةُ يُونُس (10/ 37 ـ 38).

وَمَا كَانَ هَذَا القُرْآن أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ؛ وَلَكِن تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ،(1) وَتَفْصِيلَ الكِتَاب، ـ لاَ رَيْبَ فِيهِ ـ مِن رَّبِّ العَالَمِينَ.

أَمْ يَقُولُونَ (مُحَمَّد) افْتَرَاهُ! قُلْ: فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ.

عندما أُتهم مُحَمَّدٌ باختلاق القُرْآن، كما في مناسبات أخرى، فإنَّه احتكم إلى حجّة أنَّ ذلك لا يمكن يصحّ، لأنَّ القُرْآنَ تصديق الكُتب السابقة.

﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: «مطابقٌ لِما تقدَّمه من الكتب الإلهيَّة» ـ (الجلالين).

إنَّ مثلَ هذه الإشارة التي تفيد أنَّ القُرْآنَ يُؤكِّد الكُتب الإلهيَّة السابقة، أو يتطابق مع محتوياتها، تشكِّل احتكاماً فعليّاً إلى الكُتب نفسها كما هي لدى «أهل الكِتَاب»، وتبيِّن أنَّها كانت متاحةً لأهلِ مَكَّة؛ ويتعارض مع أيِّ تصوُّرٍ آخر ما عدا أنَّ مُحَمَّداً اعتبر هذه الكُتبَ إلهيَّةً، وأصيلةً، وغير محرَّفة.

34. سُوْرَةُ يُونُس (10/ 94).

فَإِنْ كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ، فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءُونَ الكِتَاب مِن قَبْلِكَ. لَقَدْ جَاءكَ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ؛ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ.

«الكِتَاب الذي من قَبل مُحَمَّدٍ»، وحسب شرح الجلالين يعني التَّوْرَاة. لكنْ لا يوجد سبب يجعل الإشارة مقتصرةً عليه. هنا، كما في مقاطع أخرى كثيرة، فإنَّ الكلمةَ ترد في أوسع معانيها، وتعني الكُتب المتداولة بين المَسِيحِيِّين كما

(1) أيْ تَصْديق تلك الكُتب المُقَدَّسة.

بين اليَهُوْد.

إنَّ غايةَ اللّهِ في إحالة مُحَمَّدٍ إلى الكتب وأصحابها، هي أنْ يكونَ راضياً على وحي القُرْآن، ويشرحها البَيْضاوِيّ على النحو التالي: «فإنّه محقَّق عندهم، ثابتٌ في كتبهم على نحو ما ألقينا إليك؛ والمُراد تحقيق ذلك والاستشهاد بما في الكُتب المتقدِّمة».

﴿فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءُونَ الكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾. إنَّ فعل ﴿يَقْرَءُونَ﴾ هي حاضر أو ماضٍ ومعناها، «كانوا يقرؤون» الكِتَاب.

إنَّ الكتبَ المُحتكم إليها معروفةٌ أنّها قيد التداول بين اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين؛ ومُحَمَّدٌ يتوق للبحث عن هؤلاء الذي كانوا يقرؤونها بدون تحديد أي قبيلة معيَّنة، أو شعب، أو دولة، من أجل أنْ يبدِّد شكوكه. إنَّ البحث ليس مقتصراً، على سبيل المثال، عن يَهُوْد اليَمنِ، أو يَثْرِبَ، أو خيبر، أو عن القبائل العربيَّة المَسِيحيَّة، مثل بني حارث من نجران، وبني طيء من تَيماء أو بني حنيفة من اليَمامة. إنَّ النَّبِيَّ يُحال بدون تمييز إلى كلِّ منْ يمكن الوصول إليه من الذين كانوا يقرؤون الكِتَاب الإلهيَّ المنزل من قبل، سواء كانوا أحباشاً، أو سرياناً، أو عرباً أو مصريِّين، سواء كانوا تابعي المملكة الغسانيَّة، أو الحيرة، أو القسطنطينيَّة أو فارس.

إنّها الكتب اليَهُوْديَّة والمَسِيحيَّة التي هي قيد التداول في أرجاء العالم المتحضِّر في زمن مُحَمَّدٍ، والتي كان يُحتكم إليها، ولإسكات شكوك النَّبِيِّ، وهذه الكتب يصادقَ القُرْآنُ لا على تنزيلها فحسب، بل على أصالتها نقاوتها، وخلوِّها من التحريف.

35. سُوْرَةُ الأنْعَامِ (6/ 20).

الذين آتَيْنَاهُمُ الكِتَاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ. الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ.

الشرح: «﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أيْ مُحَمَّداً بنعته في كتابهم» – (الجلالين). «﴿يَعْرِفُونَهُ﴾: يعرفون رسول الله بحليته المذكورة في التَّوْرَاة والإنجِيل ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ﴾ بحلاهم. ﴿الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ من أهل الكِتَاب والمشركين فهم لا يؤمنون» – (البَيْضاوِيّ).

انظر الملاحظات على الفقرات السابقة (7، 8)، حيث يرد اعتراف مماثل. إنَّه لأمر واضح لكلِّ ذي عينيْن أنَّ مُحَمَّداً أشار، على هذا النحو، تكراراً إلى أنَّ الكتب اليَهُوْديّة والمَسِيحيَّة ـ التي هي بين يدي أصحابها، يَهُوْد ومَسِيحِيّ عهده ـ تحتوي شهادة في صالح دعواه وعقائده، وأنَّ مثل هذه الإحالة تتساوق مع فكرة أنَّها كتابات أصيلة وغير محرَّفة، بدون أيِّ تلميح أو شكٍّ بأنَّها قد تعرَّضت للتلاعب.

36. سُوْرَةُ الأنْعَامِ (6/ 89 ـ 90).

أُوْلَئِكَ الذين آتَيْنَاهُمُ الكِتَاب، وَالحُكْمَ، وَالنُّبُوَّةَ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء (القُرَشِيّون)، فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ.

أُوْلَئِكَ الذين هَدَى اللّهُ؛ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ. قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ.

إنَّ القومَ الذين أُشير إليهم في الكلمات الافتتاحيَّة هم اليَهُوْد والمَسِيحِيُّون. وتتضمَّن الآيات السابقة تعداداً لآباء اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين، من إبْرَاهِيم إلى يسوع، بما فيما ذلك: «دَاوُود، وسُلَيْمَان، ويَعْقُوب، ويُوسُف، ومُوسَى،

هَارُون، وزَكَرِيًّا، ويوحنًّا»[1]، ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾[2]. وإنَّ النَّصَّ بالآية: ﴿الذين آتَيْنَاهُمُ الكِتَاب، وَالحُكْمَ، وَالنُّبُوَّةَ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء[3]، فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

﴿الكِتَاب﴾: يريد به الجنس. ﴿وَكَّلْنَا بِهَا﴾: أيْ بمراعاتها - (البَيْضاوِيّ). ﴿وَكَّلْنَا بِهَا﴾: أرصدنا لها (الجلالين).

من المفترض أنَّ الأشخاص الموكَّلين بكُتُبِ العهدِ القديم والجديد المُقَدَّسة يشملون طائفة متنوِّعة، فهم أتباع الأنبياء اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين الموصوفين من قبل، أو أتباع مُحَمَّد، «وهم الأنبياء المذكورون ومتابعوهم؛ وقيل الأنصار، أو أصحاب النَّبِيّ؛ أو كلُّ من آمن به، الخ» - (البَيْضاوِيّ).

إنَّ مسألة على من تنطبق الإشارة ليست مهمَّة. ما هو واضح، وذو أهمِّية أساسيَّة، أنَّ القُرْآنَ يشير هنا إلى الكتب اليَهُوْديَّة والمَسِيحيَّة التي كانت موجودة آنذاك، على أنَّها موثوقة، ومنزلة، وأصيلة؛ وأنّ حيازة الكُتُب ـ رغم رفضها من قِبل قُرَيْش الوثنيَّة ـ نُقلت، أو سوف تُنقل، في وصاية آمنة إلى الذين آمنوا. ونحن نتساءل هل صار الوعد حينها باطلاً، إذْ نرى أنَّ المسلمين في وقتنا الحاضر يشكُّون بأنَّ الكتب المُقَدَّسة محرَّفة أو مدسوس فيها؟ هل أنَّ حراسة الذين آمنوا، أولئك الذين جاء ذكرهم في النصِّ ثبتَ زيفها؟ بدون تأكيد، لن يُكذِّب المُحَمَّديّون كلمات القُرْآن.

(1) [الآيات: 84ـ86، م.].

(2) [الآية: 87، م.].

(3) ﴿هَؤُلاء﴾: أهلُ مَكَّة - (الجلالين)؛ قُرَيْش - (البَيْضاوِيّ).

37. سُوْرَةُ الأَنْعَامِ (6/ 71).

وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، إِذْ قَالُواْ: «مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ». قُلْ، مَنْ أَنزَلَ الكِتَاب الذي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً، وَهُدًى لِّلنَّاسِ؟ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا، وَتُخْفُونَ كَثِيراً؛[1] وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ. قُلِ: «اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ».

إنَّ المقطع وكما يشرحه الجلالين: «﴿وَمَا قَدَرُواْ﴾: أيْ اليَهُوْد؛ ﴿إِذْ قَالُواْ﴾: إذا قالوا للنبيِّ وقد خاصموه في القُرْآن. ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾: أيْ يكتبونه في دفاتر مقطَّعة. ﴿تُبْدُونَهَا﴾: أيْ ما يحبون إبداءه منها. ويخفون كثيراً ممَّا فيها كنعت مُحَمَّد».

وحسب هذا التّفسير الوارد أعلاه، فإنَّ النصَّ هو خطاب لليَهُوْد. إنَّ القسم الأكبر من السُّورة السَّادسة (الأنْعَام) كان قد تنزَّل في مَكَّة، بيد أنَّ الآيات الآية نفسها أُضيفت على الأرجح بعد أن توجَّه مُحَمَّد إلى المدينة، وبعد أنْ شرع اليَهُوْد بمعارضتهم له. فزعمَ أنَّهم كانوا يعتقدون بأنَّه ﴿مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، أيْ سوى كتبهم المُقَدَّسة الخاصَّة؛ أو ما أنزل على مُحَمَّد، أو لعلَّه ﴿مَا أَنزَلَ﴾ أيَّ شيءٍ بشكلٍ ماديٍّ، وفق الطَّريقة التي أعلنها مُحَمَّدٌ، أنَّ الله كان يُنزل القُرْآنَ بواسطة جِبْريل. وفي معرض الردِّ، فإنَّ مُحَمَّداً أشارَ، كتفنيد كامل، إلى ﴿الكِتَاب الذي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾، الموجود آنذاك بأيديهم؛ الذي ينسخونه على ألواحٍ أو قراطيس، أو ـ حسب شرح الجلالين ـ في دفاتر مقطَّعة، وبالتالي فإنَّهم قادرون على تقديم مثل هذه القراطيس أو الدفاتر المقطَّعة بالشكل الموافق لهم حينما يتجادلون مع مُحَمَّد، وكذلك على إخفاء

(1) في بعض القراءات يرد «يَجْعَلُونَ، يُبْدُونَ، يُخْفُونَ» عوضاً عن «تَجْعَلُونَ، تُبْدُونَ، تُخْفُونَ» ـ (الجلالين).

ما لا يرغبون بإظهاره، لأنّه قد يفنِّد حجَّتهم.

بدون شكٍّ كانَ مُحَمَّدٌ يؤمن بأَنَّ ثمَّة نبوءات في العهد القديم مؤيِّدة لرسالته، والتي لم يشأ يَهُوْد يَثْرِبِ إظهارها، رغماً عن حيازتهم لها في كتبهم المُقَدَّسة.

ما إنْ كان هناك فعلاً مثل تلك الآيات، فإنَّ ذلك، في الوقت الحاضر، لا يسترعي عناية بحثنا. ما هو جليٌّ، وفوق الجدل، أنَّ مُحمَّداً يشير في النصِّ إلى كُتب اليَهُوْد المُقَدَّسة على أنّها منزلة، وباقية، وأصيلة؛ ويدور الحديث بشأنها بأسلوب يعني ضمناً أنّها حُفظت في حالة تامَّة وكاملة من قِبل القبائل اليَهُوْديَّة في يَثْرِبَ، مع أنَّ هذه القبائل لم تكن نزيهة إلى حدٍّ كافٍ كونها كانت لا تبرز إلّا تلك القراطيس التي تخدم غايتها وحجَّتها. ولاحظ أنّه يُطلق هنا على كتاب مُوسَى ﴿نُوراً، وَهُدَىً لِّلنَّاسِ﴾.

38. سُوْرَةُ الأَنعَام (6/ 92).

وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ، مُّصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلِتُنذِرَ أُمَّ القُرَى (مَكَّة) وَمَنْ حَوْلَهَا. وَالذين يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ.

﴿الذي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: قبله من الكتب - (الجلالين). يعنى التَّوْرَاة أو الكتب التي قبله - (البَيْضاوِيّ).

إنَّ هذه الآية تلي النص السابق ذكره في الفقرة (37). والخصيصة الرئيسة لِلقُرْآنِ هي أنّه ما زال يصدِّق الكتب السابقة [﴿مُّصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾]، وأنّه مُعدٌّ بالأخصِّ إلى ﴿أُمَّ القُرَى﴾ (أهل مَكَّة)، والذين يقطنون حولها.

39. سُوْرَةُ الأَنعَام (6/ 114).

أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الذي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَاب مُفَصَّلاً، وَالذين

آتَيْنَاهُمُ الكِتَاب يَعْلَمُونَ أَنَّهُ (القُرْآن) مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالحَقِّ. فَلاَ تَكُونَنَّ (يا مُحَمَّدا) مِنَ المُمْتَرِينَ.

﴿وَالذين آتَيْنَاهُمُ الكِتَاب﴾: أي التَّوْرَاة - (الجلالين)، أو بعبارة أوسع الكتب اليَهُوْدِيَّة والمَسِيحيَّة؛ وكذلك يرى البَيْضاوِيّ: «المُراد مؤمنو أهل الكِتَاب».

إنَّ هذه الآية - مثل المقاطع السابقة (ف: 7، 13، 15،...) - تتضمَّن تشابهاً أو تطابقاً بين محتوى ونظرات القُرْآن مع تلك التي في الكُتب المُقَدَّسة السابقة؛ وإنَّ شهادة الذين أنزلَ اللّهُ إليهم الكُتب المُقَدَّسة، تقدَّم على أنَّها برهان كافٍ لحقيقة القُرْآن وأنَّها سبب يدعو مُحَمَّداً ألَّا يشكَّ بنفسه. وإنَّ الملاحظات بصدد المقاطع السابقة تنطبق هنا على حدٍّ سواء.

40. سُوْرَةُ الأَنْعَام (6/ 124).

وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ، قَالُواْ: «لَن نُّؤْمِنَ حتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ».

إنَّ أهلَ مَكَّة، الذين عارضوا مُحَمَّداً، رفضوا تلقِّي أيَّ آية من القُرْآن ما لم يأتِهم بوحي يشابه كُتب الأنبياء السابقين. وهذه إشارة غير مباشرة إلى الكُتب المنزلة اليَهُوْدِيَّة والمَسِيحيَّة، والتي كانت معروفة بعموم طابعها وأسلوبها في الجَزيْرة العَرَبِيَّة، وحتَّى بين وثنيِّي مَكَّةَ.

41. سُوْرَةُ الأَنْعَام (6/ 154).

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَاب تَمَاماً عَلَى الذي أَحْسَنَ، وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدَىً وَرَحْمَةً، لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ.

إذاً، إنَّ الكُتب السابقة كاملة وهي ﴿عَلَى الذي أَحْسَنَ، وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدَىً وَرَحْمَةً﴾. فهل ثمَّة ثناء أجمل من ذلك؟ ولماذا إذاً - على الرّغم من

هذه الإشادة ـ قلّما تُثمَّن هذه الكتب المُقَدَّسة، ونادراً ما يُشار إليها من قبل أتباع القُرْآنِ المعاصرين؟

وإذا ما كانت الكُتب السابقة تامّة إذاً، فما الداعي لنزول وحي جديد بالقُرْآن؟ إنَّ الآية التالية تجيب على السؤال.

42. سُوْرَةُ الأَنْعَامِ (6/ 155ـ157).

وَهَذَا كِتَابٌ (القُرْآن) أَنزَلْنَاهُ: مُبَارَكٌ؛ فَاتَّبِعُوهُ، وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ؛

أَن تَقُولُواْ: إِنَّمَا أُنزِلَ الكِتَاب عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا، وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ؛

أَوْ تَقُولُواْ: لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الكِتَاب، لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ؛ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ، ....

﴿أَنْ تَقُولُواْ: إِنَّمَا أُنزِلَ الكِتَاب عَلَى طَآئِفَتَيْنِ﴾ أي اليَهُوْد والنصارى - (البَيْضاوِيّ والجلالين).

من الاستعراض الحاليِّ يَظهر أَنَّ القُرْآنَ كانَ يهدف إلى نزع كلِّ مبرِّرٍ من المَكِّيّين والعرب، لئلاّ يقولوا: «إنَّ الكتب نزلت على اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين؛ ولكنَّها ليست ذات نفعٍ لنا، لأنَّنا لا نستطيع قراءتها أو فهم اللسان الأجنبيِّ الذي كُتبت به. ولو أنَّ الوحي نزل إلينا بالعربيَّة، لكنَّا مؤمنين قويمين مثلهم، أو حتَّى أكثر». إنَّ آياتِ القُرْآنِ تنزَّلت لإزالة هذا العذر. وليس لأنَّ الكِتَاب السابق كان ناقصاً (بل على العكس، يُشار إليه هنا على أنَّه ﴿تَمَاماً عَلَى الذي أَحْسَنَ، وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾)، وعلى هذا فإنَّ القُرْآن ما نزل على العرب إلّا لأنَّ الكِتَاب مدوَّنٌ بلسان أجنبيٍّ. ولا يوجد هنا أدنى اتِّهام ضدَّ سلامة وطهارة الكِتَاب المُقَدَّس، كما ضدَّ كماله. إنَّ النّقصَ الوحيد هو أنّه لم

يكن متاحاً باللسان العربيِّ. لقد كُتب بلغاتٍ أجنبيَّة، لم يكن العرب يلمُّون بها، ومن أجل تلبية هذا المتطلَّب جاء القرآن.

43. سُوْرَةُ القَصَصِ (28/ 43).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَاب، مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا القُرُونَ الأُولَى؛ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ، وَهُدَىً، وَرَحْمَةً، لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

إنَّها لشهادة مدهشة، وليس فقط بصدد الأصل الإلهيِّ للكتب الخمسة، بل لقيمتها بوصفها نوراً لهداية غير اليَهُوْد: ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ و﴿وَهُدَىً، وَرَحْمَةً، لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

44. سُوْرَةُ القَصَصِ (28/ 46ـ49).

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ، إِذْ نَادَيْنَا (مُوسَى)؛ وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ، لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ؛

وَلَوْلاَ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، فَيَقُولُوا: «رَبَّنَا! لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً، فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ».

فَلَمَّا جَاءهُمُ الحَقُّ مِنْ عِندِنَا، قَالُوا: «لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى». أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ؛ قَالُوا: «سِحْرَانِ،[1] تَظَاهَرَا»؛ وَقَالُوا: «إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ».

قُلْ: «فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا، أَتَّبِعْهُ؛ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ».

---

(1) فيما يتعلق بـ﴿سِحْرَانِ﴾ ثمَّة قراءة أخرى «ساحران»، أي مُوسَى ومُحَمَّد. وعلى هذا يقول البَيْضاوِيّ: «ساحران وفي قراءة سِحْران أي التَّوْرَاة والقُرْآن». [والقراءة الأولى: ﴿سِحْرَانِ﴾ هي قراءة الكوفيين. م.]

من جديد يُحدِّد هنا هدف رسالةِ مُحَمَّدٍ، ألا وهو تذكير النّاس ـ أيْ العرب ـ الذين لم يُرسَل إليهم نذير من قبل؛ وذلك كي لا يقول هؤلاء عندما يتعرَّضون للإدانة: «لو جاءنا نَبيٌّ، لكنَّا مؤمنين». ومع ذلك حينما أتى مُحَمَّدٌ نبيًّا، فإنَّ أهل مَكَّة رفضوا الإيمَان به، ما لم يأتِ بالكتب (قراءة أخرى بالمعجزات)، مثل تلك التي أتى بها مُوسَى. بيد أنَّ مُحَمَّداً أجابهم: «ما لهذا هذا التناقض! ألم ترفضوا كُتب مُوسَى التي أتيتُ بها لكي أقيم لكم الدليل على صحة دعاويَّ، وقلتم بشأنها وبشأن القُرْآن ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ؛ قَالُوا: «سِحْرَانِ، تَظَاهَرَا»﴾. وبعدها، يُصوِّرُ النَّصُّ اللّهَ يأمر مُحَمَّداً أنْ يقولَ: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا، أَتَّبِعْهُ؛ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ، ...﴾.

تحتوي الشَّهادةُ هنا على موثوقيَّة وقيمة كتاب مُوسَى، وعلى مطالبتها أهالي مَكَّة تقديم أيِّ كتابٍ آخر يتضمَّن هُدىً أكثر صدقاً، لا لبَس فيه، وكاملاً. والشَّهادة هنا لِلكُتب الخمسة، كما كانت موجودة وقتها بأيدي اليَهُوْد، وما فيها من مضامين أوردها مُحَمَّد آنفاً، تصديقاً لعقيدته، والتي أحتكم إليها، كما أنَّها هي من تحَدَّى بها قُرَيشاً مقرونة بالقُرْآن أنْ يأتوا بكتابٍ منزلٍ ﴿أَهْدَى مِنْهُمَا﴾.

45. سُوْرَةُ القَصَصِ (28/ 52ـ 53).

الذين آتَيْنَاهُمُ الكِتَاب مِن قَبْلِهِ (أي قبل القُرْآن) هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ؛

وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ (القُرْآن) قَالُوا: «آمَنَّا بِهِ؛ إِنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّنَا، إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ».

يُستلزم ضمناً في هذا النصِّ أنَّ أجزاءَ القُرْآن المُستشهَد بها هنا، أو قُرئت، من قِبل يَهُوْد أو مَسِيحِيِّين معيَّنين تماثل مَا في كتبهم الخاصَّة، وعلاوة على ذلك، احتوت مثل هذا التوكيد الدائم بأنَّ هدفَ رسالةِ مُحَمَّدٍ كانَ تأكيد هذه الكتب، وأنَّ هؤلاء اليَهُوْدَ أو المَسِيحِيِّين عبَّروا عن اقتناعهم بحقيقة عقائد

مُحَمَّد، وقالوا بأنَّها كانت تماماً لِمَا في كتبهم الخاصَّة التي كانت لديهم من قبل ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾؛ وهذا يعني القول: «إذا كانَ هذا إسلاَماً؛ فإنّه ليس أكثر أو أقلّ مما نجده في كتبنا المنزلة» لاحظ جيِّداً، إنَّ هذه الآية تعود إلى المرحلة المبكِّرة من رسالة مُحَمَّدٍ، وقبل الهجرة إلى يَثْرِبَ.

قارن الآية أعلاه مع الفقرات (7ً، 13ً، 15ً، 35ً)، والمقاطع الأخرى ذات الفحوى المشابه.

46ً. سُوْرَةُ المُؤْمِنُونَ (23/ 49ـ50).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَاب، لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ؛

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً، وَآوَيْنَاهُمَا إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ.

47ً. سُوْرَةُ الأَنْبِيَاءِ (21/ 7).

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي(1) إِلَيْهِمْ؛ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

«﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾: العلماء بالتَّوْرَاة والإنجيل... وهو جواب لقولهم هل هذا إلَّا بشر مثلكم؛ يأمر بهم أنْ يسألوا أهل الكِتَاب عن حال الرُّسل المتقدِّمة» - (البَيْضاوِيّ).

إذاً، إنَّ مُحَمَّداً يحتكم إلى أصحابِ الكُتبِ المُقَدَّسةِ، اليَهُوْدِيّةِ والمَسِيحيَّة، وهو فعليَّاً احتكم ـ تصديقاً لدعاويه وعقيدته ـ إلى الكُتب نفسها كما كانت موجودةً ومتداولة بين يَهُوْدَ ومَسِيحِيِّ عصره. ما أبعد البونَ بين نبيِّ الإسلام وأتباعه في العصر الحالي! لقد قبل بجعل كتبَ العهدَين القديم والجديد

(1) القراءة الثّانية ﴿يُوحي﴾ - (الجلالين).

المُقَدَّسة أساساً لدعاويه، ودعامته حينما كان يتعرَّض للهجوم؛ وبينما يقضي أتباعه أيَّامهم في محاولة غير تقيَّة لتهديم مرجعيَّة تلك الكتب نفسها.

48. سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ (21/ 48 ـ 50).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الفُرْقَانَ، وَضِيَاء، وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ؛

الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ، وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ.

وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ؛ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ؟

لقد أطلق على كُتب مُوسَى اسم الفُرْقَانَ (ذاك الذي يبيِّن الحقَّ من الباطل)، وذُكرت بلغة عالية الإطراء بوصفها نوراً يضيء درب المؤمنين، وتذكرةً للمتقين، الذين يخشون اللّهَ، ويستشعرون خشية يوم الحساب. فلماذا إذاً، لا يقوم المسلمون الورعون ـ الذين يتوقون للنعت الموصوف هنا ـ بدراسة هذا الكِتَاب المُقَدَّس، ويسعون لتنوير أنفسهم بقانونه الإلهيِّ؟

لاحظ أنَّ القُرْآنَ لا يتحدَّث بلغة أبلغ مدحاً بشأن الكُتب الخمسة أكثر ممَّا في هذه الآية.

إنَّ اسم الفُرْقَان، يرد في القُرْآن على قدم المساواة بوصفه نعتاً مميِّزاً لِلْقُرْآنِ نفسه، كما للكتب الخمسة.

إنَّ مغزى العبارات هنا، كما في مكان آخر، يشير إلى كتاب قيد التداول، وكان محلَّ توقير وتقديس المؤمنين الحقيقيِّين كما كانت أرواحهم مضاءة بنوره. وهذا هو التقدير الذي كان يكنُّه مؤلِّف القُرْآنِ.

49. سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ (21/ 105).

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ، مِن بَعْدِ الذِّكْرِ: «أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ».

﴿فِي الزَّبُورِ﴾ في كتاب دَاوُود، ﴿مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي التَّوْرَاة - (البَيْضاوِيّ). وآخرون يرون أنَّ مفردة ﴿الزَّبُورِ﴾ تعني الكتب المُقَدَّسة بالعموم.

على أيِّ حالٍ، إنَّ هذا هو استشهاد مباشر من العهد القديم. ونحن نجده في المَزامِيرِ (37/ 29): «إنَّ الصالحين سيرثون الأرضَ».

إنَّ التّسليم بتنزيل المَزامِيرِ كما كانت موجودة، ومتداولةً بين اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين، لهو وفقاً للمعنى الذي ورد ذكره في كلِّ جزءٍ من القُرْآن بصدد الكِتَاب المُقَدَّس.

50. سُوْرَةُ الإِسْرَاءِ (17/ 2).

وَآتَيْنَا مُوسَى الكِتَاب، وَجَعَلْنَاهُ هُدَىً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ-أَلَّا تَتَّخِذُوا[1] مِن دُونِي وَكِيلاً.

﴿الكِتَاب﴾: التَّوْرَاة - (الجلالين).

51. سُوْرَةُ الإِسْرَاءِ (21/ 4، 5، 7).

وَقَضَيْنَا إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَاب لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ، وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً.

فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا، بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ...،

... فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ...

﴿الكِتَاب﴾: التَّوْرَاة - (الجلالين؛ البَيْضاوِيّ).

إنَّ المقطعَ يحيل إلى نبوءات محدَّدة في العهد القديم، تقول بأنَّ اليَهُوْد

(1) في قراءة ﴿يَتَّخِذُوا﴾.

سيقترفون فعلاً آثماً، وسيخطئون بعتوٍّ بحقِّ اللّهِ، في مناسبتَين؛ وفي هاتَين المناسبتَين سوف يختبرون عقوبة خطاياهم؛ وقد قيل إنَّ النبوءة قد تحقَّقت. ومن استمرار الموضوع في الآية (7)، فإنَّه يظهر أنَّ الإشارة الضمنيَّة تحيل إلى تدمير الهيكل مرتَين: الأولى، في الأسر، والثانية من قِبل تيتوس.

52. سُوْرَةُ الإِسْرَاءِ (17/ 55).

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ، وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً....

قارن مع المقطع الوارد في الفقرة (49)، في سُوْرَةِ الأَنْبِيَاءِ (21/ 105)، حيث تمَّ إيراد شاهد من هذه المَزامِير.

53. سُوْرَةُ الإِسْرَاءِ (17/ 101).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ؛ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَل بَنِي إِسْرَائِيلَ....

﴿فَاسْأَل﴾: يا مُحَمَّد - (الجلالين). هنا طلبَ اللّهُ من مُحَمَّدٍ أنْ يرجع إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ لتصديق قصَّة المعجزات التّسع التي أظهرها مُوسَى إلى فِرعون. ومثل هذه الشهادة ستكون بالطبع وفق ما في كتبهم المُقَدَّسة. وإنَّ هذه الكتب إذ يُحال إليها، فإنَّها في الواقع برهان على صحَّة هذه الآية.

54. سُوْرَةُ الإِسْرَاءِ (17/ 107 ـ 109).

قُلْ: آمِنُواْ بِهِ (القُرْآنِ) أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ؛ إِنَّ الذين أُوتُواْ العِلْمَ (التنزيل الإلهيّ) مِن قَبْلِهِ، إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ، يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً

وَيَقُولُونَ: «سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً».

وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ، وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً.

﴿إنَّ الذين أُوتُواْ العِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾: «وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب السابقة وعرفوا حقيقة الوحي وإمارة النبوَّة» - (البَيْضاوِيّ). و«هم مؤمنو أهل الكِتَاب» - (الجلالين).

يأمرُ اللَّهُ مُحَمَّداً هنا أنْ يخبرَ كُفار مَكَّةَ بأنّ بوسعهم «أنْ يؤمنوا أو لا كما يشاؤون». إنَّ الذين كانوا قادرين أفضل على الحكم، لأنَّهم يحوزون الكُتب المنزلة من قبل، هم الذين آمنوا بالقُرْآن، وابتهجوا لِمَا فيه من أخبارٍ بوصفها تصديقاً لكتبهم المُقَدَّسة.

إنَّ هذا يتطابق مع الملاحظات في الفقرات السابقة (انظر: ف 7، 13، إلخ) فيما يتعلَّق بالإقرار بالقُرْآن وعقائد الإسلام من جانبِ بعضٍ من أهل الكِتَاب، نتيجةً لتطابقها مع محتويات كتبهم المُقَدَّسة.

55. سُوْرَةُ النَّحْلِ (16/ 43 ـ 44).

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ؛ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ.

(أرسلناهم) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ، وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ، لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ.

إنَّ القسم الأوَّل من المقطع أعلاه يتشابه مع ما جاء في سُوْرَةِ الأَنبِيَاءِ (21/ 7)؛ الواردة في الفقرة (47).

وهي تحتوي، علاوة على ذلك، على إشارة إلى المعجزات الإلهيَّة والكتب المُقَدَّسة للأنبياء السابقين.

56. سُوْرَةُ الرَّعْدِ (13/ 36).

وَالذين آتَيْنَاهُمُ الكِتَاب، يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ؛ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ

بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ.

﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾: لموافقته ما عندهم - (الجلالين)؛ وذلك بسبب مطابقته لكتبهم المُقَدَّسة الخاصَّة.

قارنها مع بعض الفقرات مثل: (7، 13، 15، الخ)، التي تحتكم إلى اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين، على أنّهم شهود لموافقةِ القُرْآنِ لما في كتبهم المُقَدَّسة الخاصَّة.

57. سُوْرَةُ الرَّعْدِ (13/ 43).

وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ: «لَسْتَ مُرْسَلاً»؛ قُلْ: «كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَاب».

﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَاب﴾: من مؤمني اليَهُوْد والنصارى - (الجلالين).

إنَّ المعنى مشابه لِمَا في المقطع السابق. إنَّ شاهدَ مُحَمَّدٍ في مَكَّة كانَ ـ كما يُزعم هنا ـ اللّهُ نفسه وبعضَ اليَهُوْدِ والمَسِيحِيِّين، الذين احتكم إليهم، وهم أصحاب معرفة بكتبهم المُقَدَّسة المنزلة، لكي يدلوا بشهادة في صالح القُرْآن.

58. سُوْرَةُ العَنكَبُوتِ (29/ 27).

وَوَهَبْنَا لَهُ (أيْ إِبْرَاهِيم) إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ، وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالكِتَاب. وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ.

﴿وَالكِتَاب﴾: «يريد به الجنس ليتناول الكتب الأربعة» - (البَيْضاوِيّ). ولدى الجلالين: «بمعنى الكتب، أيْ التَّوْرَاة والإنجيل الزبور والقُرْآن».

كانت هذه الكتب الإلهيَّة (حسب هذه الآية) محفوظة في ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيم. ومغزى النصِّ، وحسب المفسِّرين المُحَمَّدِيِّين، يعني أنَّ الكُتُبَ المُقَدَّسة

موضع الذكر، هي العهدان القديم والجديد، وكانت محفوظة ونقلتها الأيدي من جيل إلى جيل بين سلالةِ إِبْرَاهِيم.

59. سُوْرَةُ العَنكَبُوتِ (29/ 46).

وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَاب إلاَّ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ، إِلاَّ الذين ظَلَمُوا مِنْهُمْ، وَقُولُوا: «آمَنَّا بِالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا، وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ؛ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

تُظهر الآيةُ الطَّريقة التي خاطب بها مُحَمَّدٌ آنذاك اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين؛ وهو إلى حدٍّ ما أسلوب امرئ يماثل نفسه مع ديانتهم الخاصَّة، أكثر منه إنساناً مكلَّفاً بأنْ يحلَّ محلَّهم. على أيِّ حال، إنَّ ذلك يسمح لنا بفهم بعض الأُسس التي كان من الطبيعيِّ أنْ يبتهج عليها اليَهُوْد والمَسِيحِيُّون، لا بل «يكون فرحاً وعرفاناً»، لدى اكتشافهم أنَّ نبيَّ مَكَّةَ استعدَّ لتأكيد ومصادقة كتبهم المُقَدَّسة في كلِّ نقاطها الأساسيَّة، وكان يهمُّه بشكلٍ واضحٍ إصلاح مساوئ الأيقونة فحسب، وعبادة القدِّيسين والملائكة، التي تخلَّلت بينهم.

وعلاوة على ذلك، ليس ثمَّة برهان أقوى من هذا المقطع، يبيِّن التوقير والإيمَان المستشعر بهما والمعبَّر عنهما من قِبل مُحَمَّد نحو كتب اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين: ﴿آمَنَّا بِالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا، وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ؛ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

إنَّ مسلميّ زمنِ مُحَمَّدٍ والجيل اللاحق، كانوا سيضحكون ازدراءً للمناورة البائسة المُختلَقة من جانبِ بعض مُحَمَّديّي العصر الحاضر، الذين يدَّعون عدم وجود كتب خمسة وإنجيل قيد التداول العالميِّ بين اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين، بل بعض الكتب المُختلفة، التي أشار إليها مُحَمَّدٌ. إنَّ هذا الطرحَ أمرٌ لا مبرِّر له إطلاقاً، وهو يتناقض معنى القُرْآنِ العام.

60. سُوْرَةُ العَنكَبُوتِ (29/ 47).

وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ (القُرْآنَ)، فَالذين آتَيْنَاهُمُ الكِتَاب يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الكَافِرُونَ.

متابعة للمقطع السابق.

﴿الكِتَاب﴾: التَّوْرَاة - (الجلالين). ﴿الذين آتَيْنَاهُمُ الكِتَاب﴾ وهم عبد الله بن سلاَّم، وأحزابه؛ أو من تقدَّم عهد الرسول من أهل الكِتَابين - (البَيْضاوِيّ). ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَاب﴾: القُرْآن كما أنزلنا إليهم التَّوْرَاة وغيرها.

يعني هذا أنَّ القُرْآنَ قد أُوحِيَ به بنفس طريقة نزول الكتب السابقة. وكما أُثبت أنَّ صيغة وأسلوب الوحي عيناهما، مثلما المصدر نفسه. وكان هدفُ القُرْآنِ ـ على الأقلّ الغاية العظمى ـ تصديق تلك الكُتب المُقَدَّسة. لذلك، فَإِنَّ المُحَمَّديَّ، الذي يعتبر القُرْآن إلهيّاً، ملزمٌ بأنْ يرى الأمرَ عينه في الكُتب المُقَدَّسة ويدرسها بتوقير مشابه لِمَا يبديه نحو القُرْآن.

61. سُوْرَةُ الأَعْرَافِ (7/ 156 ـ 157).

فَسَأَكْتُبُهَا (أيْ رحمتي) لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَالذين هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ؛

الذين يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ ـ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ـ الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاة وَالإِنجِيل؛ يَأْمُرُهُم بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنكَرِ....

إنَّ ذلك جاءَ في جوابٍ مفترضٍ مُعطى من الله على صلاة مُوسَى حينما كان الإِسْرَائِيليون يعبدون العجل؛ وهو يرد على أنَّه إعلان نبويٌّ إلى مُوسَى بشأن نبيٍّ أوشكَ على الظهور في الأيام الأخيرة. الآن، في هذه النبوءة المُتخيَّلة، فإنَّ الله يُصوِّر وهو يقول لقومه بأنَّهم سـ ﴿يَجِدُونَهُ (مُحَمَّداً) مَكْتُوباً عِندَهُمْ

فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾. وحسب البَيْضاوِيّ فإنّهم سيجدونه «باسمه وصفاته».

بناءً على ذلك، فإنَّ الآية تتطابق مع آيات كثيرة سابقة، زُعِم فيها أنَّ الكُتب اليَهُوْديّة والمَسِيحيَّة، كما كانت في أيدي اليَهُوْدِ والمَسِيحِيِّين آنذاك، تحتوي على برهان عقيدة ودعاوي مُحَمَّدٍ. وهو يعلن بوضوح بأنَّ الكُتب الخمسة والإنجيل التي كانت متداولةً بين يَهُوْدَ ومَسِيحِيِّ عهد مُحَمَّد بـ ﴿عِندَهُمْ﴾. وفوق ذلك، فإنَّ اللّهَ يكلّمُ مُوسَى بشأن هذه الكتب على أنّها مصدر موثوق للمراجعة. إذاً لمن الواضح هنا أنَّ الكُتب المُقَدَّسة، كما هي بحوزة اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين عموماً في القرن السَّابع، كانت ـ حسب تعاليم القُرآن ـ موثوقة، وأصيلة، وخالية من التحريف.

62. سُوْرَةُ الأَعْرَافِ (7/ 159).

وَمِن قَوْمِ مُوسَى، أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ، وَبِهِ يَعْدِلُونَ.

لو قبلنا أنَّ الفرضيَّة أُنشئت بشكلٍ متين، وأنَّ محاولةً جرت من قِبل بعضِ اليَهُوْد للتلاعب بكتبهم، ومحو بعض المقاطع التي تحتوي على الشهادة لِمُحَمَّدٍ، فهل يمكن لليَهُوْد الصَّادقين والمخلصين الذين أُشير إليهم في هذه الآية أنْ يشاركوا في مثل هذه المحاولة، أو أنْ يسمحوا بها؟ ألم يكن هؤلاء ليحافظوا، على الأقلّ، على النصِّ وينقلوا لذريَّتهم المخطوطات غير المحرَّفة من كتب مُوسَى؟ وكما أنَّ مُحَمَّداً احتكم إلى نبوءات محدَّدة مفترضة بشأنه، وشهادات إيجابيَّة بحقِّ رسالته في هذه الكُتب، ألم يكن ليسعى هؤلاء اليَهُوْد الأتقياء الذين اعتنقوا الإسلام إلى الحفاظ عليها بعناية وبورع، ولكانوا توارثوا ابناً عن أبٍ النسخ الصحيحة والأصيلة للتوراة مع هذه البيِّنات والنبوءات، بوصفها برهاناً أكبر قيمةً لدعاوي مُحَمَّدٍ، وتسويغاً مطلقاً لسلوكهم في الانفصال عن إخوانهم اليَهُوْد واعتناقهم الإسلام. يقيناً لكانوا فعلوا، وإذ أنَّهم

لم يقوموا بمثل هذا العمل، فهذا يشير إلى أنَّ إخوانهم لم يقترفوا محاولة تحريفٍ أو محوٍ؛ وأنَّ النبوءات المُفترضة بشأنِ مُحَمَّدٍ موجودة بالضبط تماماً كما في النسخ المحفوظة بأشدِّ درجات العناية من قبل اليَهُوْد الذين لم يُسلموا، كما في نسخ الذين آمنوا الخاصَّة.

63. سُوْرَةُ الأَعْرَافِ (7/ 167 ـ 169).

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ (أي اليَهُوْد) إلى يَوْمِ القِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ العَذَابِ؛ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ.

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً؛ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ، وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ. وَبَلَوْنَاهُمْ بِالحَسَنَاتِ، وَالسَّيِّئَاتِ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الكِتَاب، يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى، وَيَقُولُونَ: «سَيُغْفَرُ لَنَا». وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مُّثْلُهُ، يَأْخُذُوهُ. أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الكِتَاب، أَنْ لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الحَقَّ، وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ. وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ.

إنَّ هذه الآيات تنزَّلت في يَثْرِبَ على الأرجح، عندما بدأ الخلاف ينشب بين مُحَمَّدٍ واليَهُوْد. وهي تحتوي على تهمة ضد اليَهُوْد بإساءة تقديم الحقيقة. لكنَّها تهمة لا تؤثِّر ـ على الأقلّ ـ على الحرص الشديد الذي احتفظوا فيه بكتبهم المُقَدَّسة: مثلما اتُّهِمَ المَسِيحِيُّون دائماً، وما زالوا إلى اليوم يتَّهمون بإساءة إعلان الحقيقة، رغم أنَّهم يعتبرون كتبهم المُقَدَّسة ضمناً أصيلة وغير محرَّفة.

ومن جهة أخرى، فإنَّ الآيات تتضمَّن شهادة فعليَّة على ﴿الكِتَاب﴾ كما تَوَارَثوه؛ أيْ كما نقلته الأيدي من جيلٍ إلى آخر بين اليَهُوْد.

علاوة على ذلك، اتُّهم اليَهُوْد بخرق ميثَاق ﴿أَنْ لاَ يِقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الحَقَّ﴾ (أي بأنَّهم لن يحرِّفوا الحقيقة)، ذلك أنَّهم ﴿دَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ أو تبعوه بعناية، أو درسوه باجتهاد. ويُزعم أنَّ ذنبهم تفاقم إذاً جرَّاء قراءة الكُتب المنزلة، ومعرفتهم الحقيقة التي يشوِّهونها. إنَّ النصَّ إذاً هو شهادة على انتشار الكُتب المُقَدَّسة بين اليَهُوْد، كما ديمومة تداولها، ودراستها. إنّها نفس الكُتب التي صادق عليها مُحَمَّد بشكل منتظم.

لاحظ ذكر النبوءة المتعلِّقة بتبديد اليَهُوْد.

64. سُوْرَةُ الأَعْرَافِ (7/ 169 ـ 170).

وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ؛ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ؟

وَالذين يُمَسِّكُونَ بِالكِتَاب، وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ؛ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المُصْلِحِينَ.

إنَّ هذا المقطع استمرار للمقطع الذي أوردناه للتو في الفقرة (63). وهو موجَّه إلى اليَهُوْد، ولا يُظهر وجود الكِتَاب المنزل متداولاً فيما بينهم فحسب، بل يحضُّ اللّهُ فيه اليَهُوْد على التمسُّك ﴿بِالكِتَابِ﴾؛ وعلاوة على ذلك، يفيد بأنَّ الذين يقومون بذلك سيحصلون على ثواب كامل في الحياة الآخرة. بيد أنَّه لا يمكن أنْ يُقرَّظَ قومٌ على أنَّهم ﴿يُمَسِّكُونَ بِالكِتَابِ﴾ إلَّا إذا كان كتاباً أصيلاً وغيرَ محرَّف. ويضرب الجلالين مثالاً هنا هو عبد اللّه بن سلاَّم بوصفه أحد اليَهُوْد الورعِين الذين يشير إليهم النَّصُّ.

أين هي إذاً الكتب التي يُؤمر اليَهُوْد المهتدون بأنْ «يُمَسِّكُوا بها»، إنْ لم تكن تلك التي نُقلت من عهد مُحَمَّد من جيل إلى جيل ـ بل حتَّى قبل زمنه؟

65. سُوْرَةُ المُدَّثِرِ (74/ 30 ـ 31).

عَلَيْهَا (النار) تِسْعَةَ عَشَرَ؛

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً؛ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا، لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتُوا الكِتَاب، وَيَزْدَادَ الذين آمَنُوا إِيمَاناً؛ وَلاَ يَرْتَابَ الذين أُوتُوا الكِتَاب وَالمُؤْمِنُونَ.

هذه سورة مَكِّيَة، إلاّ أنَّ من المعتقد أنَّ النَّص أُضيف بعد هجرة مُحَمَّدٍ إلى يَثْرِبَ.

إنَّ الغموض يلفُّ هذا المقطع. لكنْ يبدو أنّه يشير إلى تطابقٍ ما مُفترض بين ما قِيل هنا بشأن حرَّاس النار، وما ورد حول نفس المسألةِ في كُتبِ أصحاب الكِتَاب؛ هذا التطابق الذي يُعتبرُ بالنسبة للذين يملكون الكُتب، وللمؤمنين الصادقين قاعدةً للإيمان. وعلى هذا يقول البَيْضاوِيّ: «ليكتسبوا اليقين بنبوّة مُحَمَّدٍ وصدق القُرْآنِ لمَّا رأوا ذلك موافقاً لِمَا في كتابِهم».

وهذا التّفسير يتساوق مع المقاطع السابقة، التي تحمل المعنى ذاته، والمُستشَهد بها من قبل.

القسم الثاني

الآيات من السُّور المنزلة في يَثْرِبَ

رغمَ أنَّ الآيات المُستشهد بها في القسم الأوّلِ واردة كلها في السُّورِ التي تُدعى مَكِّيَّة، بسبب محتوياتها، وهي سورٌ كانت قد نزلت بالفعل في مَكَّةَ، مع بعض الاستثناءات، إذْ أنَّ قليلاً من الفقرات كانت تعود بشكلٍ لا لبسٍ فيه إلى عهدٍ لاحق، العهد المدنيِّ، وكان يتوجَّب إضافتها إلى السّورِ الّتي تحتلُّ مقامها الآن، بعد هجرة مُحَمَّدٍ من مَكَّةَ. بيد أنَّ النّصوص الواردة في القسم الثاني هي، بدون استثناءٍ، تقتصر على الأخير، أو على عهد المدينة.

في القسم الختاميِّ من كتابنا سنقدِّم عرضاً موجزاً لكيفيَّة نشوب العداوة بين يَهُوْد يَثْرِبَ ومُحَمَّدٍ، ولكن علينا ونحن نقرأ النصوص التالية وضع هذه القضيةِ أمام ناظرينا.

66. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 1 ـ 5).

الٓمٓ

ذَٰلِكَ الكِتَاب لاَ رَيْبَ فِيهِ، هُدَىً لِّلْمُتَّقِينَ؛

الذين يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ؛

والذين يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ، وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ.

أُوْلَئِكَ عَلَى هُدَىً مِّن رَّبِّهِمْ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ.

﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾: أيْ التَّوْرَاة والإنجيل وغيرهما - (الجلالين).

لاحظ أنَّ «المُفْلِحينَ» والذين ﴿عَلَى هُدَىً مِّن رَّبِّهِمْ﴾ هم، حسب المقطع، لا مَنْ يؤمنون بالقُرْآن فحسب، بل أيضاً بالكُتُب التي نزلت قبل القُرْآن. وما يدعونا للدهشة، أنَّ هذه الآيات المدوَّنة في الصَّفحة الافتتاحيَّة للوحي، تجعل المسلمين يبدون في حالة تناقض؛ إذْ أنَّهم يُحجمون عن درس الكُتُب المُشار إليها هنا، ولا يتثقَّفون بمحتوياتها، ولا يتَّبعون وصاياها المُقَدَّسة. ألم تصبح أعْيُنٌ هؤلاء القوم عمياء، وقلوبهم قاسية؟

67. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 40 ـ 42).

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ! اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ، وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي، أُوفِ بِعَهْدِكُمْ؛ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ،

وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ؛ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ؛ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ؛

وَلاَ تَلْبِسُواْ الحَقَّ بِالبَاطِلِ، وَتَكْتُمُواْ الحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ.

﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾: أيْ التَّوْرَاة - (الجلالين).

يتابع القُرْآنُ في يَثْرِبَ، تماماً كما في السّور المَكِّيَّة، تصديق حقيقة الكِتَابِ الذي بين يدي بَنِيَ إِسْرَائِيل. بيد أنَّ هؤلاء لن يدلوا بتلك الشَّهادة التي كان يرغب مُحَمَّد أنْ يقدِّموها لصالحه، وكانَ يؤمن، على الأرجح، بأنَّ عليهم أنْ يبروزها. لذلك فإنَّه يحذِّرهم من تحريف الحقيقة، أو إخفاء أيِّ جزءٍ منها.

إنَّ المَسِيحِيِّين، على نفس الأسس، يتَّهمون اليَهُوْد بإساءة تفسير كُتُبهم،

وعدم الإقرار بنبوءات المسيح كما تحقَّقت في يسوع، رغم أنَّهم، مثل اليَهُوْد، يؤمنون بشكلٍ كاملٍ بالكُتب اليَهُوْديَّة. وإنَّه لاتِّهامٌ قريب ومماثل للاتِّهام في النصِّ.

إنَّ عبارة ﴿وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾ ترد مراراً وتكراراً في معنى مشابه بشأن آخرين غير اليَهُوْد، انظرْ على سبيل المثال: (سُوْرَةَ البَقَرَةِ: 2/ 16؛ سُوْرَةَ آل عِمْرَان: 3/ 77؛ سُوْرَةَ التَّوْبَةِ: 9/ 9؛ سُوْرَةَ النَّحْلِ: 16/ 95).

68. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 53).

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَاب وَالفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

﴿الكِتَاب﴾: التَّوْرَاة - (البَيْضاوِيّ، والجلالين).

إنَّ الكتب الخمسة تُسمّى فُرْقَاناً، وهو المصطلح عينه الذي يرد بخصوص القُرْآنِ نفسه. انظر الفقرة (48).

69. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 75).

أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ، وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ؛ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ، مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

إنَّ الكلامَ يخصّ هنا بَنِيَ إِسْرَائِيل. ﴿أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ﴾: أيْ اليَهُوْد - (الجلالين). ﴿يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ﴾: يعني التَّوْرَاة - (البَيْضاوِيّ). ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾: كنعت مُحَمَّدٍ وآية الرجم، أو تأويله فيفسِّرونه بما يشتهون - (البَيْضاوِيّ). إنَّ التفسير الأخير لهو طبيعي، ومؤلِّف من ملاحظات أخرى موجودة في القُرْآن بشأن مسلك اليَهُوْد، والشهادة هناك من البداية إلى النهاية لصالح الكُتب اليَهُوْديّة كما المَسِيحيَّة، وإنَّ الأخذ بهذا التفسير هو الأمر المناسب بشكلٍ جليٍّ.

إنَّ المقطع يعني: «ماذا! أتتوقعونَ أنْ يعتنق اليَهُوْد الحقَّ، وأنتم ترونَ أنَّهم سمعوا حقيقة كلمة اللّه كما جاءَت في كتبهم المُقَدَّسة الخاصَّة، وقاموا بتحريفها قصداً؟ كيف تأملون النجاح مع رجالٍ أبرزوا بأنفسهم البرهان ضدَّ كلمة اللّه؟ ذلك أنَّهم قرؤوا كلمة اللّه من قبل في العهد القديم، وبإرادتهم حرَّفوا معناه، (فسَّروها كما يشاؤون). هل كلمة اللّه، كما علَّمكم إيَّاها القُرْآنَ، تملك أيَّ تأثير أكبر عليهم؟».

إنَّ هذه الطَّريقة نفسها تقريباً التي يمكن لمَسِيحِيٍّ يومنا الحاضر أنْ يتكلَّموا فيها بشأن اليَهُوْد؛ وهكذا، «لقد قاموا بإساءَة استعمال وتحريف كلمةِ اللّهِ كما هي مدوَّنة في كتبهم الخاصَّة، والتي كان يجب أنْ تقودهم للإيمان بالمسيح؛ وإذا قاموا بذلك، فَإِنَّ القليل من الأمل في كسبهم إلى الحقيقة، عبر الاحتكام إلى كلمةِ اللّهِ الأخرى كما جاءَت في العهد الجديد». ومع ذلك، فإنَّ المَسِيحِيِّين لا يقرُّون ويؤمنون أقلَّ بالكتب اليَهُوْديَّة.

هل ثمَّة شهادة أكثر كمالاً ممَّا في هذه الآية بصدد الأصل الإلهيِّ وموثوقيَّة الكُتب المتداولة بين اليَهُوْد في عهد مُحَمَّدٍ، والتي تنطبق عليها الصفة المُقَدَّسة ﴿كَلاَمَ اللّهِ﴾! لماذا القُرْآن مثمَّن من قِبل المُحَمَّديّين؟ بكلِّ بساطةٍ لأنَّهم يؤمنون بأنَّه ﴿كَلاَمَ اللّهِ﴾. ألا يتوجَّب عليهم إذاً أن يوقِّروا ﴿كَلاَمَ اللّهِ﴾ الذي سبق القُرْآن؟

70. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 76_ 77).

وَإِذَا لَقُواْ (يَهُوْد المدينة) الذين آمَنُواْ قَالُواْ: «آمَنَّا»؛ وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ، قَالُوا: «أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ، لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ؟»

أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ؟

متابعة للآية السابقة. ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: بما بيَّن لكم في التَّوْرَاة من نعت مُحَمَّدٍ - (البَيْضاوِيّ؛ كذلك الجلالين). أو بعبارةٍ أخرى: «لماذا تعلِّمونهم بعض المقاطع من العهد القديم، والتي يمكن أنْ تنقلب ضدَّكم أثناء محاجَّتهم للإسْلاَم؟» ويُصَّور فريقٌ من اليَهُوْدِ يلوم الآخر، لتعريفهم مُحَمَّداً وأتباعه بنصوصٍ من كتبهم، والتي بوسع المسلمين استعمالها لإلحاق الضرر باليَهُوْد.

71. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 78).

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ، لاَ يَعْلَمُونَ الكِتَاب، إِلاَّ أَمَانِيَّ؛ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ.

هذه الآية استمرار للآيات السابقة. إنَّ المجموعة الثانية من معارضي مُحَمَّد والإسلام يُوصفون هنا بيَهُوْدٍ أُمِّيِّينَ؛ أيْ أناس لا علمَ لهم حقيقيّاً بكتبهم. فهم يعلمون بالكاد التفسيرات والقصص الحَبْرِيَّة، والتقاليد السخيفة. إنَّ مناقشات أمثال هؤلاء القوم لم يكن لها شأن.

72. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 79).

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَاب بِأَيْدِيهِمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ: « هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ »؛ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً. فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ، وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ!

إنَّها متابعة إضافيَّة لِلفقرة السابقةِ.

إنَّ السياق السابق يشير إلى الأشخاص الأميِّن الذين كانوا يعرفون الشروح فحسب أو التقاليد الباطلة. ويبدو أنَّهم الأشخاص عينهم الذين أُشير إليهم هنا بأنَّهم يفصّلون مثل هذه الشروح أو التقاليد، ومن ثمَّ يعرضونها أمام مُحَمَّدٍ على أنّها تكتسي موثوقيَّة إلهيَّة، قائلين بأنَّها كانت ملزمة مثل الكُتُبِ المُقَدَّسة نفسها.

ليس حتماً أنَّ ﴿الكِتَاب﴾ يعني الكُتب اليَهُوْديَّة. من ناحية ثانية، فإنّه يمكن أنْ يؤخذ هنا بوصفه «الكِتَاب» ذا الأهمِّية؛ أيْ، الذي يرغب هؤلاء اليَهُوْد الأميُّون بأنْ يحسبوه كتاباً مقدَّساً، أو ما يشابهه في مصداقيَّته.

يصفُ النصُّ إذاً مجموعةً من اليَهُوْد الأُمِّيِّن الذين عارضوا مُحَمَّداً؛ أيْ، أولئك الذين كتبوا المقاطع على الأغلب من تقاليدهم وشروحاتها، أو من كُتبهم الحَبْرِيَّة، وأبرزوها على أنّها موثوقة وإلهيَّة؛ ومثال على مثل هذه الشروح: «أنَّه ليس فرضاً رجم البالغ حسب القانون الموسويِّ»؛ أو إعطاء تفسير آخر لنصوص العهد القديم التي رأى فيها تابعو مُحَمَّدٍ أنَّها توافق دعاويه بأنَّ نبيّاً حانَ خروجه. لذلك، فإنَّ مُحَمَّداً لعنهم بسبب صياغتهم لِمَا كان بشريّاً في أصله، ومن ثمَّ تقديمه على أنَّ له مرجعيَّة إلهيَّة.

وعلى ذلك، فإنَّ عبد القادر، مترجم القُرْآن للأوردو، في تعليقه على الآية، يكتب: «إنَّ هؤلاء اتِّباعاً لأهوائهم، يضعون الأشياء سويَّةً، ويصوغونها لعموم الناس، ومن ثمَّ يعزونها للّه أو النَّبِيِّ».[1]

ويشرحُ البَيْضاوِيُّ المقطعَ على النّحو التالي: «ولعلَّه أراد بما كتبوه من التّأويلات الزائغة».[2] إذاً، هنا كانت الإشارةُ إلى المصدر المنحرف، إمَّا فطريّاً، أو عرضيّاً، في المثالِ الحاليِّ، الذي تمسَّك به اليَهُوْد أعداءُ مُحَمَّدٍ، والمتَّصل

(1) يهه وه لوك هين جو عوام كو أنكي خوشي موافق باتين جور كر لكهه ديتى هين اور نسبت كرتى هين طرف خداكى يا رسول كى.

(2) يشير البَيْضاوِيّ إِلَى اختلافٍ في الرأي بين مُحَمَّدٍ ويَهُوْد يَثْرِبَ، فيما يتعلّق بعقوبة الزنى؛ إذْ زعمَ مُحَمَّدٌ بأنَّ العقوبة هي الرَّجم حسب الشريعة الموسويَّة، بينما تمسَّك اليَهُوْدُ بأنَّ قانونهم لا يشترط عقوبة الرجم على الزنى. ومن الممكن أنَّه وُجِد شرحٌ حَبْرِيّ بصدد الموضوع، قدَّم اليَهُوْدُ نسخةً منه يُزعم أنَّها موثوقة، وحكم إلهيٌّ في المسألة، وهو ما يشير إليه مُحَمَّدٌ في الآية.

بآراء وشروحات علمائهم. وليس ثمَّة ما يمكن أنْ يسوِّغَ فعلاً الإشارة إلى أيِّ تلاعبٍ، أو إقحامٍ في مخطوطات الكُتب المُقَدَّسة. لقد عُرِفَ اليَهُوْدُ في كلِّ العصور بأنَّهم شديدو التدقيق، بل حتَّى أنَّهم يحافظون بطريقة وسواسيَّة على كتبهم المُقَدَّسة، مثل عناية المُحَمَّديِّين أنفسهم بالقُرْآن. إنَّ خُلقهم بهذا الشأن ليس موضع ضعف، ولا يلوح أنَّ مُحَمَّداً كان يريد الطَّعن فيه، عبر اتهام بعيدٍ للغاية يفيد بأنَّهم قدَّموا تفسير علمائهم أو تقاليدهم الحَبْرِيَّة، أو مقتطفات منسوخة منها، وزعموا أنَّ لها نفس السلطة التي للكتب المُقَدَّسة. إنَّ اليَهُوْد أعطوا وزناً مفرطاً، كما في سحيق القدم، إلى الأقوال غير المنزلة لأحبارهم، وهي لا تتضمَّن أيَّ خللٍ بتقدير، أو أيَّ نقصٍ بعناية، الكتب المنزلة نفسها.

إنَّ ذلك، إذاً، ادِّعاء لا مسوِّغ له، لأنَّ اليَهُوْد نسخوا ما كان مجرَّد مصنَّفات بشريَّة فحسب، ومن ثمَّ أبرزوها لِمُحَمَّدٍ على أنَّ لها مرجعيَّة إلهيَّة، فبأيِّ شكلٍ عبثوا بالكِتَاب المُقَدَّس؟ هل ذهبوا حتَّى أبعد من ذلك، وقاموا بكتابة مقاطع مُختلقة، وادَّعوا بشكل احتياليٍّ في النقاش أنَّها كانت مقتطفات من الكتب الخمسة (رغم أنَّ مثل هذا المعنى للنصِّ ليس طبيعيَّاً)؟ إنَّ الأمر لم يبلغ حتَّى مثل هذا الاتهام، ولم يتضمَّن، بأيِّ شكلٍ، أنَّهم غيَّروا أو أقحموا مخطَّطات كتابهم المُقَدَّس. إنَّ الاتِّهام سيكون في هذه الحالة مماثلاً لِمَا سيأتي في الفقرة (96) حيث ﴿يَلوونَ أَلسِنَتِهِمْ﴾.[1] أو يتلون بأسلوب مضلِّلٍ، حيث جُعلت المقاطع تبدو أنَّها تعود للكُتب المُقَدَّسة، التي ليست في الواقع كذلك. بيد أنَّ تلك التهمة، مثل الحاليَّة، هي تهمة مختلفة كليَّاً عن تحريف مخطوطات العهد القديم.

(1) [الإشارة إِلَى سُوْرَةِ النِّسَاءِ (4/ 46)، م.]

لاحظ، أولاً:

إنَّ التهمة موجَّهة إلى يَهُوْد يَثْرَبَ فحسب. ومهما كانَ مداها، فَإنَّها لا تتعداهم. وعلى سبيل المثال، ليس هناك مثل هذه التهمة، في أيِّ آيةٍ في القُرْآن أشارت إلى المَسِيحِيِّين، أو كتبهم المُقَدَّسة.

لاحظ، ثانياً:

إنَّ التهمة، ومهما كانت، لا تؤثِّر على إيمانِ مُحَمَّدٍ بأصالةِ ونقاءِ العهد القديم كما كان موجوداً آنذاك، وكما كانَ متداولاً بينَ يَهُوْد يَثْرِبَ. وإنَّ هذا بيِّنٌ من معنى جميع المقاطع اللاحقة التي تحدَّثت عن قيمة ومرجعيّة الكُتب المُقَدَّسة بوصفها ساميَّة، وتامَّة، في عبارات ليست موضع شكٍّ كما من قبل.

73. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 85).

أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ، وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؟ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إلى أَشَدِّ العَذَابِ.

ما زالَ الاتهام موجَّهاً إلى يَهُوْد يَثْرِبَ. وقيل إنَّ التهمة في هذه الآية ترتبط بالتالي:

إنَّ بني النَّضِيرِ وبني قُرَيْظَةَ القبيلتَين اليَهُوْديَّتين اللتين انحازتا على التوالي إلى الفريقَين المتعاديَين في يَثْرِب،[1] لم تتردَّدا (قبل قدوم مُحَمَّدٍ المدينة) بالقتال ضدَّ بعضهما بعضاً، وقتل ونفي إحداهما الأخرى من موطنها؛ لكنَّهما رفضتا بكلِّ إصرارٍ استبقاء أيِّ يَهُوْديّ يقع أسيراً في أيديهم، لأنّهم قالوا إنَّ ذلك محرَّمٌ في شريعتهم. في الآية التي تسبق النصَّ، فإنّ مُحَمَّداً يوبِّخهم، قائلاً بأنَّ قتلَ ونفيَ بعضهم بعضاً، كان في كتبهم المُقَدَّسة محرَّماً بالتّساوي مع

(1) [كان بنو قُرَيْظَةَ حلفاء الأوس، بنو النَّضِيرِ حلفاء الخَزرج، م.]

أخذ بعضهم بعضاً أسرى. ومن ثم يتلوها المقطع: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ، وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؟﴾. أيْ، «ينبغي عليكم أنْ تؤمنوا بكامل كتابكم المنزل وبكلِّ شروطه. ليس بوسعكم اختيار الالتزام ببعض الوصايا، بينما تتجاهلون الأخرى. كلُّ من يؤمن ويطيع جزءاً فحسب، وينكر أو يتجاهل الباقي، سيصيبه خزي في العالم الحاضر، ويعيش أشدَّ العذاب في الآخرة. إنَّ الكِتَاب بأكمله إلهيٌّ، وجدير بالاعتماد؛ وكلُّ أمرٍ من أوامره ملزِم لكم على قدم المساواة».

ما هو البرهان الأكثر حسماً الذي يمكن أنْ يُرغبَ به من القرآن على موثوقيَّة وأصالة العهد القديم، بدون أيِّ استثناءٍ لكلِّ جزء منه، كاملاً وسالماً، كما وُجد بأيدي اليَهُوْد في زمن مُحَمَّد؟

74. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 87).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَاب، وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، البَيِّنَاتِ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ.

﴿الكِتَاب﴾: أيْ التَّوْرَاة (الكتب الخمسة) – (الجلالين والبَيْضاوِيّ).

75. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 89).

وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ (أي القُرْآن) مِّنْ عِندِ اللّهِ، مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ (الكتب)، وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ؛ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ، كَفَرُواْ بِهِ؛ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الكَافِرِينَ.

مازال الخطاب موجهاً إلى يَهُوْد يَثْرِبَ. إنَّ القُرْآنَ، كالعادة، يقول عن نفسه أنّه تصديق ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ أيْ التَّوْرَاة – (الجلالين والبَيْضاوِيّ).

من المفترض أنَّ مُحَمَّداً في هذه الآية يلمِّح إلى الطريقة التي كانَ يَهُوْد يَثْرِبَ يخاطبون وثنيِّي مدينتهم قبل مجيئه، قائلين لهم بأنَّه لدى ظهور مخلِّصهم

سيكونون الغالبين؛ وكانوا يبتهلون من أجل التعجيل بحلول ذلك الزمن. وكانَ مُحَمَّدٌ يحسب أنّه هو الشّخص ذاته الذي كانوا يصلّون من أجل قدومه، وقال بأنّهم رغم معرفتهم أنَّ القُرْآنَ هو الشيء الذي طالما تشوّقوا له، وأنّه قد جاء الآن، إلّا أنّهم رفضوه عن عمدٍ.

إنَّ هذه الآيةَ تنتمي لنفس المقاطع الواردة في الفقرات: (7، 13، 15، إلخ).

76. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 91).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: «آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ»؛ قَالُواْ: «نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا»؛ وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ.

عندما دعاهم مُحَمَّدٌ إلى الإيمان بكلِّ الكُتبِ المنزلة، فإنَّ اليَهُوْد أجابوا بأنّهم يؤمنون بالكِتَاب المنزل إليهم فقط؛ ويكفرون بكلِّ ما تبعه، أيْ الإنجيل والقُرْآن. ومع ذلك، يقول مُحَمَّدٌ، بأنّهم ما كفروا به ـ أيْ القُرْآن ـ هو الحقُّ، وأنّه يصدّق تنزيل وموثوقيّة الكِتَاب اليَهُوْديّ.

إنَّ الكِتَاب اليَهُوْديَّ، الذي في أيدي يَهُوْدَ ذلك الزمان ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ هو بالتالي مؤكّد ومُصادق عليه في القُرْآن.

77. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 92).

وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ؛ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ.

تروي هذه الآية قصّة عِبادة العجل الذهبيِّ من قبل بني إِسْرَائِيل، وتتبعها رواية تسليم الشريعة على جبل سيناء.

78. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 97).

قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ، بِإِذْنِ اللّهِ، مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ

يَدَيْهِ، وَهُدَىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ.

﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: قبله من الكتب - (الجلالين).

يؤكِّدُ القُرْآنُ بشكلٍ منتظم، ولدى كلِّ مرحلة، الكُتبَ المُقَدَّسة التي تنزَّلت قبله، كما كانت موجودة آنذاك بأيدي اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين.

79. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 101).

وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنِدِ اللّهِ، مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ (الكتب)، نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الذين أُوتُواْ الكِتَاب كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ، كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ.

﴿رَسُولٌ﴾: المسيح أو مُحَمَّد - (البَيْضاوِيّ). مُحَمَّد - (الجلالين). وإنَّه لأمر ظاهر أنَّ المعنيَّ مُحَمَّداً.

﴿كِتَابَ اللّهِ﴾: أي التَّوْرَاة - (الجلالين والبَيْضاوِيّ).

جاءَ مُحَمَّدٌ إلى اليَهُوْدِ، مصدِّقاً لكتبهم ومؤكّداً أنَّه النَّبيُّ الذي أُخبِرَ عن مجيئه فيها. ومع ذلك رفضه اليَهُوْدُ، وهذا هو معنى العبارة ﴿نَبَذَ... كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ﴾.

إنَّ النصَّ يحتوي على شهادة مباشرة لا لبس فيها حول الأصل الإلهيِّ وموثوقيَّة ﴿كِتَابَ اللّهِ﴾، العهد القديم كما كانَ موجوداً بين أيدي اليَهُوْد.

80. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 113).

وَقَالَتِ اليَهُوْد: «لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ»؛ وَقَالَتِ النَّصَارَى: «لَيْسَتِ اليَهُوْد عَلَى شَيْءٍ»؛ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَاب.

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ﴾ زمن حاضر أو ماضٍ، أيْ «يتلون الآن»، أو «كانوا يتلونه».

و﴿الكِتَاب﴾ يعني هنا العهدَين القديم والجديد، اللذين كانا قيد التداول بين اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين، وقد وَرَد ذكرهما في مكان آخر على أنَّ القُرْآن جاء ﴿مُصَدِّقاً﴾ لهما.

81. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 136).

قُولُواْ: «آمَنَّا بِاللّهِ، وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا أُنزِلَ إِلى إِبْرَاهِيم، وَإِسْمَاعِيلَ، وَإِسْحٰقَ، وَيَعْقُوبَ، وَالأَسْبَاطِ؛ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ: وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

ليس ضرورياً تحديد ما يعني بقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلى إِبْرَاهِيم، وَإِسْمَاعِيلَ، وَإِسْحٰقَ، وَيَعْقُوبَ﴾. من المُحتمل أنَّه يفيد الوحي المنزل إليهم أو المتعلِّق بهم، كما هو مدوَّن في كتب مُوسَى. وعلى أيِّ حالٍ، من الملاحظ أنَّ التعبير المُستعمل عند الإشارة إلى الآباء ﴿مَا أُنزِلَ﴾، يختلف عن المصطلح المطبَّق على الكُتب والتي هي ﴿مَا أُوتِيَ﴾ والمتَّصلة بالأنبياء ﴿مَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾. إنَّ مفردة ﴿مَا أُوتِيَ﴾ ترد بشأن الكِتَاب، الكِتَاب المُقَدَّس أو الوحي، وتُحال إلى الكُتب، التي يدور الكلام عنها بوصفها معطاة أو منزلة، بينما المصطلح السابق ﴿أُنزِلَ﴾ يُشير إلى الإلهام، أو الوحي للإنسان من قبل مشيئة اللّهِ، وهو ما قد يُدوَّن أو لا.

تتابع الآيةُ بإعلان مهمٌ بصدد ضرورة الإيمَان بما ﴿أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾، على قدم المساواة مع القُرْآن ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾؛ وإجلال وتوقير واتِّباع جميع الكُتب، لأنَّها كلُّها، حسب القُرْآن، تتساوى مع كلمة اللّه. إذاً، لماذا يتجاهل هؤلاء الذين يؤمنون بالقُرْآنِ هذه الكتب المُقَدَّسة، القاعدة التي غرسها نبيُّهم على أنَّها شرط الإسلام الذي لا غنى عنه.

82. سُورَةُ البَقَرَةِ (2/ 140).

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيم، وَإِسْمَاعِيلَ، وَإِسْحَقَ، وَيَعْقُوبَ، وَالأَسْبَاطَ، كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى؛ قُلْ: «أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ؟» وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ؛ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ.. الخ﴾: « أيْ لا أحدَ أظلم منه، وهم اليَهُوْد كتموا شهادة اللّه في التَّوْرَاة لإِبْرَاهِيم بالحنيفيَّة» - (الجلالين). يقيناً، إنَّ الآية تعني أنَّ اليَهُوْد أصرُّوا بشكل متعصِّب بأن إِبْرَاهِيم كان يَهُوْدياً، ورفضوا الحقيقة الكبيرة أنَّ إِبْرَاهِيم ينتمي إلى الإسلام الحنيف، وعملياً يخفون الشَّهادة التي ائتمنها اللّهُ إليهم؛ تماماً كما يقول المَسِيحِيُّون إلى اليوم بأنّ اليَهُوْد يكتمون ـ لأنَّهم يحرِّفون، أو يرفضون الاعتراف ـ شهادة العهد القديم للمَسِيحِيَّة.

إنَّ يَهُوْد زمن مُحَمَّدٍ، مثل إخوانهم في العصر الحاضر، لن يسلِّموا بفكرة الإيمَان الواسع أو الموسّع، والتي أفضت إليها اليَهُوْديّة طبيعياً. ولن يقرُّوا بتفسير المقاطع في كتابهم التي يُزعم أنَّها تشير إلى المَسِيحيَّة أو الإسلام. ولن يعترفوا أو يسلِّموا بها. وعلى هذا فإنَّهم «يكتمون شَهَادَةً نزلت عليهم من اللّهِ».

لا يوجد هنا أيُّ إشارةٍ إمّا إلى تحريفٍ، أو إلى أيِّ نوعٍ من التّلاعب بالكتب المُقَدَّسة، من قِبل اليَهُوْد. بل على العكس، فإنَّ المقطع يتضمَّن ثناءً كبيراً على الأصل الإلهيِّ، وأصالة، ونقاء الكُتب المُقَدَّسة، كما هي في الواقع بأيدي يَهُوْد ذلك الوقت، بوصفها «شَهادةً عِندهم من اللّهِ».

83. سُورَةُ البَقَرَةِ (2/ 144 ـ 145).

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ؛ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا. فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ (في مَكَّةَ)؛ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ، فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ. وَإِنَّ

الذين أُوتُواْ الكِتَاب، لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ، وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ.

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الذين أُوتُواْ الكِتَاب، بِكُلِّ آيَةٍ، مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ، وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ، وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ العِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ.

سواءٌ أكانَ اليَهُوْد يُصوَّرن هنا على أنّهم ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ - (حسب الجلالين)، والمقصود المصّادقة الإلهيّة على تحويل القبلة إلى الكعبة في مَكَّة؛ أو ـ وهو أكثر ترجيحاً ـ وحي ورسالة مُحَمَّد بالعموم، فإنَّ الآية تؤكِّد معنى المقاطع السابقة؛ لا سيَّما أنَّ مُحَمَّداً يشير إلى الكُتُبِ المُقَدَّسةِ على أنَّها تحتوي شهادة له ولِرسالته، والتي يرفض اليَهُوْد الاعتراف بها رغم معرفتهم بها.

84. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 146).

الذين آتَيْنَاهُمُ الكِتَاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ؛ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

﴿يَعْرِفُونَهُ﴾: أي مُحَمَّد أو القُرْآن - (البَيْضاوِيّ).

إنَّ الإشارة، كما في النصِّ السابق، إلى ما يُزعم أنَّ اليَهُوْدِ يعرفون أنَ مُحَمَّداً والقُرْآنِ يواصلان النُّذر النَّبَوِيّة في كتبهم؛ وهو الأمر الذي لن يقرُّوا به على أيِّ حالٍ نتيجةً للحسد والحقدِ.

85. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 159 ـ 160).

إِنَّ الذين يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالهُدَى، مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَاب، أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ؛

إِلاَّ الذين تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ، وَبَيَّنُواْ: فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ؛ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

إنَّ مناسبة نزول هذا الشاهد، وحسب ابن إِسْحٰقَ (كما أورده ابن هشام في سيرته النَّبوِيَّة)، هو:

«كتمانهم ما في التَّوْرَاة من الحقِّ. وسألَ مُعاذُ بنُ جَبل، أخو بني سَلمة، وسعدُ بن معاذ، أخو بني عبد الأشهل، وخارجةُ بن زيد، أخو بَلْحارث بن الخزرج، نفراً من أحبار اليَهُوْد عن بعضِ ما في التَّوْرَاة، فكتموهم إيّاه، وأبَوْا أنْ يُخبروهم عنه. فأنزل اللَّهُ تعالَى فيهم: ﴿إِنَّ الذين يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالهُدَى، مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ، أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾».[1]

يُطعن بِاليَهُوْدِ مجدَّداً، وليس بسبب التلاعب بكُتبهم، بل ببساطة لأنَّهم لا يمتثلون لطلب مُحَمَّدٍ وأتباعه بتقديم الشواهد من كتبهم، التي يُفترَض أنَّها في صالح دعاوي مُحَمَّد، أو مبادئ الإسلام. إنَّ رفض الاستجابة لمثل هذا المطلب يلقى توبيخاً على أنَّه «كِتمان ما أَنزلَ اللَّه عليهم مِنَ البَيِّنَاتِ وَالهُدَى». وقد لُعنوا لامتناعهم عن نشر الحقيقة. إنَّ ذلك هو الحدُّ الأقصى من الاتِّهام. وليس ثمَّة أقلُّ تهمة ضدَّ التعاطي الدقيق والتبجيليِّ من قبل اليَهُوْد مع وثائقهم، أو نسخهم من العهد القديم.

لاحظ الشهادة المُدلى بها لِلكتاب الذي كان موجوداً بأيدي اليَهُوْد آنذاك؛ وقد وُصف بالقولِ: ﴿مَا أَنزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالهُدَى﴾.

86. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 174 ـ 176).

إِنَّ الذين يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الكِتَابِ، وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً؛ أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ، وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ؛ وَلَهُمْ

(1) [السيرة النَّبَوِيّة لابن هشام، تحقيق: مصطفى السّقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، د. ت، المجلد 1، ص 551، م.]

عَذَابٌ أَلِيمٌ.

أُولَئِكَ الذين اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى، وَالعَذَابَ بِالمَغْفِرَةِ؛ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ!

ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالحَقِّ؛ وَإِنَّ الذين اخْتَلَفُواْ فِي الكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ.

تكرار للفكرة المُعبَّر عنها في المقطع السابق. لقد اتُّهم اليَهُوْد برفض نشر الشهادات المزعومة في صالح مُحَمَّدٍ والإسلام الموجودة في كتابهم بسبب مصلحة زائلة (أيْ، تجنُّب غضب قومهم، خسارة الاعتبار القوميِّ، الخ).

إنَّ مفردة ﴿الكِتَاب﴾ الثانية في النّص، يمكن أنْ تشير إمَّا إلى القُرْآن أو إلى الكِتَاب المُقَدَّس. فإذا ما كانت الإشارة للأخير، فإنَّ النقاشات قد تعني أنَّ اليَهُوْد يتباينون بالرأي بشأن المعنى الصحيح للمقاطع المكتومة؛ فأولئك الذين اعتنقوا الإسلام يدافعون على أنَّها أشارت إلى مُحَمَّد، والذين بقوا يَهُوْداً رفضوا الإقرار بأنَّ لديهم أيَّ إشارة من هذا النّوع؛ إنَّ مثل هذا الرفض القائم، هو، في الواقع جوهر اتِّهام مُحَمَّد.

87. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 213).

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً، فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ، وَمُنذِرِينَ؛ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ، لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ؛ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الذين أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ؛ فَهَدَى اللّهُ الذين آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ، وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ.

88. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 253).

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ. مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ

دَرَجَاتٍ. وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ. وَلَوْ شَاء اللّهُ، مَا اقْتَتَلَ الذين مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ. وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ. فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ.

إنّ هذين المقطعيْن كما يبدو لا يتطلَّبان أيَّ تعليق.

89. سُوْرَةُ البَقَرَةِ (2/ 285).

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ؛ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ، وَمَلآئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ؛ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ. وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ.

إنَّ «الكُتُبَ» التي كانَ يُؤمن بها كلٌّ من مُحَمَّد وأتباعه بأنَّها مساوية لِلْقُرْآنِ، كانت الكُتُب المُقَدَّسة المنزلة ـ كتب العهدَين القديم والجديد، وأُشير إليها غالباً كما كانت بأيدي اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين.

90. سُوْرَةُ الحَدِيدِ (57/ 19).

وَالذين آمَنُوا بِاللَّهِ، وَرُسُلِهِ، أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ؛ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ؛ وَالذين كَفَرُوا، وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ.

إنَّ حظوةَ اللّهِ، والوعد بالمكافأة السماويّة، يوعد بها الذين يؤمنون، لا في القُرْآن فحسب، بل عند رُسلِ اللّهِ بالعموم، أيْ، في كُتبهم المنزلة وتعاليمهم؛ بينما في الجانب الآخر، فإنَّ الجحيم عاقبةُ الذين يكفرون، ويشكّكون في صدق تلك الكُتب.

وحسب النصّ، فإنَّ العقاب المرعب ينزل على أولئك المُحَمَّديّين، الذين إذْ يقبلون القُرْآن، «يكفرون ويكذِّبون» بالأنبياء والرسل السابقين، عبر رفض وحيهم، و﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

91. سُورَةُ الحَدِيدِ (57/ 25 ـ 28).

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ؛ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَاب، وَالمِيزَانَ، لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ؛ وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ، وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالغَيْبِ. إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيم؛ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ، وَالكِتَاب؛ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ.

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا؛ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيل؛ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الذين اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً؛ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ـ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ـ، إِلاَّ ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا. فَآتَيْنَا الذين آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ.

يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا! اتَّقُوا اللَّهَ، وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ؛ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ، وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.

﴿الكِتَاب﴾: الكُتب المُنزلة – (الجلالين). وقد وضعها اللهُ في ذرِّيتَي نُوح وإِبْرَاهِيمَ؛ بمعنى أنَّها استُودعت لدى الإِسْرَائِيليين، سلالة إِبْرَاهِيم، وتناقلوها فيما بينهم من جيل إلى آخر.

في هذه النصِّ قُرِّظ معلمو الديانة المَسِيحيَّة في زمنِ مُحَمَّدٍ على لطفهم وإنسانيَّتهم. لقد وضعَ اللّهُ في قلوبهم ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾. وفي الجملة الختاميَّة، حُضُّ هؤلاء المَسِيحِيُّون، وربَّما اليَهُوْد أيضاً، «المؤمنون»، على خشية اللّه، وعلى الإيمَان برسولِهِ؛ وفي هذه الحالة فإنَّهم يوعدون ﴿كِفْلَيْنِ[1]﴾ من الرحمة والسعادات الروحيَّة. ولا بدَّ أنَّ هذا الوعد فرض على المؤمن بالقُرْآن

(1) [كِفْلَيْنِ: ضعفين. م.]

أنْ ينظر إلى كلّ هؤلاء اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين الذين اعتنقوا الإسلام على أنَّهم صالحون. إنَّ وجود عدد وفير منهم أيّام مُحَمَّدٍ من وقائع التَّاريخ. وقد أُوتي أولئك إذاً السعادة المضاعفة، ووُعدوا بأنْ يُجعلَ لهم ﴿نُوْراً﴾ يمشون بهدايته. وعلى هذا فإنَّ نفس الحجَّة قابلة للتطبيق في الفقرة (62). إنّ أمثال هؤلاء المهتدين كانوا سيحفظون، ولا بدَّ، بعناية تلك الكُتب من العهدَين القديم والجديد، والتي احتكم إليها مُحَمَّدٌ على أنَّها شاهد، وكما كانوا سيحفظون العقيدة والممارسة التي شدَّد على أنَّهما أساس الامتيازات الخاصَّة الموعودة هنا. وكانوا سينقلونها إلى ذريَّتهم برهاناً لا يُدحض لدافع اعتناقهم الإسلام. علاوة على ذلك، هل نجد أيَّ كُتبٍ نقلتها الأيدي غير تلك التي لدى اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين متداولة حاليَّاً، والتي كانت متداولة من قديم الأزمنة دائماً؟ وإذْ لا يحوز المُحَمَّديون كتاباً مختلفاً للعهد القديم والجديد عمَّا هو متداول بين اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين، فإنَّ ذلك برهان قاطع بأنَّه ليس ثمَّة من حاجة إلى مثل هذه الحيطة؛ وأنَّ اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين الذين دخلوا في الإسلام، كانوا مقتنعيْن بأنَّ إخوانهم الذين رفضوا أنْ يصبحوا مسلمين، احتفظوا بالكتب في سلامتها؛ أو في الواقع لم يكن ثمَّة قطُّ من أساس مهما كان للشكِّ بأنَّ الأمرَ كان خلاف ذلك.

92. سُوْرَةُ البَيِّنَةِ (98/ 1ـ5).

لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَاب، وَالمُشْرِكِينَ، مُنفَكِّينَ حتَّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ؛

رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً،

فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ.

وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُوا الكِتَاب إلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ البَيِّنَةُ؛

وَمَا أُمِرُوا (في كُتُبِهم) إلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ؛ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ.

﴿وَمَا أُمِرُوا﴾: في كتابهم التَّوْرَاة والإِنجِيل – (الجلالين). ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾: أيْ في كتبهم بما فيها – (البَيْضاوِيّ). (ملاحظة. يرى البعضُ أنَّ هذه السّورة تنزَّلت في مَكَّة).

إنَّ ذلك شاهد لا لبس فيه بصدد نقاء كلٍّ من الكُتب اليَهُوْديّة والمَسِيحيَّة. على كلٍّ، ربَّما ضلَّ كثيرٌ من يَهُوْد ومَسِيحِيِّي ذلك العصرِ في ممارستهم، أو حادوا عن جادَّة الصَّواب أو حرَّفوا المعنى وعقائد كلمة اللّهِ، لكنَّ الكُتبَ التي تحتوي هذه الكلمة، وكما كانت متداولة بينهم، كانت، وحسب هذا المقطع، خالية من أيِّ مزجٍ آخر غير الحقيقة التامَّة والخالصة. إنَّها احتوت الوصيَّة الإلهيَّة في ﴿الدِّينَ حُنَفَاء... وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ﴾.

93. سُوْرَةُ الجُمُعَةِ (62/ 5).

مَثَلُ الذين حُمِّلُوا التَّوْرَاة، ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا، كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً. بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الذين كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللّهِ: وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ.

شُبِّه اليَهُوْدَ هنا بحمارٍ محمَّلٍ بأكثر الكُتب قيمةً، وهو لا يعي فائدتها أو قيمتها؛ ورغم أنَّهم القيِّمون المعيَّنون على الكُتب المُنزلة، إلَّا أنَّ كافَّتهم كانَ لا يدرك محتوياتها المُقدَّسة، فحُرموا من الانتفاع بها.

إنَّ هذه اللوحة تدعم بقوَّة النظرة المأخوذة على طول القُرآن بخصوص موقف وسلوك اليَهُوْد؛ وهي لا تختلف بشكلٍ جوهريٍّ عن الآراء التي غالباً ما يُعبِّر عنها المَسِيحِيُّون بشأنهم. ورغم اشتمال العهد القديم لكلمة اللّه النقيَّة والسليمة، فإنَّ اليَهُوْدَ ليس لديهم الحسُّ الروحانيُّ الكافي لرؤية الحقيقة التي

تشهد عليها. إنَّهم لا يبصرون الحقيقة.

إنَّ مغزى المقطع يفيد بشكلٍ لا لبس فيه أنَّ اليَهُوْد كانوا يحوزون كلمةَ اللّهِ الحقيقيَّة، وكان ينقصهم الإقرار والتطبيق القويم؛ لكنَّهم كانوا على جهالة شديدة وعجز في البصيرة.

94. سُوْرَةُ الفَتْحِ (48/ 29).

مُحَمَّد رَّسُولُ اللَّهِ؛ وَالذين مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الكُفَّارِ، رُحَمَاء بَيْنَهُمْ. تَرَاهُمْ رُكَّعاً، سُجَّداً، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً. سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ. ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاة وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ؛ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ، فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ؛ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ. وَعَدَ اللَّهُ الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً.

ربَّما تكون الإشارة هنا إلى بعض الصور في المَزامِيرِ، أو إلى مثلِ حكاية الزُّراع في الإنجِيل.

95. سُوْرَةُ الصَّفِ (61/ 6).

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم، مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاة، وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ». فَلَمَّا جَاءهُم بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ.

أوردَ مُحَمَّدٌ الآيةَ على أنَّها رسالة من يسوع إلى شعبه. وهي تقرُّ بنقاء وموثوقيَّة الكِتَاب اليَهُوْديّ كما كانَ موجوداً في زمن يسوع. إنَّ العهدَ القديم كانَ تامَّاً آنذاك، وشريعته منجزة كما هي الآن. ولذلك نجد بأنَّ ﴿التَّوْرَاة﴾ التي ورد ذكرها في القُرْآن تعني كامل العهد القديم: الشريعة، المَزامِير، والأنبياء، كما كانَ متداولاً ومعترفاً به في زمن يسوع.

ويبدو أنَّ الآيةَ تشير إلى الوعد من قبل يسوع بصدد البراكليت أو المعزّي والذي قُرِئَ بيركليت، وهو لفظَ ناسبَ مُحَمَّداً لكي يعتبره نبوّةً عنه.

96. سُوْرَةُ النِّسَاءِ (4/ 44 ـ 47).

أَلَمْ تَرَ إِلى الذين أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الكِتَابِ؟ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ، وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ؛

وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ. وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيّاً، وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيراً.

مِّنَ الذين هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ: «سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا»، وَ«اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ» وَ«رَاعِنَا»؛ لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَطَعْناً فِي الدِّينِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ: «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا»، وَ«اسْمَعْ» وَ«انظُرْنَا»؛ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ. وَلكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ، فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً.

يَا أَيُّهَا الذين أُوتُواْ الكِتَابَ! آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم، مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً، فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا، أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ؛ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً.

لكي أعرض سياق النَّصِّ فإنِّي أوردته كاملاً. فالخطاب هنا لِيَهُوْدَ يَثْرِبَ، الذين يستعملون أقوالاً محرَّفة، وكلمات ذات معنى ثنائيٍّ أو ملتبس، وعبارات في غير معناها المألوف، ومقاطع مقطوعة من سياقها، وتهدف هذه المنهجيَّة لجعل مُحَمَّد موضع السخرية والطعن في الدين، بينما يحتمي هؤلاء وراء معنى آخر ليس ظاهراً.

إنَّ المغزى هنا يماثل لِمَا في الآية التالية من سُوْرَةِ البَقَرَةِ (2/ 104): ﴿يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ! لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾. كلتاهما كانتا صيغة تحيَّة. بيد أنَّ الأولى كانت تحمل لمسةً من الإساءة أو الاحتقار؛ وقد كان هذا

المعنى المقصود من جانب اليَهُود، ولذلك فإن مُحَمَّداً حرَّم استعمالها تماماً. إنَّها نفس الممارسة التي شجبها في النصّ.

إنَّ شرح عبد القادر، مترجم الأوردو للقُرْآنِ، مناسب بشكل مقبولٍ. ولدينا ملاحظته:

«﴿رَاعِنَا﴾: كلمة كانت متداولة فيما بينهم، وقد شُرحت من قبل في الآية الثَّانيَة من سُوْرَةِ البَقَرَةِ، على النّحو التالي: عندما كان النَّبِيّ يتكلَّم، فإنّهم كانوا يجيبون ﴿سَمِعْنَا﴾، وهو ما كان يعني (لقد تلقَّينا كلماتك)؛ بيد أنَّهم كانوا يضيفون مفردة أخرى ﴿وَعَصَيْنَا﴾؛ أي (لقد سمعناه بآذاننا فحسب، ولم نسمع بقلوبنا)، ولهذا كانوا لدى خطابهم النَّبِيَّ، يقولون: ﴿اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، إنَّ التعبير الظاهريَّ هو استرحام للخير، أو (كن منتصراً دائماً، ودعْ لا أحدَ يجرؤ على قول كلمة سوء بحقك)، بيد أنَّهم كانوا يقصدون ببواطنهم (التكن أصمَّ)؛ وكان دَيدنهم ارتكاب مثل هذا الشرور»[1].

وعلى هذا، فإنَّ «الليَّ» و«تحريف الكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ» تكمن في قول، مثل ﴿سَمِعْنَا﴾، مع احتمال إضافة بصوت منخفض ﴿وَعَصَيْنَا﴾ و﴿اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، الملفوظة بشكلٍ متشابه؛ و﴿رَاعِنَا﴾، وهي المفردة التي كانت تُستعمل بمعنىً مهين.

إنَّ هذا يسمَّى في النص ﴿لَيّاً بأَلسِنَتِهِمْ﴾، والتي يشرحها الجلالين على أنَّ

---

(1) راعنا لفظ بولتي تهي اِسكا بيان: سورة بقر مين هوا اِسي طرح حضرت بات فرماتي تو جواب مين كهتي سنا همني اِسكي معني يهه هين كه قبول كيا ليكن آهسته كهتي كه نه مانا يعني فقط كان سي سنا اور دل سي نه سنا اور حضرت كو خطاب كرتي توكهتي هين نسنايا جائيو ظاهر مين يهه دعا نيك هي كه توهميشة غالب رهي كوئي تجهكو بري بات نه سنا سكي او ردلمين نيت ركهتي كه تو بهرا هو جائيو ايسي شرارت كرتي.

لها نفس المعنى لمفردة ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ الواردة من قبل، فيقول: «﴿لَيًّا﴾ تحريفاً ﴿ بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾». ولهذا فإنَّنا نصل إلى أنَّ التحريف أو تغيير الكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ الذي يُتَّهم به اليَهُوْد، كان من طبيعة ما شرحه النصُّ، وليس له أيُّ صلة على الإطلاق بأيِّ تحريفٍ أو تغيير من جانب اليَهُوْد للكتب المُقَدَّسة نفسها.

إنَّ فحوى المقطع، على العكس، «تؤكّد»، و«تصادق»، أو «تشهد رسميّاً» بغير ريب لِلكُتُب التي كانت لديهم؛ أيْ الكُتب المنزلة كما كانت لدى اليَهُوْد آنذاك. ولهذا بقدر ما هو بعيد وجود اتهام ضدَّ هذه الكتب كما كانت موجودة في أيدي يَهُوْد يَثْرِبَ ولدى إخوانهم المنتشرين في أرجاء المعمورة، فإنَّه صُودق عليها على أنَّها صحيحة وموثوقة.

97. سُوْرَةُ النِّسَاءِ (4/ 51).

أَلَمْ تَرَ إلى الذين أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الكِتَابِ؟ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ، هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الذين آمَنُواْ سَبِيلاً.

حسب المفسِّرين، فإنَّ النصَّ يشير إلى يَهُوْد محدَّدين، وهم الذين استشارتهم قُرَيْش بصدد القيمة الحقيقيَّة للإسلام، فأعلنوا بأنَّ وثنيَّتهم كانت أفضلَ من دينِ مُحَمَّدٍ المزيَّف. وإنَّه لا يتَّصل كثيراً بموضوعنا الحاليِّ، غير أنَّه يؤشِّر على البغض الذي بدأ يتزايد بين اليَهُوْد ومُحَمَّدٍ.

98. سُوْرَةُ النِّسَاءِ (4/ 54ـ55).

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ؟ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ، وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً.

فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ، وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ. وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً.

شهادة على الأصل الإلهيّ لِكُتب اليَهُوْدِ وإلى إِيمَانِ البعض من اليَهُوْد،

الذين، مهما فعل الآخرون، لن يعرِّضوا كتبهم للتلاعب.

99. سُوْرَةُ النِّسَاءِ (4/ 60).

أَلَمْ تَرَ إلى الذين يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ، وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ؟ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلى الطَّاغُوتِ؛ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً.

ثمّة تأكيد هنا على أنَّ بعضَ اليَهُوْدِ، الذين أقرُّوا بإيمانهم بالقُرآن كما بالكُتب السابقة، أبدوا استعداداً للمضي وحسم خلافهم حسب العادة الوثنيَّة أمام الصنم. فأبان مُحَمَّدٌ لهم سوء صنيعهم، بإحالتهم إلى كتبهم المُقَدَّسة الخاصَّة وتحريمها القاطع للوثنيّة. إنّ هذا الأسلوب الذي أشار فيه مُحَمَّدٌ إلى الكُتب لا يمكن أن يصدر إلّا عن امرئ كان يعتقد بأنَّها تحتوي على أوامر اللّه غير المحرَّفة.

100. سُوْرَةُ النِّسَاءِ (4/ 131).

وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الذين أُوتُواْ الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ، وَإِيَّاكُمْ: أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ، وَإِن تَكْفُرُواْ، فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ. وَكَانَ اللّهُ غَنِيّاً حَمِيداً.

﴿الكِتَاب﴾: بمعنى الكتب؛ ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: أي اليَهُوْد والنصارى – (الجلالين).

إنَّ كُتبَ اليَهُوْدِ والمَسِيحِيِّين المُقَدَّسة تُقتبس هنا ضمن نفس الفئة مع القُرْآن، بوصفها تعاليم اللّه الصَّادقة.

101. سُوْرَةُ النِّسَاءِ (4/ 136).

يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ! آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ، وَالكِتَاب الذي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ،

وَالكِتَابِ الذي أَنزَلَ مِن قَبْلُ؛ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً.

لا يُمارى مطلقاً بأنَّ ما يراه المؤمنُ في القُرْآن في هذه الآية هو أنّها تأمر كلَّ مؤمنٍ لا الإيمان بالكِتَاب الذي جاءَ به مُحَمَّدٌ فحسب، بل كذلك بالكُتب التي أنزلت من قبله؛ ومن يكفر فيها، أو «ومن كفر بشيء من ذلك» (البَيْضاوِيّ) يُعلن أنّه قد ضلَّ ضلالاً بعيداً وخطيراً.

«﴿آمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالكِتَابِ الذي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ، وَالكِتَابِ الذي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾، أثبتوا على الإيمَان بذلك ودوموا عليه وآمنوا به بقلوبكم كما آمنتم بألسنتكم، أو آمنوا إيماناً تامًّا عامًّا يعمُّ الكتب والرسل فإنَّ الإيمان بالبعض كلا إيمان» (البَيْضاوِيّ).

فيما يتَّصل بالفرقِ المُخاطبة، فإنَّ لدى البَيْضاوِيّ التعليق التالي: «خطابٌ للمسلمين، أو المنافقين، أو المؤمنين من أهل الكِتَاب؛ إذْ رُوِيَ أنَّ ابنَ سلاَّم وأصحابه قالوا: «يا رسولَ اللّهِ إنَّا نؤمن بكَ وبكتابك وبمُوسَى والتَّوْرَاة وعزيزٌ ونكفر بما سواه فنزلت: ﴿آمِنُواْ...﴾».

مهما كانتَ مناسبة الآيةِ، أو من هي الأحزاب الخاصَّة المعنيَّة بالخطابِ، فإنَّ الأمرَ كما بالوسع تبيُّنه هو شامل ومطلق. إذْ يُعلن بأنَّ اللّهَ يطلبُ الإيمَان بكلِّ الكُتبِ المنزلة، أيْ، ليس بالقُرْآن فحسب، بل أيضاً بكافَّة الكُتب المُقَدَّسة المنزلة قبل القُرْآن، أيْ تلك التي يُشار إليها دائماً على أنّها ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أو بأيدي اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين. لا يجب على اليَهُوْد رفض الكُتب المَسِيحيَّة؛ والمَسِيحِيُّون سيتلقَّون ليس الكتب اليَهُوْديّة والمَسِيحيَّة فحسب، بل القُرْآن كذلك؛ ولا يجب على المسلمين أنْ يؤمنوا بالقُرْآن فحسب، بل بالكتب اليَهُوْديَّة والمَسِيحيَّة بطريقة مماثلة. فإنْ لم يفعلوا فإنَّهم يوصفون بِأَنَّهم ﴿ضَلَّ

ضَلاَلاً بَعِيداً﴾.

ماذا سنقول إذاً لهؤلاء المسلمين في الوقت الحاضر الذين يرفضون ويكفرون بتلك الكتُب، وكم ضَلُّوا ضَلاَلاً بَعِيداً حسبما أعلن القُرْآن!

102. سُوْرَةُ النِّسَاءِ (4/ 150 ـ 153).

إِنَّ الذين يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ، وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ؛ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ: «بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ»؛ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً؛

أُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقّاً، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً.

وَالذين آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ، وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ، أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ، وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً.

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكِتَاب أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاء، فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ...

إنَّ معنى هذا المقطع يماثل المعنى الخاصَّ بالأخير، والعبرة المُستفادة منه هي نفسها. مع أنَّه يُخاطب بشكلٍ رئيس اليَهُوْد الذين يكفرون بالإِنجِيل، فَإِنَّ تحذيره قابل للتطبيق على المسلمين أيضاً، الذين إِذْ يعترفون بألسنتهم بالتَّوْرَاة والإِنجِيل، فإنّهم يكفرون فعليّاً بتلك الكُتب الإلهيَّة: كتب اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين الصحيحة التي كانت قيد التداول في القرن السابع الميلاديّ، وهو الإِيمَان الذين يرى القُرْآن أنَّه يجب يكون أساسيّاً.

إنَّ المُحَمَّدِيِّين الذين يؤمنون بالكتب السابقة، كما بالقُرْآن أيضاً، لهم ثواب حسب النصِّ أعلاه، في حين أنَّ أولئك الذين يكفرون بها «أُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقّاً، واللّه أعدّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً».

103. سُوْرَةُ النِّسَاءِ (4/ 162 ـ 164).

لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ، مِنْهُمْ وَالمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ، وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ. وَالمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ، وَالمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَالمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً.

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، كَمَا أَوْحَيْنَا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلى إِبْرَاهِيم وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَان. وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً؛

وَرُسُلاً، قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ؛ وَرُسُلاً، لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ؛ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً...

لاحظ:

أولاً: إنَّ المقطع وإنْ كانَ يخاطبُ اليَهُوْد في المقام الأوّل، إلَّا أنَّه يتحدَّث بعبارات قابلة للتطبيق بشكلٍ متساوٍ على كافَّة المسلمين. وإنَّ الوعد بـ «أَجْرٍ عَظِيم» لا إلى الذين يؤمنون بالقُرْآن فقط، بل الذين ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ، وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

ثانياً: يُعلن شكلُ وحي مُحَمَّد بأنَّه نفس ما كانَ يأتي الأنبياء السابقين.

ثالثاً: إنَّ القُرْآنَ لا يدَّعي تقديم تعداد كامل بالأنبياء السابقين. لكنْ لاحظ الفرق بين الإهمال بشكل مقصود والتحديد الغامض للأنبياء الذين أوحى اللّهُ إليهم، والنمط الدقيق والمحدَّد الذي يتحدَّث فيه دائماً عن «الكتب» التي «أُتيت» أو أُوحي بها.

104. سُورَةُ النِّسَاءِ (4/ 171).

يَا أَهْلَ الكِتَابِ! لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ؛ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الحَقِّ. إِنَّمَا المَسِيحُ، عِيسَى، ابْنُ مَرْيَمَ، رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ، القَاهَا إلى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِّنْهُ. فَآمِنُواْ بِاللّهِ، وَرُسُلِهِ؛ وَلاَ تَقُولُواْ: «ثَلاَثَةٌ»؛ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ. إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ! لَّهُ مَا فِي السَّمَوَات وَمَا فِي الأَرْضِ، وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً.

إنَّ تهمة الغلول بالدِّين موجهة كلُّها للمَسِيحِيِّين. إنَّ اتِّهام إساءَة تفسير الكِتَاب بتحريف ﴿الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾، لم توجَّه ضدهم قطّ. لكنْ ـ رغم كونه اتِّهاماً مغلوطاً ـ ألا نجد هنا تقديراً قريباً من العقائد التي يراها المَسِيحِيُّون!

من سُورَةِ المَائِدَة (5/ 116)،[1] يظهر ترجيح أنَّ مُحَمَّداً كانَ يرى أنَّ مَرْيَمَ في عقيدة مَسِيحِيِّي زمنه هي إحدى شخصيَّات الثالوث. ولعَلَّ ذلك نشأ عن عبادة مَرْيَمَ العذراء في بعض الكنائس المَسِيحيَّة الشرقيَّة، ومن إفادات أتباع مُحَمَّدٍ من اليَهُوْد؛ الذين اطَّلعوا بشكلٍ منقوصٍ على المَسِيحيَّة. لو كانت العقيدة المتعلِّقة بِمَرْيَمَ العذراء قد بُسطت بشكلٍ صحيح أمام مُحَمَّدٍ، مع الولادة الروحيَّة السرمديَّة لابن اللّه، وأُظهرت بأنَّها قابلة للاستنتاج بشكلٍ ضروريٍّ من البناء المنطقي للكُتب المُقَدَّسة التي يقرُّ هو نفسه بأنَّها مُنزلة، فهل كان سيرفض المُصادقة على هذه العقائد؟

105. سُورَةُ آلَ عِمْرَان (3/ 2ـ4).

اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، الحَيُّ، القَيُّومُ.

---

(1) [﴿وَإِذْ قَالَ اللّهُ: «يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ»؟ قَالَ: «سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ. إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ؛ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ؛ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ»﴾. م.].

نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَاب بِالحَقِّ، مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ؛ وَأَنزَلَ التَّوْرَاة وَالإِنجِيل

مِن قَبْلُ هُدَىً لِّلنَّاسِ؛ وَأَنزَلَ الفُرْقَانَ. إِنَّ الذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ (الكُتب المنزلة) اللّهِ، لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ. وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ.

لقد أَنزَلَ اللّهُ التَّوْرَاةَ والإِنجِيلَ فيهما ﴿هُدَىً لِّلنَّاسِ﴾، والجملة ترد فوراً بعد تعداد هذه الكتب، وتضيف بأنَّ مَنْ يكفرْ ﴿بِآيَاتِ (أيْ الوحي) اللّهِ﴾، فإنَّ له «عَذَاباً شَدِيداً».

على المسلمين إذاً ـ مثل اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين ـ الحذر من الكُفر بأيٍّ من آيات وكتب ﴿اللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾، لئلاً يجعلوا من أنفسهم عرضةً لغضبه، ويتعرَّضوا لـ ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

106. سُوْرَةُ آلَ عِمْرَان (3/ 19).

وَمَا اخْتَلَفَ الذين أُوْتُواْ الكِتَاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العِلْمُ، بَغْياً بَيْنَهُمْ.

انظر المقاطع السابقة ذات المعنى المشابه.

107. سُوْرَةُ آلَ عِمْرَان (3/ 23 ـ 24).

أَلَمْ تَرَ إِلى الذين أُوْتُواْ نَصِيباً مِّنَ الكِتَاب؟ يُدْعَوْنَ إلى كِتَابِ اللّهِ، لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ. ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ، وَهُم مُّعْرِضُونَ.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ: «لَن تَمَسَّنَا النَّارُ، إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ». وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ.

يروي المفسِّرون عدَّة حوادث بوصفها سبباً لنزول النصِّ. ولا يعنينا تناولها؛ فمهما كان السبب، فإنَّ ما اتُّفق عليه من جميع الروايات أنّه كانَ يوجد خلاف في الرأي بين مُحَمَّدٍ واليَهُوْدِ، فاقترح النَّبِيّ على الأخيرين الفصلَ في

القضية بالرجوع فعليّاً إلى كتبهم؛ وقيل إنَّ بعضَ اليَهُوْدَ رفضوا القيام بذلك، وانفضُّوا عنه.

إنَّ الكِتَاب الذي اقترحه مُحَمَّد كي يكون حَكماً في الخلاف، كانَ الكِتَابُ اليَهُوْديُّ المُقَدَّسُ، المتداول بين اليَهُوْدِ، والذي اعترف به كلاهما ـ اليَهُوْدُ ومُحَمَّد ـ إنَّه كتابٌ منزلٌ؛ وأنَّ هذا الكتاب الذي وجبَ إحضاره والاحتكام إليه من قبلِ الجانبَين. وقد سُمِّي ﴿كِتَابِ اللّهِ﴾.

هل ثمَّة شهادة أكثرة قوَّةً يمكن أنْ يُرغب بها على الأصل الإلهي وموثوقيَّة الكُتب اليَهُوْديَّة كما كانت بين أيدي اليَهُوْد، وَالتي اقترح مُحَمَّدٌ نفسه أنْ تكون السُّلطة النِّهائيَّة والمطلقة في الخلاف؟

108. سُوْرَةُ آلَ عِمْرَان (3/ 48 ـ 50).

وَيُعَلِّمُهُ (اللّه يسوعَ) الكِتَاب، وَالحِكْمَةَ، وَالتَّوْرَاة، وَالإِنجِيل؛

وَرَسُولاً إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ. (قال يسوع) أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم... مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاة وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ.

من أجل توفير المساحة، فإنَّنا أغفلنا القصص المتعلِّقة بالمعجزات التي قام بها المسيحُ نفسه. إنَّ كلمات يسوع، كما استُشهد بها هنا في القُرْآن، تظهر أنَّ العهد القديم الذي كانَ موجوداً في زمن يسوع، هو في حالته الأصليَّة وغير المحرَّفة. وبالفعل، قد لا يكون ضروريّاً الإشارة إلى هذا المقطع، ذلك أنَّ نفس الكلمات المصدِّقة التي أوردها مُحَمَّدٌ في القُرْآن تخصُّ كلا العهدَين: القديم والجديد.

109. سُوْرَةُ آلَ عِمْرَان (3/ 65 ـ 66).

يَا أَهْلَ الكِتَاب! لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيم؟ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاة وَالإِنجِيل إِلاَّ

مِن بَعْدِهِ؛ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ؟

هَأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ؛ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ؟ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ.

حسب المفسرين، فإنَّ النَّصَّ ينطبق على اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين، الذين ادَّعوا كلاهما أنَّ إبْرَاهِيم ينتمي إلى ديانتهما، وهذا ما سيدحضه مُحَمَّدٌ بقوله إنَّ إبْرَاهِيم عاش قبل نزولِ العهد القديم، وكذلك الإنجيل؛ فكيف يقولون إذاً بأنَّه ينتمي إلى ديانة كلٍّ من هذَين الكِتَابَين؟ أو ما هي وسائل الحكم التي لديهم من كتبهم حول ماهيَّة دينه؟ نحن لا ندَّعي الإدلاء برأي بصدد صحَّة هذا البرهان. إنَّ المقطع أُورد ببساطة لأنَّ العهدَين القديم والجديد مذكوران فيه. إنَّ العلم الذي يُعترف بأنَّ اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين يحوزونه، والمتعلِّق ببعض النقاط المحدَّدة التي كانوا يختلفون فيها، هو بدون شكٍّ معرفة كتبهم الخاصة.

110. سُوْرَةُ آلِ عِمْرَان (3/ 69 ـ 73).

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَاب لَوْ يُضِلُّونَكُمْ؛ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ، وَمَا يَشْعُرُونَ.

يَا أَهْلَ الكِتَاب! لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ، وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ؟

يَا أَهْلَ الكِتَاب! لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ، وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ، وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ؟

وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَاب: «آمِنُواْ بِالذي أُنزِلَ عَلَى الذين آمَنُواْ، وَجْهَ النَّهَارِ، وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ؛

وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ». قُلْ: «إِنَّ الهُدَى هُدَى اللّهِ، أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ». أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ؟ قُلْ: «إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ؛ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء، وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

حسب جميع الروايات، فإنَّ الخطاب في المقطع لِيَهُوْد يَثْرِبَ، الذين عارضوا مُحَمَّداً. فهو يفتتح بتفنيد العقائد المنحرفة التي سعوا إلى غرسها في مُحَمَّد وأتباعه. لقد كانوا متشبِّثين بشكلٍ متعصِّب بمنظومتهم الخاصَّة، وكانوا يعتقدون طبيعيّاً بالقول الشائع ﴿وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، وقد أضاف ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ، وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، أيْ بعقائدهم الضالة. وذلك بتفسيرهم وتطبيقهم الفاسديْن لكتبهم، وهو الأمر الذي وبخُ مُحَمَّدٌ اليَهُوْدَ عليه. ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ﴾، أيْ البرهان المتضمَّن في كتبكم، ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

فيما يتعلَّق بالاتِّهام بـ «كتمان الحقّ»، انظرْ الملاحظات، والاستشهاد من ابن إِسْحٰقَ في الفقرة (85). إنَّ التُّهمة الموجَّهة إليهم هنا هي أنَّهم يخفون الحقَّ، ويفسِّرون كتبهم بشكل خاطئ ومنحرف. إنَّ الكُتب نفسها كانت نقيَّة وسليمة؛ بيد أنَّهم أساؤوا فهم معناها، أو أساؤوا استعمالها عمداً.

إنَّ تهمة الإقرار بوحي مُحَمَّدٍ صباحاً، ثم رفضها مساءً، يعرضها ابنُ إِسْحٰقَ فيما يلي:

«قالَ عبدُ اللّهُ بن صَيف، وعديّ بن زيد، والحارث بن عوف، بعضُهم لبعضٍ: "تعالَوْا نؤمن بِمَا أُنزلَ على مُحَمَّدٍ وأصحابه غُدوةً، ونكفر به عشيَّةً، حتى نَلْبسَ عليهم دينهم لعَلَّهم يصنعون كما نصنع، ويرجعون عن دينه". فأنزلَ اللّهُ تعالَى فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ! لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ، وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ، وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ؟﴾».[1]

ورداً على هذه الخدع التافهة، التي تهدف إلى إلقاء الشكِّ في وحيه، فإنَّ مُحَمَّداً أجاب بأن تأييدات اللّهِ الروحيَّة (ليس كما يرى اليَهُوْد، مقتصرة على

(1) [سيرة ابن هشام: المجلد 1، ص 553. عبدُ اللّهُ بن صَيف، أو ضيف، م.]

أمَّتهم الخاصَّة فحسب) لا تتعلَّق بالأشخاص، بل هي شاملة. وعلاوة على ذلك، فإنَّ مشيئة اللّهِ أمرته أنْ يقولَ لأمَّته: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ (أي مُحَمَّد) مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾، أيْ، مثل كُتب العهد القديم اليَهُوْديَّة. إنَّ هذا المقطع، وعوضاً عن أنْ يكون اتِّهاماً ضدَّ الكتب اليَهُوْديَّة، يحتوي على ذكر واضح وتبجيليٍّ لمرجعيَّتها وأصالتها الإلهيَّة؛ ويشبِّهُ القُرْآنَ بالكتاب اليَهُوْدِيِّ: ﴿مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾.

111. سُوْرَةُ آلِ عِمْرَان (3/ 78).

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالكِتَابِ، لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتَابِ، وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ؛ وَيَقُولُونَ: «هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ»، وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ؛ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

يُوجَّه هنا نقد لاذع لِيَهُوْدِ يَثْرِبَ لمحاولتهم المكرَ بمُحَمَّد أو أتباعه؛ ويُزعم أنَّهم ادَّعوا بأنَّ بعض المقاطع التي قرؤوها على مُحَمَّدٍ أو أتباعه جاءَت في الكُتب، بينما هي في الواقع ليست من الكُتب المُقَدَّسة. وكانوا يتلونها وهم ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم﴾، أيْ بأسلوب كلام مراوغ، أو ذي معنيَين. إنَّ التعبير مشابه لما ورد في سُوْرَةِ النِّسَاءِ الآية 46 (ف 96)، ﴿لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ – انظر في موضعها.

مهما كانت طبيعة هذا السلوك، وسواءٌ بلغ حدَّ المكيدة فعليّاً والمراوغة في تلاوة التقاليد، والشروح، أو أيِّ كتاباتٍ أخرى من أحبارهم، بحيث يُظنُّ معها أنَّهم يَستشهدون من الكُتب، فإنَّه واضحٌ عدم وجود إشارة، مهما كانت، إلى التلاعب بالكُتب نفسها. بل على العكس، حتَّى وإنْ كانت التهمة من طبيعة وخطورة الخداع الفعليِّ، فإنَّها تعني ضمناً بأنَّ اليَهُوْد لم يجرؤوا على ارتكاب أيِّ تدنيسٍ مثل تغيير الكُتب المُقَدَّسة. بل ببساطة زعموا أنَّهم يقرؤون منها، بينما في الواقع كانوا يقرؤون من مصدر آخرٍ، ولكنَّهم تمكَّنوا بأسلوب حديثهم

المخاتل[1] أنْ يبعدوا المسلمين عن الدين الذي كان كلمة اللّه.

إنّ ذلك ينسجم تماماً مع ما هو معروف عن اليَهُوْد أنّهم كانوا في كلّ الأزمنة شديدي الدقّةِ فيما يخصُّ الحرف والنصّ من كتبهم المُقَدَّسة، على أيِّ حالٍ، ربّما كانوا في أيِّ مجال آخر عديمي الضمير.

112. سُوْرَةُ آلَ عِمْرَان (3/ 79).

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الكِتَاب، وَالحُكْمَ، وَالنُّبُوَّةَ، ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ، كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ؛ وَلَكِن، كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَاب، وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ.

مهما كانت مناسبة النصّ، وسواءٌ أكان ينطبق على اليَهُوْد أو المَسِيحِيِّين، فإنَّه يدلُّ على أنَّه بإمكانهم من قراءة كتبهم والقيام «بدراستها» أنْ يكونوا نتيجةً لذلك ﴿رَبَّانِيِّينَ﴾. إنَّ النصَّ شهادة مسهبة على أصالة وفضيلة الكُتب المنزلة، الموجود آنذاك بأيدي اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين.

البَيْضاوِيّ يشرح: «الربانيُّ هو الكاملُ في العلم والعمل، ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَاب، وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: بسبب كونكم معلمين الكِتَاب، وبسبب كونكم دارسين له؛ فإنَّ فائدة التعليم والعلم معرفة الحقِّ، والخيرِ، للاعتقاد والعمل».

113. سُوْرَةُ آلَ عِمْرَان (3/ 81).

وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ، لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ؛ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ؛ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنصُرُنَّهُ...

إنَّه يقرُّ بأنَّ أمراً مُعطىً من اللّه لأنبيائه السابقين، كي يؤمنوا بمُحَمَّدٍ عندما

(1) [العبارةُ القرآنيّة: ﴿يَلْوُونَ الِسنَتَهُم﴾، م.]

يحلُّ موعد خروجه، ولأجل أنْ ينصروه. وفي هذا الأمر النَّبَوِيّ، كيف وُصف مُحَمَّدٌ؟ ببساطة ﴿رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾. وهذا مَعْلَمٌ كبيرٌ أوجب على اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين أن يقرُّوا بالنَّبِيّ القادم، وهو إنَّهُ سيقدم تأكيده على الكُتب الإلهيَّة التي هي ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾، أي الموجودة آنذاك في أيديهم.

﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾: من الكِتَاب والحكمة وهو مُحَمَّدٌ – (الجلالين).

114. سُوْرَةُ آلَ عِمْرَان (3/ 84).

قُلْ [يا مُحَمَّد]: آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيم وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ. لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.

إنَّها كما في الفقرة (81)، وتقريباً كلمة بكلمة، راجع الفقرة.

115. سُوْرَةُ آلَ عِمْرَان (3/ 93 ـ 94).

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ، إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ، مِن قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاة، قُلْ: «فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاة، فَاتْلُوهَا، إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ».

فَمَنِ افْتَرَىَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ، فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

في النقاش مع يَهُوْد يَثْرِبَ بصدد أكل أنواع معيَّنة من اللحم المحرَّم حسب القانون اليَهُوْديّ (يقولُ المفسِّرون إنَّه لحم الإبل)، فإنَّ مُحَمَّداً أيَّد حجَّته بالقول إنَّ تحريم بعض الأنواع من اللحم محدَّد بالتَّوْرَاة فحسب، أو الكُتب الخمسة؛ وإنَّه لم يكن هذه اللحم محرَّماً على الإطلاق في زمن إِبْرَاهِيم وفي كلِّ الأزمنة قبل نزول الشريعة على مُوسَى، ما عدا ما جعله يَعْقُوب محرَّماً على نفسه وفق طوع مشيئته، والذي يُمنع على بني إِسْرَائِيل أكله وفقاً لذلك (انظر، سفر التكوين: 32/ 32). وبالتَّالي فإنَّ مُحَمَّداً جادلَ، بأنَّهَ في المعتقد

الإِبْرَاهِيمي (أو الحنيف) الذي كان يتقيَّد به، فإنَّ هذا اللحم ليس محرَّماً.

من أجل البرهنة على موقفه، أورد مُحَمَّدٌ الكلمات في النصّ التالي الذي يأمره اللّهُ فيه أنْ يقولَ لليَهُوْد: ﴿فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاة، فَاتْلُوهَا (للبرهان إنْ كنتُ محقّاً أم لا)، إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

إنَّ ذلك يجب أنْ يكون قراراً جازماً ونهائيّاً للمسألة؛ ﴿فَمَنِ افْتَرَىَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ، فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

لقد كانَت التَّوْرَاة آنذاك العهد القديم، الذي كان يَهُوْد يَثْرِبَ يتداولونه، بالتشارك مع يَهُوْد جميع البلدان المجاورة، والذي طلب مُحَمَّدٌ إبرازه لِلملإ، والاحتكامِ إليه بالتالي بوصفه مرجعاً لا يرقى إليه الشكُّ للمسألة موضعَ الخلاف.

116. سُوْرَةُ آلَ عِمْرَان (3/ 99).

قُلْ، يَا أَهْلَ الكِتَاب! لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ، وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ؟

قُلْ، يَا أَهْلَ الكِتَاب! لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ، مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً، وَأَنتُمْ شُهَدَاء؟

﴿وَأَنتُمْ شُهَدَاء﴾: عالمون بأنَّ الدين المرضي القيِّم دين الإسلام كما في كتابكم - (الجلالين). إنّه إشارة غير مباشرة إلى الطابع الموثوق للكتب المُقَدَّسة التي في حوزة اليَهُوْد.

117. سُوْرَةُ آلَ عِمْرَان (3/ 113_114).

لَيْسُواْ سَوَاءً. مِّنْ أَهْلِ الكِتَاب أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ، وَهُمْ يَسْجُدُونَ.

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ، وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ. وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ.

إنَّ النصَّ، الذي أتى بعد مقطع يدين اليَهُوْد لِقتلهم الأنبياء، وعلى عصيانهم، يصرِّح بأنّ ثمَّة في زمن مُحَمَّد يَهُوْداً صادقين وجيِّدين، كانوا يقرءون الكُتب، وما ينفكُّون يصلُّون أبداً.

سواءٌ أكانَ مثلُ هؤلاءِ اليَهُوْدِ قد انضموا إلى الإسلام أم لا، فإنَّه لا يمكن تصوُّر أنّهم كانوا سيغيِّرون، أو كانوا سيرضون بالوقوف صامتين والعهد القديم يتعرَّض للتغيير، وتعليمه مغروسٌ فيهم حسب موضع آخر في القُرآنِ، والذي زُعم بأنّه يحتوي الكثير من البراهين على رسالة مُحَمَّدٍ.

118. سُوْرَةُ آلَ عِمْرَان (3/ 119).

هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ (اليَهُوْد)، وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ، وَتُؤْمِنُونَ بِالكِتَابِ كُلِّهِ.

﴿بِالكِتَابِ كُلِّهِ﴾: أيْ بالكُتب كلّها - (الجلالين). بجنس الكِتَاب كلِّه، والمعنى أنّهم لا يحبُّونكم والحال أنّكم تؤمنون بكتابهم - (البَيْضاوِيّ).

إنَّ المسلمين آمنوا بكتب اليَهُوْدِ: إنَّ ﴿الكِتَاب كُلِّهِ﴾ كتابَ العهدِ القديم الذي يُعتقد أنَّ اللَّهَ أنزله على اليَهُوْد قبل زمن مُحَمَّد، كانَ يؤمِن به بصورة متساوية كلٌّ من مُحَمَّد وأتباعه.

119. سُوْرَةُ آلَ عِمْرَان (3/ 183 ـ 184).

الذين قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا، أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ؛ قُلْ: «قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي، بِالبَيِّنَاتِ، وَبِالذي قُلْتُمْ. فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ، إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ؟»

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ، جَآؤُوا بِالبَيِّنَاتِ، وَالزُّبُرِ، وَالكِتَابِ المُنِيرِ.

إنَّ الكُتب المقرَّظة هنا هي كتب اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين. وعلى ذلك يقول الجلالين: «﴿المُنِيرِ﴾: الواضح، هو التَّوْرَاة والإِنجِيل».

120. سُوْرَةُ آلَ عِمْرَان (3/ 187 ـ 188).

وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الذين أُوتُواْ الكِتَابِ؛ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ، وَلاَ تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ، وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ؛

لاَ تَحْسَبَنَّ الذين يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ، وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ، فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ العَذَابِ. وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

يذكر النصُّ أساسَ الخلافِ بين مُحَمَّدٍ واليَهُوْد. أنَّهم رفضوا الاعتراف به، أو الإقرار بأنَّ ثمَّة نبوءَةً في كُتبهم تشير إليه لو فُسِّرت بشكلٍ صحيحٍ. وقد أخفق مُحَمدٌ في إقناعهم بـ«نشرها». وهذه هي تهمة إخفاء الحقِّ؛ وبيعه مقابل ربح قليل، وهي تهمة يُحاجَج بها هنا، كما في أمكنة أخرى في القُرْآن، ضد اليَهُوْد.

121. سُوْرَةُ آلَ عِمْرَان (3/ 199).

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ، وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ، وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ، خَاشِعِينَ لِلّهِ؛ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً. أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ؛ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الحِسَابِ.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾: من الكِتَابيْن – (البَيْضاوِيّ). أي التَّوْرَاة والإِنجِيل – (الجلالين). ويضيف نفس المفسِّر:

«﴿لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ التي عندهم في التَّوْرَاة والإنجيل من بعث مُحَمَّد؛ ﴿ثَمَناً قَلِيلاً﴾ من الدنيا بأن يكتموها خوفاً على الرياسة كفعل غيرهم من اليَهُود» - (الجلالين).

يُشار هنا إلى اليَهُود والمَسِيحِيِّين الطيِّبين بأنَّهم يواصلون الإيمَان به، ويعتقدون بشكلٍ ثابتٍ، بالعهدِ القديم والجديد، وكذلك بالقُرْآن. إنَّهم لم يسيئوا تفسيرها، ولم يحرِّفوا معانيها. وعلى أيِّ حالٍ، لا بدَّ أنَّهم أخذوا كلَّ وسيلة لمراقبة كتبهم السابقة، كما القُرْآن، تتناقلها الأجيالُ، نقيَّةً وخالصة.

122. سُوْرَةُ المَائِدَة (5/ 13 ـ 15).

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ، لَعنَّاهُمْ، وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً؛ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ، وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ. وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ، إلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ. فَاعْفُ عَنْهُمْ، وَاصْفَحْ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ.

وَمِنَ الذين قَالُواْ: «إِنَّا نَصَارَى»، أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ، فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ. فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاء إلى يَوْمِ القِيَامَةِ؛ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ.

يَا أَهْلَ الكِتَابِ! قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا؛ يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ، وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ. قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ.

لدينا هنا نفس التهمة الموجَّهة ضدَّ اليَهُود بالضبط كما في الفقرة (96)، أيْ تهمة أنَّهم ﴿يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾. ومن الملاحظ: أوَّلاً، هنا وفي أماكن أخرى، أنَّ التهمة مقتصرة على اليَهُود؛ ولم يُلمَّح قطُّ بمثل هذا الإثم ضدَّ المَسِيحِيِّين. وثمَّة حقّاً اتِّهام بنسيان ﴿حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾؛ ومن الواجب الاعتراف بأنَّ ثمَّة في ذلك العهد، كما في كلِّ عصرٍ، أساس كبير للتهمة.

وهذا بالتحديد، ما يمكن قوله بشأن مسلمين كثيرين في عصرنا لدى قيامهم بالتعازي، والصلاة للسادة والمرشدين، وتقديم النذور إليهم، إلخ، بأنّهم «نَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ» في القُرْآن. بيد أنّه ليس ثمّة هنا، أو في مكان آخر أيُّ تهمة ضد المَسِيحِيِّين بأنّهم ﴿يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾، أو حتّى بأنّهم يسيئون تفسير الكُتب ويحرِّفون معانيها. ولهذا (بالنسبة لهدفنا الحالي) لا يعنينا كثيراً تبرئة اليَهُوْد من مثل هذه الملامات؛ لأنّه كان معروفاً من غابر الأزمنة، أنَّ كافةَ الكُتب اليَهُوْديّة كانت في حيازة المَسِيحِيِّين كما اليَهُوْدِ، وكان يُنظرُ إليها على أنّها منزلة على حدٍّ سواء مع العهد الجديد، ومثلها كانت تُتلى في كنائسهم بشكلٍ منتظم. إذاً، ومهما كانت احتمالات أنَّ اليَهُوْد حاولوا العبثِ بكتبهم الخاصَّة، فإنَّ مثل هذه المحاولات لا يمكن أنْ تمتدَّ إلى النسخ المحفوظة بعناية من جانب المَسِيحِيِّين.

ونعيد التأكيد، أنّه لم يكنْ لليَهُوْد ما يفعلونه مع العهد الجديد البتّة. إنَّ «إساءة التفسير»، و«التحريف»، «تحريف الكَلِم عن مواضعه» إذاً، ومهما كان الذي يمكن عزوه إلى اليَهُوْد، فإنَّ هذه التهمة لا يمكن أنْ يكون لها أدنى صلة ممكنة بالإِنجِيل.

ويتمخَّض عن هذه الحقيقة إذاً، أنَّ الكتب المُقَدَّسة ـ كلٌّ من العهدَين القديم والجديد ـ كما كانت بحوزة المَسِيحِيِّين في أيام مُحَمَّدٍ، خالية من تلك المطاعن، المعبَّر عنها دائماً بشكل واسع؛ والتي اعتاد المُحَمَّديّون على إلقائها على الكُتب التي كانت لدى اليَهُوْد.

بيد أنّه، في المقام الثاني، فإنَّ التهمة في النصِّ، مع أنّها تتعلق باليَهُوْد، لا تلصق أيَّ تهمةٍ تلاعب بنسخ كتبهم المُقَدَّسة. لقد رأينا سابقاً (ف 96) بأنَّ نفس الكلمات استُعملت لتعني لا أكثر من أنَّ المقاطع قد فُسرت بشكل متعارض مع سياقها؛ ذلك أنَّ الجُمل كانت تُقدَّم بشكل مستقلٍ ومفكَّكٍ، ومشوَّهة المعاني؛

كما أنَّ العبارات استُعملت بمعنى مضلِّل أو مزدوج: وفي الواقع وردت في القُرْآن أمثلةٌ على تحريفِ الكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ. ولا يمكن أنْ مُحَمَّداً قصدَ بهذه العبارات أبداً أنَّ اليَهُوْدَ قد تلاعبوا بكُتبهم المنزلة. ذلك أنَّ المعنى العامَّ وغاية الإشارات المتكرِّرة في صفحات القُرْآن إلى الكُتب، كما كانت موجودة بأيدي اليَهُوْد، هي إلى كتب ذات موثوقيَّة، وأصالة، ونقيَّة وإلهيَّة.

وإذا كانَ اليَهُوْد نَسوا «حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ»، فإنَّ مُحَمَّداً يقول، في ختام المقطع الوارد أعلاه، بأنَّ هدفَ رسالتِهِ كانَ أنْ «يُبَيِّنُ كَثِيراً» منها، وأنْ يُخرج للنورِ الكثير من العقائد والوصايا التي أخفوها، أو فشلوا في إظهارها؛ وأنْ ﴿يَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾، أيْ، يقوم بنسخ الكثير من الطقوس والأوامر اليَهُوْديَّة.

123. سُوْرَةُ المَائِدَة (5/ 41).

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ! لاَ يَحْزُنكَ الذين يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ مِنَ الذين قَالُواْ: «آمَنَّا»، بِأَفْوَاهِهِمْ، وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ. وَمِنَ الذين هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ؛ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ. يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ، يَقُولُونَ: «إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا، فَخُذُوهُ؛ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ، فَاحْذَرُواْ»...

لقد صُنِّفَ اليَهُوْدُ هنا مع منافقي يَثْرِب أو العاصين. فاتُّهموا بسماع الكذب، أو إساءة تفسير كلماتِ مُحَمَّدٍ إلى النَّاس الآخرين؛ وكذلك إثم (ذُكِرَ سابقاً) تحريف المقاطع عن مواضعها الخاصَّة. وعُبِّر عن هذه الجريمة بشكلٍ واضح بالكلمات ﴿يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾، أيْ، إمَّا من خلال فصل المقطع عن سياقه الخاصِّ، أو ذكره لوحده، وكذلك بإعطائه معنىً مختلفاً؛ أو إعادة ذكره في سياق خاطئ ضمن مقاطع أخرى، وبالتالي تشويهها كلِّها. إنَّ هؤلاء العلماء الضالين يطلبون من الناس الذهاب إلى مُحَمَّد؛ وإذا ما وجدوا أنَّ تعاليمه تنسجم معها هذه الجمل المفصولة أو المحرَّفة عن مواضعها أو

المُسَاءُ تفسيرها، فإنَّ عليهم قبولها، وبخلاف ذلك فإنَّ عليهم الحذر منها. انظر الفقرة (96) بصدد معنى «تحريف الكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ».

124. سُورَةُ المَائِدَة (5/ 43 ـ 48).

وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ، وَعِندَهُمُ التَّوْرَاة فِيهَا حُكْمُ اللّهِ؟ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ، وَمَا أُوْلَئِكَ بِالمُؤْمِنِينَ.

إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاة؛ فِيهَا هُدَىً وَنُورٌ. يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الذين أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ؛ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ، بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ، وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء. فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ، وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً. وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ، فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ.

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا: «أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ، وَالعَيْنَ بِالعَيْنِ، وَالأَنفَ بِالأَنفِ، وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ، وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ، وَالجُرُوحَ قِصَاصٌ؛ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ. وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ، فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاة؛ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيل فِيهِ هُدَىً وَنُورٌ، وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاة، وَهُدَىً وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ؛

وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيل بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ، وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ، فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ.

وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَاب بِالحَقِّ، مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَاب، وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ، فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ، وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الحَقِّ. لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً؛ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً؛ وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم. فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ

تَخْتَلِفُونَ.

يتضمَّن المقطعُ الشَّهادةَ الأكثر جلاءً ـ حسب القُرْآن ـ للكُتب التي كانت متداولة بين اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين (﴿عِندَهُمُ﴾) في زمن مُحَمَّدٍ، ويفيد أنَّها أُوحي بها (﴿أَنزَلَ﴾)، وأنَّها معطاة (أتت) من اللّه نفسه؛ وأنَّها كانت، كما كانت صيغتها آنذاك، موثوقة وأصيلة، وقد أُعتبرت معياراً للحكم ليس محلَّ جدلٍ. ونفس العبارات وردت بشأن العهدَين القديم والجديد؛ وقد أُضيفت في معرض الإشارة إلى كلِّ واحدٍ منهما: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ، فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ،... الظَّالِمُونَ،... الفَاسِقُونَ﴾، وقد جاء هذا التكرار الثلاثي كي يضفي على العبارةِ مهابةً. وعلى ذلك، فَإِنَّ الكُتبَ تعيَّنت بشكلٍ موثوقٍ في القُرْآن على أنَّها الحكم المطلق للصواب والخطإ، وهذا يعني أنَّ مؤلِّفه اعتبرها كاملةً ونقيَّة من التحريف.

بوسع المسلم النزيه إشباع فضوله (وعليه أَلَّا يوفِّر جهداً لفعل ذلك) بأنَّ العهدَين القديم والجديد المتداولَين الآن بين اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين، هما ذاتهما كما كانا قيد التداول فيما بينهم في القرن السَّابع الميلادي. وبراهين ذلك موجودة بشكل وافر في المخطوطات، والشروحات، والاستشهادات، التي تعود إلى تاريخ أسبق بكثير من مولد النَّبِيِّ. وعندما نطالبه بأنْ «يحكم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ»، فَإنّنا بذلك نحذِّره من عصيانَ أمر اللّه، ونلفت انتباه لئلاَّ، برفضه الكُتب اليَهُوْديَّة والمَسِيحيَّة، وتجديفه بمحتوياتها المُقَدَّسة، يجلب على نفسه العقوبة التي وُعد بها محتقر كلمة اللّه؛ وَمَنْ ﴿لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ﴾، أو حتَّى يعترف بها، فإنَّه عرضة لمصير «الكَافِر»، أو «الظَّالِم»، أو «الفَاسِق»، الذي أوضحه القُرْآن بشكلٍ مهيب هنا.

إنَّ القُرْآنَ، إضافةً لتصديقه الكتب اليَهُوْديَّة والمَسِيحيَّة، يعلن هنا، فوق ذلك، عن نفسه بأنَّه حارس أو شاهد «و﴿مُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾: رقيباً على سائر الكُتب

يحفظها عن التَّغيير ويشهد لها بالصحَّة والثباتِ» - (البَيْضاوِيّ).

أين هي الكُتب المحفوظة بسلامتها، والمُعتنى بها، والتي يشهد عليها القُرْآنُ، إنْ لم تكنْ نفس الكُتب، التي هي الآن ـ كما كانت لدى يَهُوْد ومَسِيحِيِّي زمن مُحَمَّدٍ ـ بين الأيدي، وتُتلى في كنائسنا وبيوتنا، وما زال ديدننا القيام بذلك منذ قرون سابقة عن زمن مُحَمَّدٍ؟

لاحظ أنَّ التَّوْرَاة يُسمَّى في النصِّ مجدَّداً: ﴿كِتَابِ اللّهِ﴾.

125. سُوْرَةُ المَائِدَة (5/ 59).

قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ! هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا، إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ، وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ؟ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ.

إنَّ مُحَمَّداً وأتباعه كانوا مؤمنين بالكُتب التي نزلت قبلَ القُرْآن. وبالتالي، ليس بوسع أحدٍ أنْ يزعمَ بأنَّه تابعٌ مخلصٌ لِلنَّبِيِّ الآن، ما دام لم «يؤمن بمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ القُرْآن».

126. سُوْرَةُ المَائِدَة (5/ 65 ـ 66).

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ، لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ؛

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاة وَالإِنجِيل وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ، لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ، وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم. مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ.

لاحظ بأنَّ النصَّ يشدِّد هنا وفي مواضع أخرى على أنَّ يَهُوداً ومَسِيحِيِّين ﴿أَقَامُواْ التَّوْرَاة وَالإِنجِيل﴾، كما القُرْآنَ. وقد مُنحت أفضل البركات لليَهُوْد والمَسِيحِيِّين الذين سيصونون إذاً أوامر العهد القديم والجديد، كما القُرْآن:

غفران الخطيئة؛ دخول جنّات النعيم، ومؤونة وفيرة ﴿مِن فَوْقِهِمْ، وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾، وقُرِّظ بعضٌ من هؤلاء اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين على أنّهم ﴿أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾. والسؤال أَلَمْ يكن أمثال هؤلاء اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين ـ حسب وصفهم المُعطى من قبل النَّبِيّ ـ سينقلون تلك الكُتب المُقَدَّسة غير المُحرَّفة إلى ذرِّيَّتهم متقيِّدين بالحرصِ الذي استحقُّوا عليه هذا التميُّز العالي والمكافأة الكبيرة؟

واحسرتاه! كم كثير من المُحمَّديِّن بعيدون بسلوكهم عن نبيِّهم في وقتنا الحاضر، بطريقة حديثهم عن تلك الكُتب المُقَدَّسة نفسها!

127. سُوْرَةُ المَائِدَة (5/ 68).

قُلْ: «يَا أَهْلَ الكِتَاب! لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، حتَّى تُقِيمُواْ التَّوْرَاة وَالإِنجِيل، وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ».

حسبما جاء في السيرة التقليديَّة لابن إِسْحَٰق فإنَّ الآية تخاطب اليَهُوْد؛ أو، بالعموم كلاًّ من اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين. وفي كلتا الحالتين، فإنَّ معناه ثابتٌ ففيها لا يُطلب من أولئك الذين يخاطبهم قبول القُرْآن فحسب، بل الإِيمَان وإقامة التَّوْرَاة والإِنجِيل أيضاً. لقد كان شرطاً أساسيّاً أنْ يتَّبعَ اليَهُوْد والمَسِيحِيُّون الكُتب المُقَدَّسة كما هي محفوظة لديهم، أيْ، العهدَين القديم والجديد.

كيف للمرءِ أنْ يخالَ أنَّ الكتبَ أُبطلت بالقُرْآن؟ إنَّ هذه السورة تنزَّلت بعد سنوات عديدة من هجرة مُحَمَّدٍ إلى يَثْرِبَ، وقبيل موته بسنوات قليلة، وعندما كانت تعاليم الإسلام قد اكتملت، أو قاربت على الاكتمال. وعلاوة على ذلك، فإنَّ مُحَمَّداً أخبر في هذه المرحلة وبواسطة القُرْآنِ اليَهُوْدَ والمَسِيحِيِّين أنَّهم ملزمون بأنْ «يقِيموا التَّوْرَاة وَالإِنجِيل»، أيْ، يتقيَّدوا بالعهدَين القديم والجديد، كما بالوحي الذي أُنزل إليه. وكما لو قال: «أنتم تعتمدون على

العدم، إنَّ أساسكم زائفٌ، وغيرُ كافٍ، إنَّ إيمانكم لا يجدي، طالما لم تتقيَّدوا وتتَّبعوا الكُتب السابقة: إنَّ إعلانَ إيمانكم عقيمٌ، حتَّى لو تبعتم القُرْآنَ، طالما لم تقيموا وتتقيَّدوا بالتَّوْرَاة والإنجِيل أيضاً؛ وبدونهما فإنَّ إيمانكم غير كافٍ».

إذا ما كان اتِّباع هذه الكُتب المنزلة أساسيٌّ لِسلامة اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين، إضافةً لِلقُرْآنِ كذلك (كما تدَّعي هذه الآية بشكل بيِّنٍ)، فهل يمكن لِلمُحَمَّديِّين أَنْ ينحُّوها جانباً بدون عاقبة سيِّئة؟ كم نأى هؤلاء بشكلٍ خطير عن تعاليم نبيِّهم، إنَّ هؤلاء لا يمكنهم الاستغناء عن الكتب التي أُثني عليها من قِبلِهِ لأنَّها ﴿نُوراً، وَهُدَىً لِّلنَّاسِ﴾، و﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ، وَهُدَىً، وَرَحْمَةً﴾، و﴿الكِتَابِ المُنِيرِ﴾، و﴿وَهُدَىً وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾، و﴿هُدَىً وَذِكْرَى لأُولِي الألبَابِ﴾، و﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾، و﴿وَضِيَاء، وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ فكيف بعد ذلك يجرؤون على التحدُّث عنها بسوء، والتجديف بتعاليمها المنزلة؟

قد يكون مفيداً هنا إيراد رواية ابن إِسْحٰقَ بشأن مناسبة الآية:

«وأتى رسولَ اللّه رافعُ بنُ حارثة، وسلاَّمُ بنُ مِشْكم، ومالكُ بنُ الصيف، ورافعُ بن حُريملة، فقالوا: «ألستَ تَزْعمُ أنَّك على ملَّة إِبْرَاهِيم ودينه، وتُؤمن بما عِندنا من التَّوْرَاة، وتَشْهدُ أنَّها من اللَّهِ حقّ؟» قال: «بلى، ولكنَّكم أحدثتم وجَحدتم ما فيها ممَّا أخذ اللَّهُ عليكم من الميثاق فيها، وَكَتمتم منها ما أُمرتم أنْ تُبيِّنوه للناس، فَبرئتُ من إِحداثكم»؛ قالوا: «فإنَّا نأخذ بما في أيدينا، فإنَّا على الهدى والحقِّ، ولا نُؤمن بك، ولا نَتَّبعك». فأنزلَ اللّهُ تعالَىٰ فيهم: ﴿قُلْ: «يَا أَهْلَ الكِتَاب! لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، حتَّى تُقِيمُواْ التَّوْرَاة وَالإِنجِيل...»[1]﴾».[2]

(1) سُوْرَةُ المَائِدَة (5/ 68).

(2) [سيرة ابن هشام: 1/ 567_568، م.].

نادراً ما تكون الروايات الإسلاميَّة جديرة بالاعتماد بكلِّيَّتها؛ ولكنْ إنْ كانت الرواية أعلاه صحيحةً، فإنَّها تُظهر مُحَمَّداً في القُرْآن يقرُّ بشكلٍ واضح بأصالة وموثوقيَّة كلِّ الكتب المُقَدَّسة كما كانت متداولة بين اليَهُوْد، وأنَّ نزاعه معهم كانَ بسبب من مذاهبهم وتقاليدهم المُحدَثة والخاطئة فحسب، ونتيجةً لرفضهم الاعتراف به، ولأجل إظهار المقاطع التي افترض وجودها في الكُتب التي تشهد لصالح دعاويه. ونرى من اللغة التي يستعملها بشكلٍ ثابت حول هذه المسألة، أنَّه كان، بدون أدنى ريبٍ، يؤيِّد بشكلٍ كامل وناصعٍ وحيَ ونقاءَ الكُتب التي كانت عندهم.

128. سُوْرَةُ المَائِدَة (5/ 82_85).

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ اليَهُوْد وَالذين أَشْرَكُواْ. وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ، الذين قَالُوَاْ: إِنَّا نَصَارَى. ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً، وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ.

وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلى الرَّسُولِ، تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحَقِّ. يَقُولُونَ، رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ؛

وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ، وَمَا جَاءنَا مِنَ الحَقِّ؟ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِينَ.

فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ، جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ. خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء المُحْسِنِينَ.

لقد كانَ اليَهُوْدُ أكثر عداءً للإسْلاَم من المَسِيحِيِّين. ولعَلَّ أحدَ الأسباب الرئيسة لموقفهم كانَ أنَّ مُحَمَّداً ورغم أنَّه اعترف بشكلٍ مطلقٍ بكتبهم، فإنَّه بنفس القدر أقرَّ بتلك الكُتب المَسِيحيَّة، وبالرسالة الإلهيَّة ليسوع المسيح.

إنَّ هذا التنازل الإضافيَّ جعل فضيلة المسيح متساوية مع اليَهُوْد. ومن جهة أخرى، لا شكَّ أنَّ المَسِيحِيِّين كانوا راضين لدى اكتشافهم أنَّ مُحَمَّداً ـ وهو أمر ينسجم تماماً مع منظومتهم الخاصَّة ـ اعترفَ بكافَّة الكتب السابقة كما الأنبياء السابقين، وبكلِّ ما يعود إليهم وما يعود لليَهُوْد. وبعضهم، علاوة على ذلك، آمن برسالة مُحَمَّدٍ، وقد عبَّروا عن أنفسهم بلغة متَّقدة في النصِّ.

لاحظ العبارات الإطرائيَّة التي يتحدَّث بها مُحَمَّدٌ عن المَسِيحِيِّين بالعموم، هنا وفي أمكنة أخرى، وحتَّى بصدد من لم يعتنق الإسلام. إنَّ حالهم الأرفع وُصف هنا بأنَّهم قِساوسة وَرُهْبَان، وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ. ولا يُتَّهمون قطّ بأنَّهم أساؤوا تفسير الكُتب، أو غيَّروا الكَلِم عن مواضعه.

129. سُوْرَةُ المَائِدَة (5/ 110 ـ 111).

إِذْ قَالَ اللّهُ، يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ! اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ، وَعَلَى وَالِدَتِكَ، إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القُدُسِ، تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً؛ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ، وَالحِكْمَةَ، وَالتَّوْرَاة، وَالإِنجِيل؛ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي، فَتَنفُخُ فِيهَا، فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي؛ وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ، وَالأَبْرَصَ، بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ المَوتَى بِإِذْنِي؛ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَقَالَ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ.

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلى الحَوَارِيِّينَ: «أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي (أيْ بيسوع)»، قَالُوَاْ: «آمَنَّا؛ وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ».

130. سُوْرَةُ التَّحْرِيم (66/ 12).

وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ، التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا؛ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا، وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا، وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ القَانِتِينَ.

131. سُورَةُ التَّوْبَةِ (9/ 111).

إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم، بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ؛ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاة، وَالإنجِيل، وَالقُرْآن.

لقد تنزَّلت الآية في آخر سورةٍ تلاها مُحَمَّدٌ، وفي وقت تمكُّن الإسلام بواسطة السيف من الانتشار فوق القسم الأعظم من الجَزِيْرة العَرَبِيَّة.

لعَلَّ من الجائز أن يتمَّ إيراد إشارة إلى المقاطع من الكِتَاب المُقَدَّس حيث هناك نزاع روحيٌّ، عندما يتحدَّث عن: «قتال الصالح للإيمان». وبالنسبة لدروس الإنجيل يجب على المسلم التقيِّ أنْ يُتْبِعَ بشكل أساسي الذي يختلف بهذا الشأن عن تلك الموجودة في القُرْآن. إنَّ أسلحة المَسِيحيَّة روحيَّة. إنَّ القوَّةَ لا تُستعمل في سبيل نشرها. فعندما وقف المسيحُ في مقعد محكمة بيلاطُس، فإنَّه قال: «إنَّ مملكتي ليست في هذا العالم؛ ولو كانت مملكتي من هذه العالم، فإنَّ عبيدي كانوا سيقاتلون كيلا ألَّا أرسل إلى اليَهُوْد، بيد أنَّ مملكتي ليست من هذه الحياة». إنَّ هذه الملاحظة أُضيفت فقط من أجل صون القارئ المسلم عن احتمال الاعتقاد بأنَّ الإنجيلَ يشجِّع ويقرُّ القتال أو الإكراه من أجل تأييد الديانة بأيِّ شكلٍ.

القسم الثّالث

خاتمة

وَإذْ انتهينا من الاستشهادات القُرْآنِيَّة؛ فَإنَّنا نتبعها ببضع ملاحظات كي يتفكَّر بها المُحَمَّديُّ الجادُّ والصادق الذي يدرس القُرْآن على أنّه الحقيقة الكاملة التي يُفرض على المُحَمَّديِّين الإقرار بها، والاجتهاد والصلاة للّه:

سُوْرَةُ المُزَّمِّلِ.
قُمِ اللَّيْلَ، إلاَّ قَلِيلاً؛
نِصْفَهُ، أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً،
أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ القُرْآن تَرْتِيلاً.
... ...
إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ...[1]

سُوْرَةُ الفَتْحِ

تَرَاهُمْ (المسلمين) رُكَّعاً سُجَّداً، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً. سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ. ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاة، وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيل...[2]

(1) [سُوْرَةُ المُزَّمِّلِ: 73/ 2ـ6، م.]
(2) [سُوْرَةُ الفَتْحِ: 48/ 29، م.]

سُوْرَةُ الأَعْرَافِ

وَإِذَا قُرِىءَ القُرْآن، فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُواْ، لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.

وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً، وَدُونَ الجَهْرِ، مِنَ القَوْلِ بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ؛ وَلاَ تَكُن مِّنَ الغَافِلِينَ.(1)

إنَّ الملاحظات التالية موجَّهة إلى المُحَمَّديّين المجتهدين والنزيهين، الذين تنطبق عليهم الأوصاف أعلاه. وإنِّي لأسألهم قراءتها بقلب مفتوح، مع الصلاة.

أوَّلاً - إنَّ المجموعة كاملة وغير متحيِّزة.

لَمْ يكنْ هدفُ المُؤلِّفِ في جمع المجموعة بحثاً عن الآيات التي تحابي الكُتب اليَهُوْديّة والمَسِيحيَّة، بل كانَ يبغي ببساطة إدراج كلِّ الآيات الموجودة في القُرْآن والتي تشتمل على أيِّ ذكرٍ كانَ لهذه الكُتب، أو تلميح لها. ووفق هذه النظرة، فَإِنَّ الكاتب كان يفحص بعناية كاملِ القُرْآن مراراً، ويدوِّن كلَّ المقاطع ذات الطبيعة المشار إليها. وقد ضمَّ إليها كلَّ ما كان يبدو أنَّه يتضمَّن أقلَّ تعلُّق بالموضوع. وفي حال إغفالِ أيِّ نَصٍّ، فإنَّ ذلك يعود إلى الخطإ الناشئ عن الإهمال، لا وفق أي خطَّة لتجاوز المقاطع المفترض أنَّها سلبيَّة. إنَّ المسلم، إذاً، مثل اليَهُوْديّ والمَسِيحِيِّ، يمكنه قبول المجموعة على أنَّها عرض غير متحيِّز وكامل للشهادة التي يُدلي بها القُرْآن لِلكتب المُقَدَّسة بعهدَيها القديم والجديد.

ثانياً - وجود وتداول العهدَين القديم والجديد في زمن مُحَمَّدٍ.

إنَّ كلَّ مَنْ يقرأ القُرْآن بانتباه، لا بدَّ وأنْ يلاحظ المناسبات الكثيرة التي يُشار فيها إلى كُتب اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين المُقَدَّسة. لقد سُميت بأسماء واسعة

(1) [سُوْرَةُ الأَعْرَافِ: 7/ 204-205، م.]

الاختلاف: كتاب اللّه؛ كلام اللّه، التَّوْرَاة، الإِنجِيل، إلخ.

كما وصُفت بأنّها وحيٌ من اللّه، وأنّها تنزلت قبل مُحَمَّدٍ، بعبارات مثل: لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ، مَا أنزَلَ اللّهُ، إلخ. ويرد ذكرها في صفحات القُرْآن لا كما هي موجودة في زمن مُحَمَّدٍ فحسب، بل كما كانت شائعة التداول بين اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين. وهذا يُبرهن عليه بأمثال هذه العبارة: معهم؛ أو مَا عِندَهُم؛ ﴿الذين (اليَهُوْد) يَقْرَءُونَ الكِتَابَ مِن قَبْلِكَ[1]﴾ (ف 34)؛ و﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ[2]﴾ (ف 63)؛ و﴿يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ[3]﴾ (ف 69)؛ و﴿هُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ[4]﴾ (ف 80). ولهذا ففي إحدى المناسبات (ف 107). فإنَّ مُحَمَّداً «دعا اليَهُوْد إلى الكِتَاب»، أيْ، طلب الرجوع فعليّاً إلى كُتبهم في حضور كلا الفريقَين، حيث كان يجب أنْ يُؤتى بها، وأنْ تُقرأ في قَرَاطِيسَ؛ وفي مناسبة أخرى، فإنّهم دُعوا إلى الإتيان بنفس الكتب من أجل تسوية قضيّة موضع نزاع؛ (ف 115).

لقد حُضَّ كلٌّ من اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين على التصرُّف والحكم وفقاً لكُتبهم، وهذا يتضمَّن وجود نسخ من الكُتب المُقَدَّسة قيد التداول بينهم، والتي كانوا يستطيعون، بدون أدنى صعوبة، الرجوع إليها لكي يتصرَّفوا ويحكموا بها أيضاً. وقيل لهم أيضاً إنَّ دينهم باطلٌ ما لم «يقيموا»، أو يتَّبعوا كلاً من الكُتب اليَهُوْديَّة والمَسِيحيَّة، والتي منها يمكن استخلاص نفس النتيجة؛ وعبثاً سيكون الإصرار على اتِّباع كتبٍ ليس من السهل الوصول إليها بالنسبة لقسم كبير ممن يعتنقون هاتَين الديانتَين.

---

(1) [سُوْرَةُ يُونُسَ: 10/ 94، م.]

(2) [سُوْرَةُ الأَعْرَافِ: 7/ 169، م.]

(3) [سُوْرَةُ البَقَرَةِ: 2/ 75، م.]

(4) [سُوْرَةُ البَقَرَةِ: 2/ 113، م.]

وكثيراً ما احتكم مُحَمَّدٌ إلى الكُتبِ برهاناً على دعاويه الخاصَّة. وما كان سيفعل ذلك، لولا أنّها كانت موجودة وقيد التداول العامِّ في عهده.

إذاً، يحقُّ لنا الافتراض أنَّ المصطلحات في القُرْآن التي تُستعمل بصدد كُتب اليَهُوْد بالعموم مثل: الكِتَابِ ـ الذِّكْرِ ـ الذين أوتوا نصيباً من الكِتَاب، تعني العهد القديم كما كان قائماً ومعترفاً به من قبل اليَهُوْد على أنّه كتابهم المُقَدَّس، في زمن مُحَمَّد. إنَّ مفردة ﴿التَّوْرَاة﴾ كانت متداولة أحياناً بمعنى واسع، وأحياناً تشير إلى الكُتب المُوسَويَّة الخمسة. وتقتصر مفردة ﴿الزَّبُورِ﴾ على مَزَامِيرِ دَاوُود.

وعلى نفس المنوال، يرد ذكر كُتب المَسِيحِيِّين المُقَدَّسة في القُرْآن تحت تسمية عامَّة: ﴿الإِنجِيل﴾، وبدون شكٍّ، تشير المفردة إلى كِتَاب قيد التداول العامِّ على أنّه الكِتَاب الملهَم إلهيّاً بين المَسِيحِيِّين، أيْ، إلى كاملِ العهد الجديد، والذي حسب القُرْآن قد نزلَ على يسوْعَ من اللّهِ، وقد علّمه إلى حواريه (كما يجب أن نفترض من هذه النظرة).

إنَّ هذه الاستدلالات قابلة للاستنتاج بالضرورة من الطريقة الكاملة والتامَّة التي يُشير بها مُحَمَّد إلى الكُتب كما آمن بها اليَهُوْد والمَسِيحِيُّون، وكما تُداولت فيما بينهم.

كثيراً ما يُطلب الإِيمَانُ بكامل الكتب اليَهُوْديَّة والمَسِيحيَّة، والذين «يؤمنون بِبَعْضٍ وَيَكْفُرُون بِبَعْضٍ» فإنّهم ينذَرون بالعقوبة الملائمة – انظر الفقرتيْن (63 و102).

ثالثاً ـ القُرْآن يشهد على نزول الكُتبِ اليَهُوْديّة والمَسِيحيَّة.

إنَّ الأصلَ الإلهيَّ لِلكتب اليَهُوْديَّة والمَسِيحيَّة، كما هي موجودة وقيد التداول في عصره، يصدِّق عليه مُحَمَّدٌ في كلِّ مكانٍ من القُرْآن بدون تحفُّظ،

في عباراتٍ مكرَّرة ونمطيَّة مثل: ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ إلخ. وبالفعل فإنَّ الهدفَ الحقيقيَّ في القُرْآن وكما يُشار إليه في مواضع كثيرة أنْ يكون تصديقاً للكُتب المُنزلة من قبل. وهذا ما جاءَ في التنزيل المزعوم الذي قيل عنه إنَّه قد جاءَ منذ سحيق الأزمنة، يبشِّر بأنَّ نبيّاً سيأتي (مُحَمَّد) ووُصف بشكلٍ رئيسٍ على أنَّه: ﴿ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ (ف 113). كذلك أنظر المُلاحظة الرئيسة للجنِّ، الذين كانوا يستمعون إلى القُرْآنِ، واصفين إيَّاه إلى رفاقهم بأنَّه: ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (ف 17).

إنَّ الوحيَ التامَّ يُنسب باستمرار إلى جميع الكُتب المُقَدَّسة، التي «نَزَلَت» - ﴿نَزَّلَ الكِتَابَ بِالحَقِّ﴾ - ﴿أُوتِيَ﴾؛ والذين تلقَّوها هم الأنبياء الذين ﴿أُوْحِيَ﴾ إليهم.

ولقد قيل مراراً، مدحاً لِلقُرْآنِ (الذي زُعِمَ أنَّه التنزيل الأرفع)، بأنَّ وحيَ مُحَمَّدٍ هو من نفس الجنس الذي جاءَ الأنبياء السابقين؛ الفقرات: (22، 60، 103، و110).

لَقد وُصفت الكُتبُ اليَهُوْديَّة والمَسِيحيَّة هنا بنفس نعوت القُرْآن، بالصيغة الدالَّة على الأصل الإلهيِّ، الفقرات ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾: (79، 107، و124)؛ و﴿كَلاَمَ اللَّهِ﴾ (ف 69)؛ الفُرْقَان (الذي يفرِّق بين الحقِّ والباطل)، (ف 48 و68).

وكذلك فإنَّ محتويات الكُتب المُقَدَّسة يُستشهد بها بشكلٍ متكرِّر على أنَّها تحتوي على مرجعيَّةٍ إلهيَّة وقاطعةٍ.

قصارى القول، إنَّ الشَّهادة على وحيها هي على طول القُرْآن الأكثر كمالاً والأكثر جلاءً التي يمكن تصوُّرها.

رابعاً ـ إنّ القرآنَ يُثني على الكُتب اليَهُوديّة والمَسِيحيَّة .

إنَّ القيمة الأعلى يعزوها القُرْآن إلى الكُتب اليَهُوديّة والمَسِيحيَّة. فهو يتحدَّث عنها بتبجيلٍ. ليس ثمَّة عبارة واحدة في القُرْآن تتَّصل بها، إلَّا وكانت تُنطق باحترام وتبجيلٍ عميقَين.

إنَّ خاصيَّتهم السماويَّة، والبركات المتأتِّية من الوحي الذي تشتمل عليه، يمكن أنْ تُستنتج من الجمل التالية التي ترجع إلى عهود مختلفة من نبوَّة مُحَمَّد.

إنَّ كتابَ مُوسَى ﴿إمَاماً وَرَحْمَةً﴾ (ف 16ْ و31ْ). وكتابات الأنبياء الذين سبقوا مُحَمَّداً منظومة من ﴿الكِتَاب المُسْتَبِينَ﴾ (ف 12ْ). و﴿الكِتَاب المُنِيرِ﴾ (ف 18ْ و119ْ).

إنَّ الكِتَاب الذي ورثه بنو إسْرَائِيل هو ﴿هُدَىً وَذِكْرَى لأُولِي الألبَابِ﴾ (ف 25ْ).

إنّ الوحيَ الذي جاءَ به مُوسَى هو ﴿نُوراً، وَهُدَىً لِّلنَّاسِ﴾ (ف 37ْ).

وهو ﴿تَمَاماً عَلَى الذي أَحْسَنَ، وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدَىً وَرَحْمَةً، لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (ف 41ْ)؛ و﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ، وَهُدَىً، وَرَحْمَةً، لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (ف 43ْ).

إنَّه ﴿الفُرْقَانَ، وَضِيَاء، وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ؛ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ، وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ (ف 48ْ).

إنّهم أولئك الذين يؤمنون بالوحي الذي نَزَلَ سابقاً (﴿ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾) كما يؤمنون بالقُرْآن، ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدَىً مِّن رَّبِّهِمْ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ (ف 66ْ).

واليَهُوْد كانوا يحوزون «شَهَادَةً مِنَ اللّهِ» (ف 82ً).

والله ﴿أَنزَلَ التَّوْرَاة وَالإنجِيل مِن قَبْلُ هُدَىً لِّلنَّاسِ؛ وَأَنزَلَ الفُرْقَانَ. إنَّ الذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ، لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (ف 105ً).

و﴿الإنجِيل فِيهِ هُدَىً وَنُورٌ، وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاة، وَهُدَىً وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (ف 124ً).

بهذا الشكل، فَإِنَّ الكتبَ اليَهُوْديّة والمَسِيحيَّة قُرِّظت لاحتوائها النور الروحانيّ والهُدى للناس، وتذكرة وموعظة للمتَّقين؛ كما أنَّها ﴿هُدَىً وَرَحْمَةً﴾، وشرح لكلِّ قضيَّة، وهي ﴿تَمَاماً عَلَى الذي أَحْسَنَ﴾. ما هي عبارة الإطراء الأعلى، وما هو أقوى محرِّض على دراسةٍ واتِّباعٍ دقيق للكتب المُقَدَّسة، الذي قد يرغب به المسلمون أكثر ممَّا يتضمَّنه القُرْآن على هذا النَّحو؟

خامساً ـ مُحَمَّدٌ احتكم إلى الكُتب، وعلَّم اتِّباعها.

كثيراً ما احتكم مُحَمَّدٌ إلى الكُتب المُقَدَّسة اليَهُوْديّة والمَسِيحيَّة، وفرض طاعتها على أصحابها.

1ً ـ أشارَ مُحَمَّدٌ مِراراً في القُرْآن، إلى أولئك الذين بحوزتهم الكُتب على أنَّهم شهداء لصالح رسالته. وزَعم أنَّ في كتبهم المُقَدَّسة برهان في صالحه، وبأنَّ محتوياتها تتطابق مع القُرْآن، وأنَّ المفسِّرين المخلصين المتنوِّرين بنبوءاتها يعترفون به وبوحيه، ويبتهجون في اعترافهم. انظر الفقرات: (7ً، 13ً، 15ً، 35ً، 39ً، 45ً، 54ً، 56ً، 57ً، 61ً، 65ً، 75ً، و84ً، إلخ).

2ً ـ إنَّ ضرورة إتِّباع، بإخلاصٍ ورع، أوامر كلِّ الكُتب السابقة مغروسة بشكل صارمٍ في اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين؛ والإيمَان بكامل الكتب السابقة مطلوب

من جميع المسلمين على أنّه شرط لا غنى عنه للإيمان.

وقد وعُد أولئك الذين ﴿يُمَسَّكُونَ بِالكِتَاب﴾ بثواب، ويتّضح من السياق أنّ الكِتَابَ المعنيَّ هو العهد القديم ـ الفقرة (64). وكذلك ﴿الذين كَذَّبُوا بِالكِتَاب، وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ؛ إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ، وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ؛ فِي الحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ (ف 26).

وإنَّ الذي يكفر بأيٍّ من كُتبِ اللّهِ ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾ (ف 101). وإنَّ الذين يُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَاب، وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فإنَّ جزاءَهم ﴿ خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إلى أَشَدِّ العَذَابِ﴾ (ف 73).

و﴿إِنَّ الذين يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ، وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ؛ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ: «بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ»؛ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً؛ أُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقّاً، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً﴾ (ف 102).

وفي آية طُلب من اليَهُوْد أنْ «يَأْتُواْ بِالتَّوْرَاة، فَيَتْلُوهَا» من أجل تسويةِ مسألة موضع تنازع (ف 115). وفي نصٍّ آخر ورد قوله: ﴿يُدْعَوْنَ إلى كِتَابِ اللّهِ، لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ (ف 107).

لا يُؤمر اليَهُوْدُ والمَسِيحِيُّون فحسب باتِّباع التَّوْرَاة والإنجِيل، بل يُنذَرون بشدَّة بأنَّ إيمانهم سيكون باطلاً، ويقول: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، حتَّى تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيل﴾ (ف 127). وإنَّ كلَّ مَن لمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ (بما في ذلك الكُتب السابقة) فإنَّه يعلن بأنَّه كَافرٌ، وظَالِمٌ، وفَاسقٌ (ف 124).

3 ـ وعلى الرغم من أنَّ اتِّباع أوامرِ الشرائع اليَهُوْديَّة والمَسِيحيَّة، كما هي مشروحة في كُتب العهد القديم والجديد المُقَدَّسة، مفروضة وفقَ النصِّ القُرْآنيِّ على اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين فحسب، فإنَّ جميعَ المُحَمَّديِّين المخلصين، مدعوُّون

للإيمان بتلك الكُتب المُقَدَّسة على قدم المساواة مع القُرْآنِ؛ ـ الفقرات: (24، 26، 59، 66، 81، 101، 102، 103، و118). إنَّ استحسان اللّهِ والثواب العظيم يُوعَد بهما الذين يؤمنون بكامل وحيه بما في ذلك الكِتَابات اليَهُوْديّة والأنبياء والرسل المَسِيحِيِّين (ف 90، و102). وأمَّا الذين يكفرون بأي جزءٍ فإنّهم يُعلنون بأنّهم ضَلُّوا ﴿ضَلاَلاً بَعِيداً﴾ (ف 101)؛ وأنّهم الكافرون حقاً، الذين أعدَّ اللّهُ لهم ﴿عَذَاباً مُّهِيناً﴾ (ف 102 و90).

إذاً، لا يبدو أنّه بوسع المسلم الصادق أنْ يتجاهلَ ما يؤسِّس الكُتب اليَهُوْديّة والمَسِيحيَّة ـ أو على الأقلِّ يهمل ويرفض ـ بدون أن يعرِّض سلامتَه للخطر حسبَ القُرْآن نفسه.

لنلاحظ بانتباه أنَّ الكُتب المُقَدَّسة، والتي يُطلب من المسلمين كافة الإِيمَان بها، هي كُتب العهد القديم والجديد والتي يعترف بها اليَهُوْد والمَسِيحِيُّون، بغير استثناء، في زمن مُحَمَّد على أنّها منزلة من السماء. ولا يمكن أنّه كان ثمّة تَوراة أو إنجيل مختلفان كانا موضع إشارة القُرْآن بشكل دائم. إنَّ مَكَّةَ وَيَثْرِبَ لم تكونا تقعان في زاوية من العالم حيث يُحتمل أنَّ كتباً مقدَّسة أخرى قُصدت غير تلك التي تُتداول بشيوع في مكانٍ آخر. لقد توطَّن اليَهُوْد والمَسِيحِيُّون في أجزاءٍ مختلفة من الجَزِيْرة العَرَبيّة، مثل اليَمن، ونَجْرَان، وتيماء، دُومَة الجَنْدَل، إلخ، ومن جميع الأطراف ارتادوا سنويَّاً أسواقَ عُكاظ، مجنَّة، ذي المجاز، إلخ. وكانت الرحلات التجاريَّة تنطلق من مَكَّة دوريَّاً إلى سوريا، واليمن والحبشة، وهي أماكن كانت المَسِيحيَّة فيها راسخة واليَهُوْديَّة معروفةً. وبعضُ العرب بلغوا بلاطَي قيصر وقورش. وقُبيل ادِّعاء الرسالة النَّبَويّة من قِبل مُحَمَّد، فإنَّ عثمانَ بنَ الحويرث، مواطناً من مَكَّة، لاذ إلى القسطنطينيَّة، من حيث كانَ قد أتى مَسِيحِيّاً معمَّداً. وإنَّ بلاطَي الحيرة والسلالة الغسَّانيَّة المَسِيحِيِّين، كلاهما كانا يحاذيان الجَزِيْرة العَرَبيّة من الشمال، وحيث كان العرب يكثرون

التردُّد. ومُحَمَّدٌ نفسه زار سوريا مرَّتين. وأكثر من مئةٍ من أتباعه وجدوا ملاذاً آمناً وكريماً لدى بلاط النجاشيِّ الحبشيِّ، قَبل وبعد الهجرة. وكانَ لدى مُحَمَّدٍ من بين معتنقي الإسلام أتباعٌ يَهُوْدٌ ومَسِيحِيُّون في يَثْرِبَ. وفي السنة السادسة للهجرة، بعثَ مُحَمَّدٌ رسُلاً إلى البلاطات الرومانيَّة، والفارسيَّة، وإلى الحبشة ومصرَ، وإلى الأمير الغسَّانيِّ، وإلى رؤساء مَسِيحِيِّين آخرين.

وبذلك، لم يكن هنالك من حاجة للتواصل بين مُحَمَّدٍ ويَهُوْد ومَسِيحِيِّي جهات العالم المتحضِّر. وبالتالي، فحيثما ذُكرَ ﴿الكِتَاب﴾ أو «الكُتب» التي كان اليَهُوْدُ والمَسِيحِيُّون يقرؤونها، والوصايا التي كان عليهم اتِّباعها بشكل ورع، والأحكام الإلهيَّة التي كان عليهم الاهتداء بها دائماً، فإنَّه كان يقصد ـ وليس بإمكانه ألَّا أنْ يعني ـ أنَّ العهد القديم والجديد قد حُفظا بين كامل الجمهور من اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين، وقُرآ في كنائسهم، وكنسهم، وأديرتهم، وأنَّهما كانا يدرَّسان في مجالسهم الخاصَّة.

سادساً ـ الاتِّهامات ضد اليَهُوْدِ.

اتُّهم اليَهُوْد مِراراً في القُرْآن بأنَّهم قوم عصاة ومستكبرون كما كان آباؤهم، وأنَّهم حرَّفوا معنى كتبهم المُقَدَّسة.

عندما غادرَ مُحَمَّدٌ إلى يَثْرِبَ، فإنَّه توقَّع أنْ يجدَ اليَهُوْد، الذين كانوا يسكنون بأعداد كبيرة في الجوار، منحازين إلى قضيَّته، فدخل في معاهدة وثيقة معهم، نسخة منها أو على الأقلِّ جوهرها بقيَ محفوظاً في تواريخ حياته. بيد أنَّ اليَهُوْد إذْ رأوا أنَّ مُحَمَّداً كان يؤمن في مَسِيحِيَّة يسوع، وفي عقائد أخرى تتعارض تماماً مع إيمانهم، فإنَّهم شرعوا يناصبون قضيَّته العداء، ورفضوا الإقرار بأنَّ ثمَّة أيَّ نبوءَةٍ، مهما كانت، في كتبهم تنطبق عليه. وتمسَّكوا بأنَّ مسيحهم يجب أن يكون يَهُوْدِيَّاً، وليس من سلالة إسماعيل؛ ورفضوا بشكلٍ تامٍّ نبيَّ

الجَزِيْرة العَرَبِيّة. وبهذا فإنّ عداوةً مريرة نشأت بينهما. وقد نجح مُحَمَّدٌ في اغتيال العديد من معارضيه الألدّاء. وفي الختام شنَّ الحربَ عليهم، وهجَّر قبيلتَين كاملتَين منهم، بني النَّضِيرِ وبني قَيْنُقَاع، وذبحَ جميعَ رجال قبيلة ثالثة، بني قُرَيْظَة (ما بين 600 إلى 800 شخصٍ) وأسر نساءَهم وأطفالهم.

قبل أنْ يتمَّ تكميم أفواههم على هذا الشكل بالسيف، فإنَّ اليَهُوْد سعوا إلى مقارعة مُحَمَّدٍ بالحجَّة، فقدَّموا مقاطع من الكِتَاب دعماً لموقفهم. لكنَّ مُحَمَّداً رفضَ الإقرار بصدقٍ وإخلاصٍ خصومِه في النقاش. واتَّهمهم بتحريف معنى كُتبهم وبفهم معانيها بشكلٍ غير دقيق. وقد مثَّلهم بأنّهم مثل حمارٍ يحمل كُتباً قيِّمة؛ وأنّهم وإذْ كانَ لديهم العلم الإلهي، لكن ليس لديهم مثقال ذرَّة من فهم لها (ف 93). وأنّهم حمقى، أصابَ الجهلُ بصيرتهم بالعمى، وأنّهم ذوو رأي مسبق، لم يكنْ بوسعهم إدراك الحقيقة المُنزلة في كتبهم. إنَّ الاتهام الذي لا يختلف جوهريّاً عمّا كانَ يقوم به المَسِيحِيُّون على مدى تسعة عشر قرناً ضدَّ اليَهُوْد. كلاهما كانا يؤمنان بالعهد القديم، بيد أنّهما اختلفا ببونٍ واسعٍ بشأن تفسيره.

لقد اتَّهمَ مُحَمَّدٌ يَهُوْدَ يَثْرِب، بأنّهم يوردون مقاطعَ مجزَّأة من كتبهم، وأنّهم يعرضونها مقتطعة من سياقها أو أنّها موضوعة في سياقٍ خاطئ، وبالتالي بتحريفٍ للمعنى الصحيح (ف 69، 96، 122، و123). وقد زُعِمَ أنّهم تحدثوا بشأنِ مُحَمَّدٍ بعبارات لها معنى مزدوج ومهين (ف 111). وأنّهم قدموا آياتٍ نظمها بشرٌ مدَّعين أنَّ لها مرجعيَّة إلهيَّة، وربَّما كانت كتاباتهم الحَبْريَّة أو شروحاتهم (ف72 و111). واتُّهموا بأنّهم أخفوا النصوص أو النبوءات التي في صالح مُحَمَّد ودعاويه. أو آثروا عدم نشرها، ﴿وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الذِين أُوتُواْ الكِتَاب؛ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ[1]﴾.

(1) [سُوْرَةُ آلَ عِمْرَان: 3/ 81، م.]

أكثر من ذلك لا نجد مُحَمَّداً يتَّهم حتَّى أعداءَه يَهُوْدَ يَثْرِبَ. إنَّ الاستنتاج من اتِّهام «الإخفاء»، يعني إزالة أو محو المقاطع من المخطوطات، هو عديم الأساس بالجملة.

فيما يتعلَّق بتغيير أو تحريف نسخهم من الكُتب المُقَدَّسة، لا يوجد حتَّى آية واحدة أعربت، ودعمت بوضوح الاتِّهام. ولو فرضنا أنَّ أيَّ مقطعٍ يحمل هذا المعنى، فإنَّ الفحوى العامَّة لِلقُرْآنِ وشهادته الساطعة من أوَّله إلى آخره في صالح أصالة وموثوقيَّة الكُتب اليَهُوْديّة كما المَسِيحيَّة، ستبرهن أنَّ مثل هذا المعنى لم يكن الذي قصده مُحَمَّد.

هل كانَ النَّبيّ سيحتكم إلى تَوراةٍ محرَّفة؟ هل كان سيشهد بشكلٍ دائمٍ على حقيقة كتب مُوسَى المقحمة؟ هل كانَ سيأمر بأنْ تسوَّى الخلافات بوحيٍ متقادمٍ زائفٍ؛ أو كان سيدعوهم إلى تقديم قراطيس كُتبٍ محلِّ شكٍّ، والتلاوة منها، بحيث أنَّ الخلاف بينهم وبينه يسوَّى بشكلٍ نهائيٍّ؟ هل كان سيعلِّم اتِّباع نَصٍّ مزيَّفٍ؛ ولكان قالَ أيَّ شيءٍ ما عدا أصالةَ الكِتَاب، وإنَّ إيمانَ اليَهُوْدِ كانَ غيرَ ذي جدوى ما لم «يقيموا» الكِتَاب ويتبعوا الوصايا؟

وإضافة إلى ذلك من الملاحظ أنَّ الاتِّهامات المستمرَّة في القُرْآن (مهما كانت طبيعتها) هي من البداية إلى النِّهاية مقتصرة على اليَهُوْدِ. وليس ثمَّة أيَّ آيةٍ في كلِّ القُرْآن، يمكن أنْ ـ بأيِّ معنىً محتملٍ ـ تلقي أدنى شكٍّ على المَسِيحِيِّين بتهمة تغيير: إنْ كانَ بصدد إنجيلهم أو بصدد نسخهم من الكِتَاب اليَهُوْديّ. إنَّ أقصى اتِّهامَ موجَّه إليهم هو أنَّهم: ﴿نَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾، أيْ أنَّهم سقطوا في المذاهب والممارسات الضالَّة (ف 122).

ولنفترض لبرهة أنَّ العهد القديم تعرَّض لإقحام من قِبل أعداءِ مُحَمَّدٍ، وأنَّ مساعيهم طالت حتَّى العهد الجديد، ألم يكن بعضُ اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين

الصالحين سيقومون بالاحتفاظ وبنشر نسخ من الكُتب غير المحرَّفة؟ هذه الكُتب التي كان يحتكم إليها مُحَمَّدٌ دائماً، والّتي تحتوي، كما زَعم، على شهادةٍ قيِّمة في صالح القُرْآنِ، ورسالتِهِ، والإسلام. وبعدما شرعَ أتباعُ مُحَمَّدٍ بإشهار السيف، وزحفوا بجيوشهم الظافرة، فإنَّهم ما كانوا ليتجاهلوا مثل هذا الطريقة الشديدة الحصافة والإقناع من أجلِ كسب اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين بإحالتهم إلى الحجَّة في صالح الإسلام الموجودة في كتبهم الخاصَّة غير المحرَّفة. لا شكَّ أنَّ المُحَمَّديِّين الأوائل ما كانوا سيفرِّطون بمثل هذا البرهان المتين لدعاوي نبيِّهم. إلى جانب ذلك، فإنَّه فيما يتَّصل بالمتحوِّلين إلى الإسلام من بين اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين، فإنَّ الاحتفاظ بالنصِّ المحض وغير المحرَّف للعهد القديم لن يكون مرغوباً فحسب، بل ضرورياً. لقد أمرهم النَّبِيُّ أنْ يؤمنوا، وأنْ يتَّبعوا، وأنْ يحكموا بهذه الكُتب؛ وبالتزامهم بذلك، فإنَّهم يُوعدون ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ و﴿نُوراً﴾ خاصَّاً. وبكلِّ تأكيد، لو كان ثمَّة شكوكٌ تساور هؤلاء بأنَّ إخوانهم غير المتحوِّلين سيزيِّفون كتبهم، فإنَّهم كانوا تطلَّعوا إلى الاحتفاظ بالنسخ الأصليَّة، لا لاستعمالهم الخاصِّ، بل لإرضاء وتعليم أطفالهم أيضاً؛ مثلما يحتفظ المَسِيحِيُّون ويعلِّمون الكُتب اليَهُوْديَّة، ويشيرون ويعلِّمون قوَّة نبوءات المسيح الموجودة فيها، لا بل ألا يسعُنا توقُّع أنَّ المُحَمَّديِّين المهتدين من اليَهُوْديَّة والمَسِيحيَّة سيتذكَّرونها بحنينٍ ويحفظون الكتب السابقة؟

إنَّ وجودَ أمثال هؤلاء اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين الصادقين لا يمكن أنْ يكون محلَّ شكٍّ من جانب السائل المُحَمَّديّ. ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى، أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ، وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (ف 62). و﴿مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ، وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ، وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ. وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (ف 117). و﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ (ف 126). انظر كذلك الفقرات: (91، 98، و121). ومن جانب آخر، هل ثمَّة لهؤلاء من فائدة في تزييف الكتب

المُقَدَّسة؟ وحتَّى لو كان هنالك أيُّ دوافعٍ شريرة، ألن يمنعه، «القِسْطُ»، و«الاستقامة»، و«الصدق» و«تقوى اللّه» من التفكير بمثل هذه الآثام من أنْ تجول في خواطرهم؟ وأين هي تلك النسخ المُحفوظة غير المحرَّفة التي احتفظ بها هؤلاء اليَهُوْد والمَسِيحِيُّون الصالحون والمؤمنون.

لو كان ثمَّة ظلٌّ من الشكِّ بأنَّ الكُتب المُقَدَّسة تعرَّضت لعبثٍ في أيِّ موضعٍ، فإنَّهم كانوا سيحتفظون بالنسخ غير المحرَّفة. إنَّ الحقيقة هي أنَّ الافتراض كان بدون أساس على الإطلاق. ولم يكن هنالك مثل هذا الظنِّ. وبالتأكيد لم يخطرْ ببال مُحَمَّدٍ؛ ولا جرى في خلدِ أتباعه المباشرين البتَّة. إنَّ أيَّ اتِّهام بحقِ اليَهُوْد والمَسِيحِيِّين بأنَّهم حاولوا تحريف كتبهم المُقَدَّسة كانَ غير مُفَكَّرٍ فيه لسنوات عديدة بعد ذلك العهد؛ وفي الواقع، إنَّ ذلك جرى عندما وجدَ العلماء المُحَمَّديّون أنَّ القُرْآن يختلف عن تلك الكتب، فعمدوا بأنفسهم إلى مثل هذا الافتراض الذي لا أساس له، كونه الوسيلة الأبسط للتهرُّب من الصعوبة.

مجدَّداً، إنَّ قبولَ مثل هذا الاتِّهام (فرضاً من أجل الجدل فحسب) لا يمكنْ أن يمتدَّ أبعد من يَهُوْد يَثْرِبَ. لقد كانوا الوحيدين المعادين لمُحَمَّدٍ، وعليهم تنطبق التأكيدات في القُرْآن. بيد أنَّ الكُتبَ اليَهُوْديّة والمَسِيحيَّة ـ والتي يُصادق عليها كما هي في كلِّ جزءٍ من القُرْآن ـ كانت في متناول الملايين، غير اليَهُوْد، وعلى امتداد الإمبراطوريَّتَين الرومانيَّة والفارسيَّة؛ وفي المملكة الحبشيَّة، والحيرة، وأرمينيا، ومصرَ ولدى إمارة الغسَّانيِّين في سوريا، إلخ. إنَّ الاتهام أو الشكَّ بالعبث العدائيِّ، لا يجب أنْ يُؤكَّد بشكلٍ جائرٍ للغاية، ولا يجب أنْ يشمل، بأيِّ شكلٍ، هذه الجماعات الكبيرة؛ وليس من اليَهُوْد فحسب، بل مَسِيحِيِّي ما وراء الجَزِيْرة العَرَبِيّة.

من ناحيةٍ ثانيةٍ، وبعد سنتيْن على موتِ مُحَمَّدٍ، فإنَّ جيوش المسلمين

اجتاحت سوريا، مكان مولد اليَهُوْديَّة والمَسِيحيَّة، والتي تحتوي على عددٍ لا حصر له من نسخ العهد القديم والجديد في الكنائس، والكُنس، والأديرة، وفي البيوت الخاصَّة. وبعد سنوات صارت مصرُ في حوزة المُحَمَّديِّين، وبعد ذلك بقليل الساحل الشماليّ لإفريقيا ـ البلدان التي كانت مليئة أيضاً بالمَسِيحيِّين، والأديرة، والكنائس ـ ومن الممكن تصوُّر (لحيازتهم القوَّة العليا على اليَهُوْد والمَسِيحيِّين الذين يُخضعون يوميّاً بحدِّ السيف؛ ووجود المدن، والبلدات، والأديرة في حوزتهم، والنسخ اللانهائيَّة من الكُتب المُقَدَّسة الموضوعة تحت تصرُّفهم) أنَّ المسلمين ما كانوا ليفوِّتوا الفرصة للحصول على النسخ الصحيحة من العهد القديم والجديد، وبهذا كان سيضيفونها إلى براهينهم المتعلِّقة برسالة النَّبِيِّ، ولو كانَ، فعلاً، ثمَّة أقلُّ ريبٍ خالج صدورهم بأنَّه في أيِّ مكان تعرَّضت الكُتب للعبث، أو أنَّ تلك الكتب قد (كما يريدنا علماء المسلمون أنْ نعتقد) احتوت أيَّ شهادة على رسالةِ نبيِّهم ألم يكن حينها وقت إيجادها؟ إنَّ غياب مثل هذه المحاولة لهو برهان مقنعٌ بأنَّ الشكَّ بصدد التعامل الشرِّير لم يخامر أحداً.

ليس ثمَّة من مفرٍّ إذاً، بالنسبة للمؤمن المخلص بالقُرْآن، من الاستنتاج بأنَّ الكُتب اليَهُوْديّة والمَسِيحيَّة ، كما كانت متداولة عبرَ العالمِ المَسِيحِيِّ، في أيام مُحَمَّدٍ، كانت كلمةَ اللّهِ الأصيلة وغير المحرَّفة.

سابعاً ـ الكُتب المُقَدَّسة في زمنِ مُحَمَّدٍ هي نفسها الموجودة حاليّاً.

إنّه لا يتَّصلُ بمهمَّتنا الحاليَّة المضيُّ قدماً نحو البرهان على أنَّ الكُتب المُقَدَّسة في زمن نبوّةِ مُحَمَّد (610 ـ 632 م) كانت نفس الكُتب الحاليَّة الموجودة بين أيدي اليَهُوْد والمَسِيحيِّين. لكنْ، لفائدة المسلم المخلص والمتطلِّع للمعرفة، فإنَّ النقاط التالية قد تفتح له أفقَ بحثٍ إضافيٍّ.

ثمَّة الآن مخطوطات باقية يعود تاريخها إلى ذلك العصر المذكور أعلاه، وهي متوفِّرة للفحص المدقَّق لأيِّ باحث. وثمَّة ترجمات من العهد القديم والجديد، مترجمة قبل العصر موضع البحث. إنَّ الترجمة السبعينيَّة للعهد القديم كانت منجزة قبل عصر المسيح. وما زال لدينا «أوكتابلا» لأوريگن والمجموع قبل أربعة قرون من حياةِ مُحَمَّدٍ، والذي يحتوي ترجمات مختلفة من العهد القديم مقارنة في أعمدة متوازية.[1] ويوجد للعهد الجديد ترجمات باللاتينيَّة، والسريانيَّة، والقبطيَّة، والأرمنيَّة كانت معدَّةً قبل عهدٍ بعيد من زمنِ مُحَمَّدٍ، وبمقدور الباحث المسلم الوصول إليها، حيث يمكنه أنْ يرضي نفسه بأنَّه لم يكن ثمَّة من تغييرات في النصِّ الأصليِّ منذ زمن النَّبِيّ.

وأخيراً، ثمَّة شواهد من الكُتب المُقَدَّسة، وإحالات إليها لا حصر لها، محتواة في الكِتَابات اليَهُوْديّة والمَسِيحيَّة لعصور خلت قبل مُحَمَّد، وردت لدى: يوستين مارتير، إيرينوس، كلامِنس، تِرتوليان، أوريگن، سيپريان، يوسِبيوس، كريسوستوم، گريگوري، باسيل، أمبروز، جيروم، أگوستين، وآخرين كثر، ويمكن لأيّ مُحَمَّديّ العودة إليهم بيُسر، فقط إذا ما أخذ عناء تعلُّم اللغتَين الإغريقيَّة واللاتينيَّة. إنَّ هذا الضرب من البرهان المتزامن لهو الأقوى الذي يمكن تقديمه.

لا يجوز الردُّ على مجموعة الحجج بالقول إنَّ في مخطوطات الكُتب الموجودة حاليَّاً قراءات مختلفة، وتعارضات، ومقاطع يؤكِّد المُحَمَّديُّون أنَّها غير متَّفقة مع التنزيل الحقِّ، كما تلك المتعلِّقة بالحالة البنيويَّة وموتِ يسوع. إذْ لو قام هؤلاء بفحص المخطوطات القديمة، والترجمات والشواهد المُحال

(1) أوكتابلا أوريگن (Octapla of Origen): جزءٌ من العهد القديم قامَ بإعداده أوريگن في القرن الثالث الميلاديّ، ويتضمَّن النصَّ العبريَّ بالإضافة إلى سبعِ ترجماتٍ إغريقيَّة له، مكتوبة في ثماني أعمدةٍ متوازيةٍ. م.

إليها أعلاه، فإنّهم سيجدون بأنّ القراءات المختلفة، والتعارضات المفترضة، والمقاطع التي تثبت موتِ المسيح وتؤكّد مذهب التثليث، كانت موجودة ـ مثلما هي قائمة الآن ـ في الكُتب المتداولة في زمن مُحَمَّد وقبل قرون منه، وفي تلك الكُتب بالذات، أعني، تلك التي يؤكّد مُحَمَّدٌ في القُرآن دائماً وبشكلٍ غير مشروط حقيقتها. إذاً، ليس لدى المسلم الصادق من خيار غير قبول تلك الكُتب والإِيمَان بها كما هي الآن.

ثامناً ـ إنَّ الإِيمَانَ بِالكُتبِ، ودراستها فرض على كُلِّ المسلمِين.

وإذا كان ذلك هو الحال، فَإنَّ المسلم الصادق والمخلص مدعوٌّ جدِّيّاً إلى دراسة الموضوع، وأنْ يرضي نفسه ـ وبوسعه أنْ يفعل بسهولة ـ بأنَّ الكِتَاب المُقَدَّس في يومنا الحاضر هو الكِتَاب المُقَدَّس في زمن مُحَمَّدٍ. وهو مدعوٌّ لأنْ يوقِّر ويشرِّف الكِتَاب المُقَدَّس، نظير ما قام به معلّمُه بانتظام، عندما اعترف برفعته بشكلٍ واضحِ المعالم. والمُحَمَّديُ مدعوٌّ لأنْ يؤمنَ به علَى أنّه كلمة اللّهِ كي يُؤْتِيِهِ ﴿أُجُورَهُمْ﴾، وهو الوعد الخاصُّ بالمؤمنين الصادقين.

ولقد حُذّر من تجاهله أو الكفر به، لئلاً يتعرّض لـ «عَذَابِ مُّهِينٍ»، الذي أعدّه اللّهُ للكافرين، ذلك أنّهم «يُؤْمِنُون بِبَعْضٍ وَيَكْفُرُون بِبَعْضٍ من كلمة اللّه» (ف 102). وقد حُذّر من رفض معرفة ﴿الكِتَاب المُسْتَبِينَ﴾، الذي هو ﴿الفُرْقَانَ، وَضِيَاء، وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ؛ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ، وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾؛ لأنَّ الوحي ﴿تَمَاماً عَلَى الذي أَحْسَنَ، وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدَىً وَرَحْمَةً، لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّ الذي يرفض ذلك، وحسب حُكم النَّبِيّ نفسه ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾. علاوة على ذلك، فإنَّ عليه أنْ يحذرَ من التجديف (مثل بعضِ المسلمين الفاسدين في أيّامنا) بالكِتَاب المُقَدَّس، كي لا يتقرَّر مصيره مع «الكَافِرِينَ، الظَّالِمِينَ، الفَاسِقِينَ» (ف 124).

ما هي الوقاحة المخيفة التي تظهر من قبل بعض المُحَمَّديّين المعاصرين (تابعين غير جديرين بهذا الخصوص لنبيِّهم!) الذين يتحدَّثون بجهل وبتجديف بحقِّ: ﴿مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الكِتَابِ﴾، و﴿الفُرْقَانَ﴾، ﴿كَلاَمَ اللّهِ﴾!

وبالنسبة إلينا، نحن أهل الكِتَاب، فإنَّه وفقا لتعليم نبيِّ الإسلام، فإنَّنا نتَّبع، ونتمسَّك بكلِّ من التَّوْرَاةِ والإنجِيلِ (ف 127)؛ وإنَّه، طبقاً للتحدي، فإنَّنا ندرس هذه الكتب التي احتكم إليها في محضر من أهلِ الجَزيْرةِ العَرَبيّةِ على أنَّها شاهدٌ، من أجل البحث إنْ كانت تشهد أم لا على رسالته. وإنَّه لواجب مقدَّس على كلِّ مسلمٍ، من أجل الحماية ضدَّ أيٍ ضلال مهلك، أنْ يفعلَ الشيء نفسه.

وأخيراً، إنَّ جميع المسلمين المخلصين مدعوُّون للإيمان، ذلك أنَّه ليس بوسعهم أنْ يجحدوا بشكل ثابتٍ، تلك الكُتب التي هي ﴿كَلاَمَ اللّهِ﴾، و﴿نُوراً، وَهُدًىَ لِّلنَّاسِ﴾، و﴿ضِيَاء، وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ قصارى القول، إنّها منزلة لِهداية أولئك الذين يتَّبعون وصاياها صوب طريق السلام، وتجعلهم واعين للخلاص. فلماذا إذاً، يتجاهلون مورداً قيِّماً للغاية للعون الروحيِّ مثل الذي (القُرْآن نفسه هو الحكم) يوجد في العهد القديم والجديد، وينأون بأنفسهم عن نوره؟ ليبحثوا الكُتب باجتهاد، فإنَّهم سيجدون المغزى الكامل للكتب المُقَدَّسة بأنَّ «اللَّهَ كانَ في المسيح مصالحاً العالم لنفسه»؛ وأنَّ المسيحَ هو «الطريق، والحقيقة، والحياة»؛ «إنَّ الحياة الأبديَّة، التي يمكن أنْ يعرفوها هي أنت، الربّ الحقّ، ويسوع المسيح الذي أرسلته».



فهرس المحتويات

يهدف المركز غالباً في تركيزه على موضوعات مسكوت عنها في الثقافة العربية، فاختيار العنوانات لا يأخذ طابعاً ترفياً بقدر محاولته الإسهام في خلق وعي معرفي عقلي متحرر من دوغمائياته، قادر على استثمار المعرفة ومنجزاتها المتلاحقة في بناء الذات والجماعة بطريقة عصريّة، وطموحة وأن تُسهم في تطوير الدرس الأكاديمي وربطه بالطفرات المتصاعدة في العالم الغربي.

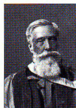


المركز الأكاديمي للأبحاث

هذا الكتاب

تكمنُ قيمة كتاب «القُرآن: نظمه وتعاليمه وشهادته للكُتب المُقدَّسة» في أمرين أساسيين، الأوّل: إنَّه كتاب على الرغم من صغر حجمه لكنّه يقدّمُ رؤيةً شاملةً من زوايا مختلفة للقرآن؛ إذ يجتهدُ المؤلف في استيعاب العناصر الرّئيسة للتعاليم والنُظم التي جاء بها هذا الكتاب المُقدَّس، وينتقل بشكلٍ مباشر لمتابعةِ ومقارنةِ الروايّة القرآنيّة وتناصاتها في كتابي التوراة والإنجيل، أما الأهمّيّة الثّانية فتندرجُ ضمن سياق تاريخ الدراسات القرآنيّة عند المستشرقين، فيعدُّ الكتاب من بين أولى تلك الأبحاث التي درست القرآن وتأثرت بمنهجيّة وسياق تاريخيٍّ مُهم يختلف كثيراً عما عليه هو الحال في الدراساتِ الغربيّةِ الحاليّة التي تتعاطى مع القرآن ودرسه؛ إذ من خلاله يمكن تحديد البدايات الاستشراقيّة الأولى لدراسة هذا النص المُقدَّس.

وليام موير



مستشرق وموظف إداري إنجليزي (1819 - 1905)، اشتغل في الإدارة المدنية لشركة الهند الشرقية فأمضى فترة طويلة في الهند في مناصب إدارية رفيعة من عام 1837 حتى عام 1876، حتى أصبح السكرتير الخارجي لحكومة الهند في 1865وفي أثناء عمله الإداري هذا في الهند تعلم اللغة العربية وعُني بالتاريخ الإسلامي، أخذ موير في قراءة المراجع العربية عن السيرة النبوية، وشرع في نشر عدة مقالات في «مجلة كلكتا» Calculta Review في عامي 1863، 1864، تناول فيها تاريخ العرب قبل الإسلام، ومصادر السيرة النبوية، وحياة النبي حتى الهجرة، وأصدر هذا كله في كتاب ضخم بعنوان: «حياة محمد وتاريخ الإسلام» (في 4 مجلدات، لندن 1856 - 1861)، وكان قبل ذلك قد أصدر في 1853 كتابه «حوليات الخلافة» وتتناول الخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين حتى سقوط الدولة الأموية. وقد تولى موير إدارة جامعة أدنبرة (في إسكتلندة) من عام 1885 حتى عام 1903.

The Academic Center for Research
CANADA- TORONTO





+964 780 226 2494
facebook.com/acadcntr
www.acadcr.com
info@acadcr.com

ISBN 978-1-990131-50-9

